حياة
شيخ الإسلام ابن تيميّة

تقي الدين احمد بن عبد الحليم الحرّاني الدمشقي

المتوفّى سنة ٧٢٨ هـ

محاضرات ومقالات ودراسات

بقلم

علاّمة الشّام الشيخ محمّد بهجة البيطار

منشورات

المكتب الاسلامي للطباعة والنشر

١٣٨٠ — ١٩٦١

حياة
شيخ الإسلام ابن تيمية

تقي الدين احمد بن عبد الحليم الحرّاني الدمشقي

المتوفّى سنة ٧٢٨ هـ

محاضرات ومقالات ودراسات

بقلم

علامة الشام الشيخ محمد بهجة البيطار

منشورات

المكتب الاسلامي للطباعة والنشر

١٣٨٠ — ١٩٦١



المقدّمة

الحمد لله الولي الحميد ، الهادي الى دين التوحيد ، في كتاب « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد » سبحانك لا نحصي ثناءاً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك ، وأنّى للعبد الضعيف أن يحصي ثناءاً على ربّه ؛ اللهم صل على نبينا محمد النبي العربي العالمي ، وآته الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاماً محموداً تزلف به قربه ، وتُقرُّ به عينه ، ويغبطه به الأولون والآخرون ، وارضَ اللهم عن آله الأطهار ، وأصحابه المهاجرين منهم والانصار ، ومن تبعهم باحسان .

وبعد فقد كنت نشرت فصولاً في مجلات مجمعنا العلمي بدمشق ، في حياة شيخ الاسلام ابن تيمية ، ثم طبعت تلك الفصول مستقلة في الجزء الثاني من محاضرات المجمع العلمي الذي طبع عام (١٣٧٣ هـ — ١٩٥٤ م) من بعد أن حاضرت فيها في قاعة المجمع . وهذه الفصول والعلاوات ، أولها تاريخي علمي ، تضمن دفع الفرية التي وردت في رحلة ابن بطوطة ، عن حديث نزول الرب كل ليلة الى

سماء الدنيا، وأنه قال ـ وهو يخطب الجمعة على منبر دمشق ـ : كنزولي هذا ، ورددناها بثلاثة أمور : (الأول) أن ابن تيمية لم يكن خطيب المسجد، بل كان واعظاً ومدرساً . (والثاني) أن ابن بطوطة لم يره ولم يجتمع به، إذ كان وصول ابن بطوطة الى دمشق في أواخر شهر رمضان سنة ٧٢٦ هـ وابن تيمية دخل قلعة دمشق في أوائل شعبان (٧٢٦هـ) ولبث فيها الى أن توفاه الله تعالى (٧٢٨هـ) . (والثالث) أنه ذكر حديث النزول في مواضع من كتبه ولم يقل فيها : كنزولي هذا.

العلاوة الثانية في اختياراته ، ومنها قضية الطلاق في الاسلام

(٣) ترجيحه لمذهب السلف في أمر المعتقد

(٤) تحقيقه لوحدة الاديان ، وأخوة الرسل الكرام ، عليهم السلام .

ثم رأيت لبعض مؤرخي عصرنا المحققين ألا وهو صديقنا الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة كتاباً مستقلاً في حياة الشيخ ، وفيه مباحث تاريخية علمية دينية ، تتعلق بسيرته رحمه الله ، وفيها وهمٌ واشتباه ، فكان عليَّ أن انبه الى ذلك ، لتكون حياته الطيبة خالية من الشوائب التي علقت بها ، وإن لم يكن معصوما . ولتكون علاوة خامسة على العلاوات الأربع التي نشرت مع المحاضرة ، وإن جاءت هذه في الاول (فمنها) دعوى منعه زيارة القبور ، لا سيما قبور الصالحين، وأعظمها قبور الأنبياء والمرسلين ، لا سيما خاتم النبيين ، عليهم جميعاً أفضل الصلاة والتسليم ، وقد أجاب ابن تيمية عن هذا بقلمه ، ودفع الفرية بنفسه ، فقال : « إن السفر الى مسجده وزيارة قبره ـــ كما يذكره أئمة المسلمين في مناسك الحج ـــ عمل صالح مستحب ، بل هذا من أفضل الاعمال الصالحة ، ولا في شيء من كلامي وكلام غيري نهي عن ذلك ، ولا نهي عن المشروع في زيارة قبور الانبياء والصالحين ، ولا عن المشروع في زيارة سائر القبور ، بل قد

ذكرت في غير موضع استحباب زيارة القبور ، كما كان النبي ﷺ يزور سكان البقيع وشهداء أُحُد ؛ وإذا كانت زيارة قبور عموم المؤمنين مشروعة ، فزيارة قبور الأنبياء والصالحين أولى [1] ».

وقد ذكر في كتاب « التوسّل والوسيلة » كيفية الزيارة وأدبها ، وكذا في كثير من رسائله ، وإنما منع أمرين اثنين : الزيارة الشركية المبتدعة ، وشدّ الرحل لمجرّد الزيارة (أي بلانية شدّ الرحل الى المسجد النبوي والصلاة فيه) وقد وهم بعض المؤرخين فظن أن الروضة هي بيت السيدة عائشة الذي دُفن فيه النبي ﷺ ، أو هو جزء منها ؛ والصواب أنها بين منبره وبيته ، كما هو نص الحديث الصحيح : « ما بين منبري وبيتي روضة من رياض الجنة » والصلاة فيها مطلوبة ، ولا دخل للقبر الشريف في مكان الصلاة أصلاً ، ولم يكن بيت عائشة أم المؤمنين مصلّى للناس في عهده ﷺ ، فكيف بعد أن دفن فيه ، وقد قال : اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد ، اشتدّ غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » .

اتّهم شيخ الاسلام بتشبيه الله تعالى بخلقه أو التجسيم ، على كثرة ردوده على المشبّهة والمجسمة ، كما كان يرد على القدرية والجهمية والمعتزلة ، وغيرهم من المؤولة والمعطلة ، وهو لا يزيد على ما وصف الله تعالى به نفسه في مثل قوله : « ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير » فقد أثبت في هذه الآية لنفسه ذاتاً وصفات وفيها التنزيه عن المماثلة ، وهو سبحانه كما وصف نفسه بقوله : « رفيع الدرجات ذو العرش » أي إنه سبحانه أرفع المخلوقات ذاتاً وصفات ، وأعظمها شأناً ، وأعزّها سلطاناً ، وكلّ شيء محتاج اليه ، وهو مستغنٍ عمّا

---

(١) ص ١٤ و ١٥ من الجواب الباهر في زوار المقابر المطبوع .

عداه ، وهو مالك العرش ومدّبره ، فهو مستول على عالم الاجسام ، وأعظمهـــا العرش ، كما هو مستول على عالم الرّوحانيات وهي مسخّرة له .

ألا وإن هذا العصر الذي نعيش فيه ، هو عصر الصعود والارتفـاع ، عصر الأقمار الصناعية والصواريخ ، يتبارى الشرق والغرب في إطلاق هذه الكواكب المصطنعة في الفضاء ، فترتفع في الساعة الواحدة ألوفاً كثيرة من الأميال ، ولكنها مهما علت فلن تبلغ السموات العلى ، لأن بيننـا وبينها ملايين الأميال ، فأين سرعة هذه الأقمار الأرضية والصواريخ من سرعة هذا الضوء أو النور الالهي « الله نور السموات والأرض » . وقد صرّح بعض أقطاب الفلك بأن سرعة الضوء قد ُقدّرت بثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية ، وأن الضوء في سرعته هـذه يطوف المحيط الأرضي الاستوائي — وهو أطول محيط من الارض — يطوفه سبع مرات ونصف المرّة في ثانية واحدة ، وضوء الشمس يصل الى الأرض بثماني دقائق واثنتي عشرة ثانية على بعدها الشاسع عنا ، البالغ (١٤٩) مليون كيلو متراً ؛ على أن هذه المسافة بيننا وبين الشمس لا يقطعها قطار سرعته (٩٠) كيلو متراً في الساعة إلا بعدة (١٧٧) سنة . والله تعالى عالٍ فوق سمواته ومخلوقاته ، لا يحلّ فيهم ، ولا يمتزج بهم ، وعلمه وسمعه وبصره وقدرته مدركة لكل شيء ، وذلك معنى قوله تعالى : « وهو معـكم أينما كنتم »

قال عبد الرحمن بن أبي حاتم : سألت أبي وأبا زرعة رحمهما الله تعالى عن مذهب أهل السنة في أصول الدين ، وما أدركا عليه العلماء في جميع الأمصار ، وما يعتقدان من ذلك ؟ فقالا : أدركنا العلماء في جميع الامصار ، حجازاً وعراقاً ومصر وشاماً ويمناً ، فكان من مذهبهم أن الله تبارك وتعالى على عرشه ، بائن من خلقه بلا كيف ، أحاط بكل شيء علماً . قال صديقنا الاستاذ أبو زهرة :

هل العبارات المروية عن أولئك الأئمة الاعلام صريحة في إثبات جهة العلو والاستواء بمعنى من جنس معنى الجلوس ؟ وأجاب بقوله : إن العبارات المروية عنهم الى التفويض أقرب منها الى التفسير ، وإبداء الرأي في معنى معيّن .

والجواب أنّا قدمنا بعض العبارات الصريحة لأولئك الأئمة الأعلام في إثبات صفة العلو المطلق (لا النسبي) لله تعالى على خلقه ، وأنه عالٍ على عرشه ، ومستغنٍ عنه كاستغنائه عن سائر المخلوقات ، فلا جلوس ، ولا مماسّة ولا استقرار ؛ وأما التفويض ففي الكيفية ، لا في أصل المعنى ، كما اشتهر عن الامام مالك قوله : الاستواء معلوم والكيف مجهول : أي إن معنى (الاستواء) معلوم ، وهو العروج والصعود والارتفاع ، ولكن الكيفية مجهولة . وحسبنا في ذلك قصة المعراج وهي متواترة ، وفيها تجاوز النبي (ﷺ) السموات سماء سماء ، حتى انتهى الى ربه تعالى ، فقرّبه وأدناه ، وفرض عليه الصلوات .

وقد اعتذر الاستاذ أبو زهرة عن دراسة كتاب (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) لكيلا يشغله عما هو فيه من دراسة فقه الامام . (وأقول) : إني قد درست هذا الكتاب دراسة مفصلة ، وكتبت عنه في مجلة مجمعنا العلمي فصلاً مطولاً ، في جملة الفصول التي نشرتها عنه في المجلة ، في بضع سنين .

وأما الاستغاثة بالحضرة المحمدية بعد الموت - التي تعرض لها صديقنا المنوّه بفضله - فقد أجاب عنها الامام ابن تيمية في كتاب « التوسل والوسيلة » بقوله : ولو كانت الاستغاثة بعد الموت ثابتة ثبوتها في الحياة ، لطُلب من النبي ﷺ أن يقوم بالامامة في الصلاة ، والامارة في الغزو ، وإرسال البعوث وعقد الألوية ، والشعائر في الحرب ، وإقامة الحدود ، وايصال الحقوق ، وقسم المواريث والغنائم ، والفيء والصدقات الخ .

وأقول - تأييداً لما ذكره شيخ الاسلام - : إن الصحابة الكرام قد

تناظروا بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام ، في أمر الخلافة ، وفي جمع القرآن ، وفي المعارك الدامية كوقعة الجمل وصفين والنهروان ، وتناظر الشيخان في قتال مانعي الزكاة ، وفي إرسال جيش أسامة ، ولم يستغيثوا به في هذه الشدائد ، ولم يستفتوه في شيء منها ؛ وكل هذا معلوم من الدين والتاريخ بالضرورة ، ومن العقل والحس والوجدان بالبداهة ، فيجب رد ما يتجدد من الوقائع والحوادث الى الوحي المنزل ، وما عرف من سنن الصدر الاول للاسلام .

تصحيح : جاء في أواخر هذا الكتاب الذي نوهنا به في هذا المقال — في ابن تيمية — استطراد ، ذكر فيه أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب تزوج ببنت الامير محمد آل سعود ، والصواب أنه (رحمه الله) قد تزوج بجوهرة بنت عثمان ابن معمر ، كما ترى في الكتب التي ترجمت له .

عقيدة التوحيد والنشء الجديد

افتتح بهذا المقال ترجمة شيخ الاسلام ابن تيميَّة الذي بقي طول حياته مجاهدا في سبيل الدعوة الى التوحيد وتنقيته من الشوائب ، والتمسك بما كان عليه السلف الصالح علماً وعملاً واعتقادا ولن يُصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها :

ان العرب لم تكن لهم وحدة حقيقية ، ولا جامعة عربية يحافظون عليها ويدافعون عنها ، الا بالتوحيد الذي ألف بين قلوبهم ، ووحد كلمتهم وعملهم فصانوا دماءهم ، وحفظوا اموالهم ، وقلصوا ظل القياصرة والاكاسرة عنهم ، بل كسروا شوكة المستبدين الظالمين في انحاء المعمور ، ومزقوهم كل ممزق .

ذلك بأن عقيدة التوحيد التي تغلغلت في نفوسهم وجرت في عروقهم ، قد ناطت رجاءهم في الله وحده لا يسألون الا اياه ولا يخشون أحداً سواه : (وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو ، وان يردك بخير فلا راد لفضله) وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما :(اذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله).

لما اخذ العرب بهذه العقيدة المثلى تركوا عبادة الحجر والشجر والبشر والكواكب والملائكة والجن ،وعلقوا خوفهم ورجاءهم بفاطر الارض والسموات، فطهرت عقولهم من لوثات الشرك والاضاليـــل ،وزكت نفوسهم من الرذائل والنقائص ، واصبحوا علماء حكماء ، لا تعرف الخرافات والاوهام الى قلوبهم سبيلا ، واخذت معارفهم حظها من الشيوع والانتشار بحيث لم تبق امة من امم الارض لم تقتبس من نورهم ، او لمعطر مجالسها بشذى ذكرهم الفواح.

لا شك ان تعلم الدين هو الواجب الاول فان الله تعــالى لم يخلق الجن والانس الا ليعبدوه، وعبادته لا تصح الا على الوجه الذي شرعه، وهذا لا يعرف الا بالتعلم ، واساس العلوم الدينية هو التوحيد الذي نزلت به الكتب ، وارسلت به الرسل ، وارتقى به السلف الصالح ارتقاء فاقوا به الامم وسادوا به العالم .

الاسلام دين عام لجميع الشعوب والاقوام « وما ارسلناك إلا رحمة للعالمين» والقرآن هو الذي هدى من دانوا به من الأمم الى جميع ما تمتعوا به من صنوف النعم، وهو الذي اظهر على ايديهم تلك المدنية الزاهرة ، التي جـددت ما اندرس من المدنيات الغابرة ، وأوجدت أصول مخترعات الأمم المعاصرة . وبناء على هذا الاساس نوجه انظار الاساتذة الكرام وافكارهم إلى ما يأتي :

١ ـ بيان أن القرآن الحكيم هو الذي هدى السلف الى الجمع بين مصالح الروح والجسد ، فهم بعد ان سمت عقولهم بالتوحيد ، وزكت نفوسهم بضروب الاخلاق والعبادات عنوا أشد العناية بالعلوم والفنون النافعة التي عدها الاسلام من الفروض ، وأوجبها على الامة إيجاباً لا هوادة فيه . قال تعالى : « قل انظروا ماذا في السموات والارض » وهذا النظر علمي عملي ينتج أفضل النتائج والثمار وقال : « وسخر لكم ما في السموات وما في الارض جميعاً منه » وهذا التسخير

تسخير تمكين وانتفاع ، واكتشاف واختراع ، وقال : « هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعاً » ، وهذا خطاب عام لهذه الأمة يدعوهم ويوجه نظرهم الى ما خلق تعالى في جوف هذه الأرض من الكنوز والمعادن ويرشدهم الى الاستفادة منها ، ويثبت ان جميع ما استحدثته أمم الغرب في هذه العصور من القوى البرية والبحرية والجوية ومن قوى الكهرباء وسائر ما ظهر في الوجود من المخترعات والمكتشفات ، هو مما ارشد اليه الاسلام ، فرده رد لنصوص القرآن ، وتعطيل لأحكامه ، وتجريد لهذه الامة من كل ما يعزز قوتها ، وينمي ثروتها ، ويحمي حوزتها ويدفع عوادي الشر عنها ، وأي جناية على الاسلام وأهله أشد من هذه الجناية ؟

٢ — بيان موافقة تعاليم القرآن وهدايته ، لمصالح البشر في كل زمان ومكان ، وأن مثل هذه الآيات الكريمة السابقة هي التي ارشدت سلفنا الصالح إلى ما في السموات من اسرار ومنافع ، وما في الارض من كنوز وذخائر ، فارتقت عقولهم وأفكارهم بالعلوم الالهية ، والفنون الصناعية ارتقاء سادوا به الارض ، وساسوا به العالم سياسة هي في نظر المطلعين على تاريخ الامم القديمة والحديثة أفضل مثال للعدل والرحمة ، ثم بيان أن شقاء البشر الحاضر العام لأمم الحضارة وما فيها من فوضى الآداب والاجتماع لا يزول إلا باتباع هداية الدين .

٣ — تطبيق ما في القرآن الحكيم من المواعظ والعبر على حال أهل هذا العصر والاتيان بالشواهد والامثال على ذلك ، وبيان الفرق بين ماضي المسلمين وحاضرهم ، وحجة القرآن الكريم عليهم .

وهذا كله من موضوع علم التفسير : تذكر هذه الآيات الكريمة بمناسباتها ، وتفسر بالظاهر المتبادر منها ، باسلوب ينطبق على اذواق الطلاب وافهامهم ، ويحملهم على العمل بها في انفسهم وفي امتهم .

٤ — مما يجب بيانه في دروس التوحيد قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه «إنما تُنقض عُرى الاسلام عروة عروة ، إذا نشأ في الاسلام من لم يعرف الجاهلية» وهنا يتبيَّن ان العرب كانوا في جاهليتهم مؤمنين بوجود الله تعالى ، موحدين له في افعاله من خلق ورزق وإحياء وإماتة وتصريف لجميع الأمور ، وهذا هو المسمى « توحيد الربوبية » ويستشهد لذلك بالآيات الكريمة كقوله تعالى: «ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » وكقوله : « قل من يرزقكم من السماء والارض . . .» الآية وكقوله : « قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله ... » الآيات وإنما كان شركهم في « توحيد الألوهية » أي في توحيد العبادة ، وهو انهم لم يقصروا عبادتهم بانواعها على مستحقها وهو الله وحده كالدعاء والخوف والرجاء والاستعانة والاستغاثة ، والذبح والنذر ، ليقربوهم الى الله على زعمهم،قال تعالى: « ألا لله الدين الخالص، والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى . . . » الآية وقال تعالى «ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله . . . » الآية فرد عليهم هذا الزعم الباطل بهذه الآيات نفسها، وبالآيات السابقة في توحيد الربوبية « ولئن سألتهم » « قل من يرزقكم » واقام عليهم الحجة بما أقرُّوه من انفراده تعالى بأفعال الربوبية على ما أنكروه من وجوب إفراده تعالى بالعبادة .

ومن صنيعهم أنهم كانوا في الشدائد يخلصون لله في الدعاء كما قص علينا من شأنهم بقوله : « فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجَّاهم إلى البر اذا هم يشركون » .

٥ — من المهم بيان ان الخوف نوعان : خوف عادة كالخوف من عدو

أو سبع مثلا وهذا خوف طبيعي لا محذور فيه ، وخوف عبادة ، كالخوف من تصرف غائب أو ميت بعباد الله ، كتصرف الله بمخلوقاته ، وهذا فيه كل المحذور لأنه يتضمن اعتقاد ان لبعض المخلوقات قدرة على التصرف بأنفس الاحياء ، وأموالهم ، كقدرة الله تعالى ، وهذا يناقض الحس والواقع ، ويخالف عقيدة التوحيد بافعال الله تعالى. وهكذا سائر الصفات: منها طبيعي ومنها غير طبيعي ، فمن الطبيعي مثلا خوف موسى عليه السلام من عصاه لما انقلبت حية « قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى » ومن غير الطبيعي حب بعض المخلوقات حب عبادة كما يحب المؤمن ربه ، قال تعالى « ومن الناس من يتخذ من دون الله انداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حباً لله » ، اوخشيته كما يخشى المؤمن ربه ومن شواهده قوله تعالى « اذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو اشد خشية » ومن الاول أيضاً (أي الطبيعي) : « ادعوهم لآبائهم هو اقسط عند الله » ومن الثاني (أي دعاء العبادة) « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله احدا » وهكذا الاستعانة والاستغاثة ، منها ما هو عادي طبيعي كاستغاثة الناس بعضهم ببعض فيما يقدرون عليه ، ومنه قوله تعالى : « فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه » فهذا داخل في دائرة الاسباب والمسببات ، ومنها ما هو فوق قدرة البشر ، كشفاء المرضى في الدنيا وإدخال الجنة في الآخرة ، فهو خاص بمن هو على كل شيء قدير ، ومنه قوله تعالى « إياك نعبد وإياك نستعين » فيجب التمييز بين الامور الكسبية ، والامور الغيبية ، فالأولى يمكن طلبها بأسبابها ومن القادرين عليها ، والثانية عبادة ، وهي لا تكون الا لله وحده ، فيلجأ اليه في طلبها ويتوكل عليه في تحصيلها . ولينتبه لهذا الفرق فانه عظيم .

٦ ــ بيان ان عرب الجاهلية كانوا اربع فرق : فرقة كانت تدعو الجن ، والثانية الملائكة ، والثالثة تعبد الرسل والصالحين ، والرابعة وهي احط الفرق

الاربع كانت تعبد الاوثان التي نحتتها على مثال الصالحين . وهذا البيان من افتراق المشركين الى اربع فرق قد بينه القرآن ، وكلم كل فرقة بحسب ما تعتقد ورد عليها وإليك الآيات التي تدل على ذلك : الاولى : الفرقة التي كانت تدعو الجن : « ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن اكثرهم بهم مؤمنون ، فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ولا ضرا » وقال تعالى في شأن هذه الفرقة أيضاً : « وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له (اخترعوا) بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون » ، وقال تعالى في شأن دعاة الملائكة والرسل والصالحين وهما الفرقتان الثانية والثالثة : « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا . أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم اقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، ان عذاب ربك كان محذورا » ولا يمكن لعاقل ان يزعم ان الاصنام كانت ترجو رحمة او تخشى عذابا .

وقال تعالى في شأن الفرقة الرابعة وهم عبدة الأوثان الذين نحتوها على مثال الصالحين : « إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ، الهم ارجل يمشون بها ... » الآيات . وجميع هذه الفرق كانوا يعتقدون أن الخالق لكل شيء هو الله تعالى ، وان دعاءهم لمن يدعون ليقربوهم الى الله زلفى ، كما حكى الله تعالى ذلك عنهم جميعاً بقوله : (ما نعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى) وقد تقدم ذلك ؛ ومن هنا يتبين خطأ من يظن أن الآيات نزلت فيمن كانوا يعبدون الاصنام وحدهم ، وقد علمت ان القرآن الكريم تكلم مع كل الفرق .

٧ — يراجع تفسير هذه الآيات الكريمة قبل إلقائها على الطلاب في كتب التفاسير المعتمدة ، ليعلم سياقها وسباقها والاسباب التي نزلت فيها وما فسرها به

من لا ينطق عن الهوى ﷺ او الصحابة او التابعون لهم باحسان كتفسيري امام المفسرين ابن جرير الطبري، والحافظ المحدث ابن كثير، ثم تفسر باسلوب سهل خال من المصطلحات، فيكون الاستاذ قد جمع في تفسيرها بين القديم والحديث على أصح الوجوه واحسنها.

أما الآيات الكونية فيرجع فيها ايضاً إلى ما فسرها به العلماء من محققي هذا العصر.

٨ — تشرح في دروس الفقه اركان الاسلام الخمسة التي وردت في حديث: (بني الاسلام على خمس) ويبين معنى كلمة التوحيد التي هي ركن الدين وأساسه الاعظم، (أي لا إله إلا الله) وأنها مسقطة لجميع آلهتهم (أي العرب قبل الاسلام) هادمة لانواع عبادتهم، ومثبتة لعبادة الله وحده الذي وحدوه بربوبيته (اي بأفعاله) ولم يوحدوه بالوهيته (اي بعبادتهم له كما تقدم) فمعنى (لا إله) نفي لكل معبود في الوجود وإبطال لعبادته، وكلمة (إلا الله) إثبات لعبادة المعبود بحق وحده وهو الله تعالى، ولو كان معناها (لا خالق إلا الله) او ما هو في معنى ذلك من افعال الربوبية كالرزق والاحياء والاماتة لما استكبروا عن النطق بها، لأن هذه الافعال لم يدّعوها لآلهتهم وقد تقدم بيان هذا في توجيهات التوحيد، فيجب على الاساتذة ان يشرحوا هذه الحقيقة لأنها أصل الأصول وحقيقة الحقائق.

٩ — تبيان المقاصد الدينية، والحكم الاجتماعية للصلاة والزكاة والحج والصيام وتبيان فوائد العبادات في معترك الحياة العملي والجهاد القومي. فالصلاة الروحية البدنية التي هي فرض عام على كل مكلف، تنهى عن الفحشاء والمنكر، واشد الفواحش والمنكرات فتكاً وهتكاً هي تلك الجيوش المعنوية التي فتحت بلاد الشرق لها عقولها وجسومها وجيوبها كالخمر والميسر والزنا والربا والانتحار، فكثير ممن أضاع الصلاة واتبع الشهوات وقع في هـــذا التيار الذي أسلمه الى

الجنون او المنون فكان ذلك من اشد المصائب على الوطن . (والصيام) الذي يدعو الى امساك المعدة عن الطعام ، وسائر الاعضاء عن الآثام وصرف جميع القوى والمواهب فيما خلقت له يعلم الثبات على خلق (أي مبدأ) قويم لا محيد عنه، فالصائم الذي يغلب عقله شهوته ، ولا يخون دينه بالأكل نهاراً - سراً اوعلانية - لا يمكن أن يخون وطنه أو يخدع في أمره ، فيبيعه بثمن بخمس من غير أهله . (والزكاة) إعطاء شيء معلوم من المال للفقراء والمساكين الذين اقعدهم العجز عن العمل ، دون الكسالى المتسولين القادرين على الاكل من كسب ايديهم (وبقية الاصناف الثمانية في آية : إنما الصدقات للفقراء والمساكين ...) فاذا حفظت الزكوات والوصايا لمستحقيها ، ووزعتها عليهم جمعيات التعاون على البر والتقوى ذوات الاختصاص بتمييز المستحقين من غيرهم ، كانت هذه افضل طريقة تجمع بها الاموال من المحسنين لاطعامهم وإيوائهم وتعليم ابنائهم . (والحج) اعظم مؤتمر اسلامي حر وأكبر نقابة في الدنيا تبحث في شؤون المسلمين ومصالحهم وتوازن بين ماضيهم وحاضرهم ، وتدافع عن حقوقهم وحرياتهم وتؤلف بين شعوبهم وقبائلهم . ثم هو فريضة الاسلام ، والركن الاجتماعي العام الذي يربط افراد الامة الاسلامية بعضهم ببعض ويشد اواصر التآخي والتراحم بينهم وينزع الضغن والحقد من بينهم فيصبحون بنعمة الله اخواناً .

١٠ — المعلمون ورثة الانبياء في تعليمهم واخلاقهم ، ومن شأن أساتذة الدين أن يكونوا من أكمل البشر وأفضلهم في آدابهم وأعمالهم ومعاملاتهم ، ويجب أن تتجلى فيهم مزايا العبادات المذكورة في هذه المقدمة وفوائدها ، وأن يكونوا هم صورة كاملة لها ، فهم القدوة الصالحة التي ينشدها الطلاب والمدارس والمثل العليا تستملى من صفاتهم وأعمالهم ، لا من الكتب التي بين أيديهم فحسب. والرجاء من أساتذة الدين أن يصحبوا طلابهم في المصلى والمسجد (لا في المقهى

والملهى) ويكونوا أئمة لهم في بعض الصلوات ، ومؤتمين بهم في بعضها الآخر ولا يرى الطلاب من عملهم مأخذاً لهم يتمسكون به (كعادة التدخين الضارة مثلاً) بل يجب أن يلاحظ رؤساء المعارف عامة والمعلمون منهم خاصة وأساتذة الدين على الاخص أنهم ليسو أشخاصاً عاديين لانهم يربون أرواحاً ويصلحون إصلاحاً فبهم يقتدي وبهديهم يهتدى ، وليذكروا قول المصلح الاعظم ﷺ « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة » .

شيخ الإسلام ابن تيمية

ليس في وسعي أن أحيط وصفاً بمواهب علامة الشرق الامام أحمد المعروف بابن تيمية الحرّاني الدمشقي ، فقد طبق الارض في عصره علماً وإصلاحاً ، وملأ الكون صدعاً بالحق وجهاداً ، وسارت بعلومه الركبان ، وعطر أريج شمائله وأعماله الأرجاء .

في أرض دمشق غرست شجرة الاصلاح بيد ابن تيمية فأثمرت ونضجت ، ومن سمائها سطعت شمس السنة الغراء ، فأضاءت وعمّت ، وفي أجوائها علت صيحة الحق ففزعت جيوش البدع والأوهام ؛ وليس من غرضي أن أذكر كل ما قيلَ في ترجمة هذا النابغة الكبير ، فهو كما قال الحافظ الذهبي « أعظم من أن تصفه كلمي ، أو ينبه على شأوه قلمي » فان سيرته وعلومه ، ومعارفه ومحنه ، وتنقلاته ، يحتمل أن توضع في مجلدين ، وإنما القصد أن نقتبس من نور خدمته العلمية ما ينير لنا طريق الحياة في سيرنا العلمي .

مولده ومنشؤه وتحصيله ومؤلفاته

قال العلامة الآلوسي صاحب جلاء العينين (ص ٤) : في تاريخ مؤرخ الاسلام الحافظ الذهبي ، وتاريخ الحافظ ابن حجر العسقلاني شارح البخاري ، وتاريخ الحافظ ابن كثير ، وتاريخ فوات الوفيات للكتبي ، وشذرات الذهب

(*) محاضرة ألقيت في قاعة المجمع العلمي العربي في نيسان سنة ١٩٢٣ ، ثم نقحت وأضيف اليها صفحات في تاريخ هذا الامام العظيم ، رحمه الله .

لابن العماد ، وتاريخ ابن الوردي ، وغيرهم : هو شيخ الاسلام ، وحافظ الانام ، المجتهـــد في الأحكام ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن الخضر بن محمد بن تيميـــة الحراني الحنبلي . وفي تاريخ اربل [1] أن جده سئل عن اسم (تيمية) فأجاب أن جده حج وكانت امرأته حاملاً فلما كان بتيماء — بلدة قرب تبوك — رأى جارية حسنة الوجه وقد خرجت من خباء ، فلما رجع وجد امرأته قد وضعت جارية فلمـا رفعوها اليه قال : يا تيمية ، يا تيمية ، يعني أنها تشبه التي رآها بتيماء ، فسمي بها انتهى . وفي فوات الوفيات : وقال ابن النجار : ذكر لنـــا أن محمداً هذا (أي الجد الأعلى لابن تيمية) كانت أمه تسمى تيمية وكانت واعظة فنسب اليها وعرف بهـا اه . ولد بحران [2] يوم الاثنين عاشر ربيع الاول سنة احدى وستين وستمائة وقدم به والده وبأخويه عند استيلاء التتـار على البلاد إلى دمشق سنة سبع وستين وستمائة ، فأخذ الفقه والأصول عن والده ، وسمع عن خلق كثيرين منهم الشيخ شمس الدين ، والشيخ زين الدين بن المنجا ، والمجد ابن عساكر ، وقرأ العربية على ابن عبد القوي ثم أخذ كتاب سيبويه فتأمله وفهمه ، وعني بالحديث وسمع الكتب الستة والمسند مرات ؛ وأقبل على تفسير القرآن الكريم فبرز فيه ، وأحكم أصول الفقه والفرائض والحساب والجبر والمقابلة وغير ذلك من العلوم ، ونظر في الكلام والفلسفة وبرز في ذلك على أهله ، ورد على رؤسائهم وأكابرهم ، وتأهل للفتوى والتدريس وله دون

---

(١) بلدة في شمال العراق تقع الى الشرق من الموصل.

(٢) حران : بلدة قرب الرها (اورفة) : من أرض الجزيرة بين دجلة والفرات ، وهي من بلاد الاناضول .

العشرين سنة ، وتضلع في علم الحديث وحفظه حتى قالوا : إن كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فهو ليس بحديث ، وأمده الله تعالى بكثرة الكتب وسرعة الحفظ وقوة الادراك والفهم ، وبطء النسيان ، حتى قال غير واحد انه لم يكن يحفظ شيئاً فينساه ؛ وألف في أغلب العلوم التأليفات العديدة ، في التفسير والفقه والأصول والحديث والكلام والردود على المبتدعة ، وله الفتاوى المفصلة ، وحل المسائل المعضلة ، وقد ذكر طائفة من مؤلفاته وعدّ منها كتاب «بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول» أربع مجلدات، و«إثبات المعاد» وكتاب «ثبوت النبوات عقلاً ونقلاً» ، وكتاب «الرد على الحلولية والاتحادية» ، وكتاب «الدرة المضية في فتاوي ابن تيمية» ، وكتاب «إصلاح الراعي والرعية» ، ثم قال الذهبي : وما أبعد أن تصانيفه إلى الآن تبلغ خمسمائة مجلد اهـ . وقال الحافظ الذهبي : انه نشأ في تصوّن تام وعفاف ، وتأله وتعبد ، واقتصاد في الملبس والمأكل ، وكان يحضر المدارس والمحافل في صغره ، ويناظر ويفحم الكبار ، ويأتي بما يحار منه أعيان البلد في العلم ، فأفتى وله تسع عشرة سنة بل أقل ، وشرع في الجمع والتأليف من ذلك الوقت ، وأكب على الاشتغال ، ومات والده وكان من كبار أئمة الحنابلة ، فخلفه في وظائفه وله إحدى وعشرون سنة ، واشتهر أمره وبعد صيته في العالم ، وأخذ في تفسير الكتاب العزيز أيام الجمع من حفظه ، فكان يورد المجلس ولا يتلعثم وذلك بتؤدة وصوت جهوري فصيح ، وكان آية في الذكاء وسرعة الادراك ، رأساً في معرفة الكتاب والسنة والاختلاف ، بحراً في النقليات . فريد عصره علماً وزهداً وشجاعة وسخاء ، وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر ، وكثرة تصانيف ، وقرأ وحصل وبرع في الحديث والفقه وتأهل للتدريس والفتوى وهو ابن سبع عشرة سنة ، وتقدم في علم التفسير والأصول ، وجمع علوم الاسلام

أصولها وفروعها ودقيقها وجليلها ، (إلى أن قال) وكان له باع طويل في معرفة مذاهب الصحابة والتابعين ، وقلّ أن يتكلم في مسألة إلا ويذكر فيها أقوال المذاهب الأربعة .

ثنـــاء الأئمة عليه

قال العلامة الشيخ مرعي الكرمي الحنبلي في كتابه (الكواكب الدرية)[1] الذي ألفه في مناقب الامام ابن تيمية : قد أكثر أئمة الاسلام ، من الثنـــاء على هذا الامام ، كالحافظ المزي وابن دقيق العيد وأبي حيان النحوي والحافظ ابن سيد النـاس والحافظ الزملكاني والحافظ الذهبي وغيرهم من أئمة العلماء .

وقال الحافظ المزي : ما رأيت مثله ولا رأى هو مثل نفسه . وما رأيت أحداً أعلم بكتاب الله وسنة رسوله ولا أتبع لهما منه .

وقال القاضي أبو الفتح بن دقيق العيد : لما اجتمعت بابن تيمية رأيت رجلاً كل العلوم بين عينيه يأخذ ما يريد ويدع ما يريد ، وقلت له ما كنت أظن أن الله بقي يخلق مثلك ! وقال الشيخ ابراهيم الرّقي : إن تقي الدين يؤخذ عنه ويقلد في العلوم فان طال عمره ملأ الارض علماً وهو على الحق ، ولا بد من أن يعاديه الناس لأنه وارث علم النبوة ، وقال قاضي القضاة ابن الحريري : ان لم يكن ابن تيمية شيخ الاسلام فمن هو ؟. وقال فيه شيخ النحاة أبو حيان لما اجتمع به : ما رأت عيناي مثله ، ثم مدحه أبو حيـــان على البديهة في المجلس وقال :

لما أتينا تقي الدين لاح لنا   داعٍ إلى الله فرداً ما له وزر

---

(١) من « مجموع : الرد الوافر » وما معه من الرسائل طبع مصر سنة ١٣٢٩ هـ

على محياه من سيما الألى صحبوا	خير البرية نور دونه القمر

حبر تسربل منه دهرنا حِبَراً	بحر تقاذف من أمواجه الدرر

قام ابن تيمية في نصر شرعتنا	مقام سيد تيم إذ عصت مضر

وأظهر الحق إذ آثاره درست	وأخمد الشر إذ طارت له شرر

كنا نحدث عن حبر يجيء فها	أنت الامام الذي قد كان ينتظر

وقال الحافظ الزملكاني : لقد أعطي ابن تيمية اليد الطولى في حسن التصنيف ، وجودة العبارة والترتيب ، والتقسيم والتبيين ، وقد ألان الله له العلوم كما ألان لداود الحديد . كان إذا سئل عن فن من العلم ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن . وحكم أن أحداً لا يعرفه مثله (الى أن قال) :

ماذا يقول الواصفون له	وصفاته جلّت عن الحصر

هو حجة لله قاهرة	هو بيننا أعجوبة الدهر

هو آية في الخلق ظاهرة	أنوارها أربت على الفجر

وقال عماد الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم الواسطي عنه : انموذج الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين ، الذين غابت عن القلوب سيرهم ، ونسيت الأمة حذوهم وسبيلهم ، فكان في دارس نهجهم سالكاً ، ولأعنة قواعدهم مالكاً .

وقال في ذيل الصفحة الرابعة من كتاب « القول الجلي في ترجمة الشيخ تقي الدين ابن تيمية الحنبلي » : ومما وجد في كتاب كتبه قاضي القضاة أبو الحسن السبكي الى الحافظ الذهبي في الشيخ تقي الدين ماصورته : وأما قول سيدي في الشيخ فالمملوك متحقق كبر قدره ، وزخارة بحره ، وتوسعه في العلوم الشرعية والعقلية ، وفرط ذكائه واجتهاده ، وبلوغه في كل من ذلك المبلغ الذي يتجاوز الوصف ، والمملوك يقول ذلك دائماً ، وقدره في نفسي أكبر من ذلك وأجل ، مع ما جمع

الله له من الورع والزهادة والديانة ونصرة الحق ، والقيام فيه لا لغرض سواه ، وجريه على سنن السلف ، وأخذه من ذلك بالمأخذ الأوفى ، وغرابة مثله في هذا الزمان بل من أزمان . انتهى .

زهده وايثاره

قال ابن فضل الله العمري كان يجيئه من المال في كل سنة مالا يكاد يحصى ، فينفقه جميعه آلافا ومئين لا يلمس منه درهماً بيده ، ولا ينفقه في حاجته ، بل كان اذا لم يقدر يعمد الى شيء من لباسه فيدفعه الى السائل ، وهذا مشهور عند الناس من حاله .

حكى من يوثق به قال : كنت يوما جالساً بحضرة شيخ الاسلام ابن تيمية فجاءه انسان فسلم عليه فرآه الشيخ محتاجاً الى ما يعتم به فنزع الشيخ عمامته من غير أن يسأله الرجل فقطعها نصفين واعتم بنصفها ودفع النصف الآخر لذلك الرجل ولم يحتشم للحاضرين عنده . وحدث من يوثق به أن الشيخ كان ماراً في بعض الأزقة فدعا له بعض الفقراء وعرف الشيخ حاجته ولم يكن مع الشيخ ما يعطيه ، فنزع ثوباً على جلده ودفعه اليه وقال : بعه بما تيسر وأنفقه ، واعتذر اليه من كونه لم يحضر عنده شيء من النفقة اهـ .

شجاعة الامام وغيرته على الدين والوطن

أراد ملك الكرج أن يفتك بسكان دمشق من المسلمين ، ويسبي ذراريهم ونساءهم ، فبذل للسلطان غازان ــ وهو أول من أسلم من ملوك المغول ــ أموالاً طائلة على أن يمكنه منهم ، فلما اتصل الخبر بالامام قام من فوره وانتدب رجالاً من

الوجوه والكبراء وذوي الاحلام الرجيحة واليك خلاصة ما جرى باخبار من كان حاضراً ولا ينبئك مثل خبير :

قال في الكواكب الدرية : قال الشيخ كمال الدين بن المنجا : كنت حاضراً مع الشيخ فجعل يحدث السلطان بقول الله ورسوله في العدل وغيره ، ويرفع صوته على السلطان ، ويقرب منه في أثناء حديثه . حتى لقد قرب من أن تلاصق ركبته ركبة السلطان ، والسلطان مع ذلك مقبل عليه بكليته ، مصغ لما يقول ، شاخص اليه لا يعرض عنه وأن السلطان مع شدة ما أوقع الله له في قلبه من المحبة والهيبة سأل: من هذا الشيخ فاني لم أر مثله ولا أثبت قلباً منه ، ولاأوقع من حديثه في قلبي ، ولا رأيتني أعظم انقياداً لأحد منه ؟ فأخبر بحاله وما هو عليه من العلم والعمل ، فقال الشيخ للترجمان قل لغازان : أنت تزعم أنك مسلم ومعك قاض وامام وشيخ ومؤذنون على ما بلغنا ، فغزوتنا ، وأبوك وجدك كانا كافرين وما عملا الذي عملت : عاهدا فوفيا وأنت عاهدت فغدرت ، وقلت فما وفيت وجرت ، ثم خرج من بين يديه مكرماً معززاً . بذل نفسه في طلب حقن دماء المسلمين فبلغه الله تعالى ما أراده . وكان سبباً لتخليص غالب أسارى المسلمين من أيديهم ، وردهم على أهليهم ، وحفظ حريمهم ، وكان يقول : لن يخاف الرجل غير الله إلا لمرض في قلبه .

وأخبر قاضي القضاة أبو العباس أنهم لما حضروا مجلس غازان قدم لهم طعام فأكلوا منه إلا ابن تيمية فقيل : لمَ لمْ تأكل ؟ فقال : كيف آكل من طعامك وكله مما نهبتم من أغنام الناس . ثم ان غازان طلب منه الدعاء فقال في دعائه: اللهم إن كنت تعلم أنه إنما قاتل لتكون كلمة الله هي العليا وجاهد في سبيلك أن تؤيده وتنصره ، وان كان الملك والدنيا والتكاثر أن تفعل به وتصنع . وقد

ذكر الكتبي من شجاعة الامام أنه شكا اليه إنسان من قطلوبك الكبير وظلمه له وكان فيه جبروت وأخذ أموال الناس واغتصابها – وحكاياته في ذلك مشهورة – فدخل عليه الشيخ وتكلم معه فقال له قطلوبك : أنا كنت أريد أن أجيء إليك لأنك عالم زاهد . يعني يستهزىء به. فقال له: موسى كان خيراً مني وفرعون كان شراً منك ، وكان موسى يجيء إلى باب فرعون كل يوم ثلاث مرات ويعرض عليه الايمان .

ومن مساعيه المشكورة في خدمـــة أبناء الملل السماوية سعيه في اطلاق أسرى المسلمين والمسيحيين واليهود على السواء ، وإصراره على ذلك ، ولم يرض باطلاق أسارى المسلمين فقط ؛ وإنما فعل ذلك عملا بقواعد دينه العام ، الذي يوجب المساواة في الحقوق والاحكام ، بين جميع من يظلهم سلطان الاسلام ، واليك شذرة مما كتبه في الرسالة القبرصية خطاباً لسرجوان ملك قبرص قال (١) :

ونحن قوم نحب الخير لكل أحد ، ونحب أن يجمع الله لكم خير الدنيا والآخرة ، فان أعظم ماعبد الله به نصيحة خلقه ، وبذلك بعث الله الانبياء والمرسلين ، ولا نصيحة أعظم من النصيحة فيما بين العبد وبين ربه ، فانه لابد للعبد من لقاء الله ، ولابد أن الله يحاسب عبده كما قال تعالى : « فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين » (إلى أن قال) :

وقد عرف النصارى كلهم أني لما خاطبت التتار في إطلاق الأسرى ، وأطلقهم غازان وقطلوشاه . وخاطبت مولاي فيهم فسمح باطلاق المسلمين قال لي : لكن معنا نصارى أخذناهم من القدس ، فهؤلاء لايطلقون ، قلت له : بل جميع من معك من

---

(١) « ص ١٢ » والرسالة مطبوعة بمطبعة المؤيد بمصر سنة ١٣١٩ هجرية .

اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا فانا نفتكّهم ولاندع أسيراً لامن أهل الملة ولا من أهل الذمة ، وأطلقنا من النصارى من شاء الله . فهذا عملنا وإحساننا والجزاء على الله .

وكذلك السبي الذي بين أيدينامن النصارى يعلم كل أحد احساننا ورحمتنا ورأفتنا بهم كما أوصانا خاتم النبيين اه .

ومن شجاعته ماحكاه في الكواكب قال : لما وشوا به الى السلطان الأعظم الملك الناصر لدين الله وأحضره بين يديه قال من جملة كلامه انني أخبرت أنك قد أطاعك الناس،وان في نفسك أخذ الملك، فلم يكترث به ، بل قال له بنفس مطمئنة وقلب ثابت ، وصوت عال سمعه كثير ممن حضر : أنا أفعل ذلك ؟ والله إن ملكك وملك المغل لايساوي عندي فلساً . فتبسم السلطان لذلك ، وأجابه في مقابلته بما أوقع الله له في قلبه من الهيبة العظيمة : إنك والله لصادق وان الذي وشى بك إليّ لكاذب ، واستقر له في قلبه من المحبة الدينية مالولاه لكان قد فتك به منذ دهر طويل من كثرة مايلقى اليه في حقه من أقاويل الزور والبهتان ، ممن ظاهر حاله العدالة ، وباطنه مشحون بالفسق والجهالة .

محن ابن تيمية ونبذة من عقيدته الحموية

قال العلامة الشيخ مرعي في الكواكب[1] : قلّ من يسلم من أهل الفضل والدين في هذه الدنيا بلا محنة وابتلاء وخوض فيه ، لأنه لم يداهن الناس ويصانعهم ، ولذا قل صديقه على حد قوله : (ما ترك الحق من صديق لعمر) وقال سفيان الثوري : إذا رأيت الرجل يثني عليه جيرانه فاعلم أنه مداهن .

(١) ص ١٦٧ من « المجموع المطبوع » .

(قال) وما وقع من المحنة للائمة كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والبخاري مشهور كما بينته في كتابنا «تنوير بصائر المقلدين في مناقب الأئمة المجتهدين» (ثم قال) هذا وشيخ الاسلام ابن تيمية — رحمه الله امتحن بمحن ، وخاض فيه أقوام ، ونسبوه للبدع والتجسيم ، وهو من ذلك بريء .

فأول محنة كما نقله الثقات في شهر ربيع الاول سنة ثمان وتسعين وستمائة بسبب عقيدته الحموية الكبرى ، وهي جواب سؤال ورد من حماة فوضعها ما بين الظهر والعصر في ست كراريس بقطع نصف البلدي ، فجرى له بسبب تأليفها أمور ومحن لترجيحه مذهب السلف على مذهب المتكلمين وتشنيعه عليهم (فمن بعض قوله في مقدمتها) ما قاله الله سبحانه ورسوله ﷺ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان ، وما قاله أئمة الهدى بعد هؤلاء الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم هو الواجب على جميع الخلق في هذا الباب وفي غيره . ومن المحال أن يكون خير أمة وأفضل قرونها قصروا في هذا الباب زائدين فيه أو ناقصين عنه ، ثم من المحال أيضاً أن تكون القرون الفاضلة قرن الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، كانوا غير عالمين وغير قائلين في هذا الباب بالحق المبين. قال: ظنوا أن طريقة السلف هي مجرد الايمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه لذلك بمنزلة الأميين . وأن طريقة الخلف هي استخراج معاني النصوص المصروفة عن حقائقها بأنواع المجازات وغرائب اللغات .

وقال: فهذا الظن الفاسد أوجبه اعتقاد أنهم كانوا أميين بمنزلة الصالحين من العامة لم يتبحروا في حقائق العلم بالله ، ولم يتفطنوا لدقيق العلم الالهي ، وأن الخلف الفضلاء حازوا قصب السبق في هذا كله ، كيف يكون هؤلاء المتأخرون لا سيما والاشارة بالخلف الى ضرب من المتكلمين الذين كثر في باب الدين

اضطرابهم ، وغلظ عن معرفة الله حجابهم ، وأخبر الواقف على نهاية اقدامهم ، بما انتهى اليه من مرامهم ، يقول الامام فخر الدين الرازي :

لعمري لقد طفت المعاهد كلها ... وسيَّرت طرفي بين تلك المعالم

فلم أرَ إلا واضعاً كف حائرٍ ... على ذَقَنٍ أو قارعاً سنّ نادم

وأقروا على أنفسهم بما قالوه متمثلين به ومنشئين له فيما صنفوه من كتبهم ، مثل قول بعض رؤسائهم :

نهاية إقدام العقول عقال ... وغاية سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

ويقول آخر منهم : «لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفي عليلاً ، ولا تروي غليلاً . ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن أقرأ في الاثبات : «اليه يصعد الكلم الطيب»، «الرحمن على العرش استوى» وأقرأ في النفي : «ليس كمثله شيء» ، « ولا يحيطون به علماً ، ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي» . ويقول الآخر منهم: «لقد خضت البحر الخضم ، وتركت أهل الاسلام وعلومهم ، وخضت في الذي نهوني عنه ، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لفلان وها أنا (ذا) أموت على عقيدة أمي » اه .

مناظرته رحمه الله

كان شيخ الاسلام يرجح في أمر المعتقد مذهب السلف الصالح ويعض عليه بالنواجذ ، ويحاول إرجاع الناس اليه بكل الوسائل ، ويرى رأي إمام دار الهجرة مالك بن أنس من أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها ، وهو

رأي كل حكيم عليم بداء الأمة ودوائها قديماً وحديثاً . وكان شديد الانتصار لمذهب السلف والدفاع عنه بالحجج العقلية والنقلية ؛ وقد عقدت له مناظرات في مصر والشام ؛ كان معظمها يحوم حول هذه القضية ؛ وقد كان سئل أن يكتب المناظرات الثلاث التي جرت له في الشام فكتبها . وإني أنقل منها المناظرة الثانية من كتاب (غاية الأماني) للعلامة أبي المعالي السلامي لتكون مثالاً من مناظراته

قال : أما بعد فقد سئلت غير مرة أن اكتب ما حضرني ذكره مما جرى في المجالس الثلاثة المعقودة للمناظرة في أمر الاعتقاد بمقتضى ما ورد من كتاب ذي السلطان من الديار المصرية الى نائبه أمير البلاد ، لما سعى اليه قوم من الجهمية والاتحادية والرافضة وغيرهم من ذوي الأحقاد ، فأمر الأمير بجمع القضاة الاربعة قضاة المذاهب الأربعة ، وغيرهم من نوابهم والمفتين والمشايخ ممن له حرمة وبه اعتداد ، وهم لا يدرون ما قصد بجمعهم في هذا الميعاد ، وذلك يوم الاثنين ثامن رجب المبارك عام خمس وسبعمائة . فقال لي : هذا المجلس عُقد لك ، فقد ورد مرسوم من السلطان بأن أسألك عن اعتقادك ، وعما كتبت به الى الديار المصرية من الكتب التي تدعو بها الناس الى الاعتقاد ، وأظنه قال : وأن أجمع القضاة والفقهاء يتباحثون في ذلك . فقلت : أما الاعتقاد فلا يؤخذ عني ولا عمّن هو أكبر مني ، بل يؤخذ عن الله ورسوله ﷺ وما أجمع عليه سلف الأمة ، فما كان في القرآن وجب اعتقاده ، وكذلك ما ثبت في الاحاديث الصحيحة مثل صحيح البخاري ومسلم . وأما الكتب فما كتبت الى أحد ابتداء أدعو به الى شيء من ذلك ، ولكني كتبت أجوبة أجبت بها من سألني من أهل الديار المصرية وغيرهم ، وكان بلغني أنه زوّر عليّ كتاب إلى الأمير ركن الدين الجاشنكير أستاذ ذي السلطان يتضمن ذكر عقيدة محرفة ولم أعلم بحقيقته لكن علمت أنه مكذوب .

وكان يرد عليّ من مصر وغيرها من يسألني عن مسائل في الاعتقاد فأجيبه بالكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة ، فقال : نريد أن تكتب لنا عقيدتك : فقلت : اكتبوا فأمر الشيخ كمال الدين أن يكتب فكتب له جمل الاعتقاد في أبواب الصفات والقدر ومسائل الايمان والوعيد والامامة والتفضيل. وهو أن اعتقاد أهل السنة والجماعة الايمان بما وصف الله به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ، ولا تكييف ولا تمثيل ، وأن القرآن كلام الله غير مخلوق ، منه بدا واليه يعود ، والايمان بأن الله خالق كل شيء من أفعال العباد وغيرها ، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه أمر بالطاعة وأحبها ورضيها ، ونهى عن المعصية وكرهها ، والعبد فاعل حقيقة ، والله خالق فعله ، وأن الايمان والدين قول ، وعمل ، يزيد وينقص ، وأن لا نكفر أحداً من أهل القبلة بالذنوب ،ولا نخلد في النار من أهل الايمان أحداً ، وأن الخلفاء بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي (ثم قلت) للأمير والحاضرين : أنا أعلم أن أقواماً يكذبون عليّ كما قد كذبوا غير مرة ؛ وإن أمليت الاعتقاد من حفظي ربما يقولون : كتم بعضه أو داهن أو دارى ، فأنا أحضر عقيدة مكتوبة من نحو سبع سنين قبل أن يجيء التتر الى الشام ، وقلت قبل حضورها كلاماً قد بعُد عهدي به وغضبت غضباً شديداً لكني أذكر أني قلت أنا أعلم أن أقواماً كذبوا علي وقالوا للسلطان شيئاً وتكلمت بكلام احتجت اليه . مثل أن قلت من قام بالاسلام أوقات الحاجة غيري ؟ ومن الذي أوضح دلائله وبينه وجاهد أعداءه وأقامه لما مال ، حين تخلى عنه كل أحد ، ولا أحد ينطق بحجته ، ولا أحد يجاهد عنه ، وقمت مُظهراً الحجة ، مجاهداً عنه مرغباً فيه ، فاذا (كان) هؤلاء يطمعون في الكلام فيّ فكيف يصنعون بغيري ، ولو أن يهودياً طلب من السلطان الانصاف لوجب عليه أن ينصفه ، وأنا قد أعفو

عن حقي وقد لا أعفو بل أطلب الانصاف منه وأن يحضر هؤلاء الذين يكذبون ليكافأوا على افترائهم ، وقلت كلاماً أطول من هذا الجنس لكن بعد عهدي به .

فأشار الأمير الى كاتب الدرج محي الدين أن يكتب في ذلك وقلت أيضاً : كل من خالفني في شيء مما كتبته فانا أعلم بمذهبه منه : ثم قرئت العقيدة في الجلسة فاعترض بعضهم على مسائل منها ، فأجاب الشيخ عنها . وكتبت هذه المناظرة الاولى بنحو ثماني صفحات ، ثم قال شيخ الاسلام :

فصل

فلما كان المجلس الثاني يوم الجمعة في اثني عشر رجب ، وقد أحضروا أكبر شيوخهم ممن لم يكن حاضراً ذلك المجلس ، وأحضروا معهم زيادة : (صفي الدين الهندي) وقالوا : هذا أفضل الجماعة وشيخهم في علم الكلام ، وبحثوا فيما بينهم ، واتفقوا وتعاطوا وحضروا بقوة واستعداد للمخاطب الذي هو المسؤول والمجيب والمناظر ؛ فلما اجتمعنا وقد أحضرت ما كتبته من الجواب عن أسئلتهم المتقدمة الذي طلبوا تأخيره الى اليوم حمدت الله بخطبة الحاجة خطبة ابن مسعود (رضي الله عنه) (ثم قلت) إن الله تعالى أمرنا بالجماعة والائتلاف ونهانا عن الفرقة والاختلاف وقال لنا في القرآن : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » (وقال) : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء » وقال : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات » ربنا واحد ، وكتابنا واحد ، ونبينا واحد ، وأصول الدين لا تحتمل التفرق والاختلاف ، وأنا أقول ما يوجب الجماعة بين المسلمين ، وهو متفق عليه بين السلف ، فان وافق الجماعة فالحمد لله ، وإلا فمن خالفني بعد

ذلك كشفت الأسرار ، وهتكت الأستار ، وبينت المذاهب الفاسدة التي أفسدت الملل والدول وأنا أذهب الى سلطان الوقت على البريد ، وأعرفه من الأمور ما لا أقوله في هذا المجلس فان للسلم كلاماً ، وللحرب كلاماً ، (وقلت) : لا شك أن الناس يتنازعون ، يقول هذا أنا حنبلي ، ويقول هذا أنا أشعري ، ويجري بينهم تفرق وفتن واختلاف على أمور لا يعرفون حقيقتها ، وأنا قد أحضرت ما بيّن اتفاق المذاهب فيما ذكرته ، وأحضرت كتاب تبيين كذب المفتري [1] . فيما ينسب الى الشيخ أبي الحسن الأشعري تأليف الحافظ أبي القاسم بن عساكر (رحمه الله) (وقلت) : لم يصنف في أخبار الأشعري المحمودة كتاب مثل هذا وقد ذكر فيه لفظه الذي ذكره في كتابه « الابانة » فلما انتهيت الى ذكر المعتزلة سأل الأمير عن معنى المعتزلة . فقلت : كان الناس في قديم الزمان قد اختلفوا في الفاسق الملي وهو أوّل اختلاف حدث في الملة : هل هو كافر أو مؤمن فقالت الخوارج إنه كافر ، وقالت الجماعة إنه مؤمن ، وقالت طائفة نقول هو فاسق لا مؤمن ولا كافر ، ننزله منزلة بين المنزلتين وخلدوه في النار ، واعتزلوا حلقة الحسن البصري وأصحابه (رحمه الله تعالى) فسموا معتزلة (وقال الشيخ الكبير) بجبته وردائه : ليس كما قلت ، ولكن أول مسألة اختلف فيها المسلمون مسألة الكلام وسمي المتكلمون متكلمين لأجل تكلمهم في ذلك ، وكان أول من قالها عمرو بن عبيد ، ثم خلف بعد موته عطاء بن واصل ، وبعد أن ردّ الامام عليه خطأه قال (قلت) الناس اختلفوا في مسألة الكلام في خلافة المأمون وبعدها في أواخر المائة الثانية ، (وأما المعتزلة) فقد كانوا قبل ذلك بكثير من زمن عمرو بن عبيد بعد موت الحسن البصري في أوائل المائة الثانية . ولم يكن أولئك قد تكلموا في مسألة

---

(١) عني بنشره القدسي بدمشق سنة ١٣٤٧ هـ .

الـكلام ولا تنازعوا فيها ؛ وانما أول بدعتهم تكلمهم في مسائل الأسماء والأحكام والوعيد (فقال) هذا ذكره الشهرستاني في الملل والنحل فقلت : الشهرستاني ذكره في اسم المتكلمين لم سمّوا متكلمين ، لم يذكره في اسم المعتزلة ، والأمير إنما سأل عن اسم المعتزلة ؛ وأنكر الحاضرون عليه ، وقالوا غلطت ، وقلت في ضمن كلام : أنا أعلم كل بدعة حدثت في الاسلام وأول من ابتدعها وما كان سبب ابتداعها ؛ وأيضاً فما ذكره الشهرستاني ليس بصحيح في اسم المتكلمين . فان المتكلمين كانوا يسمّون بهذا الاسم قبل منازعتهم في مسألة الـكلام ، وكانوا يقولون عن واصل بن عطاء انه متكلم ويصفونه بالـكلام ولم يكن الناس اختلفوا في مسألة الـكلام وقلت أنا وغيري إنما هو واصل بن عطاء أي لاعطاء بن واصل كما ذكره المعترض (قلت) : وواصل لم يكن بعد موت عمرو بن عبيد وانما كان قرينه وقد روي أن واصلاً تكلم مرة بكلام ، فقال عمرو بن عبيد : لو بعث نبياً ما كان يتكلم بأحسن من هذا ، وفصاحته مشهورة حتى قيل إنه ألثغ وكان يحترز عن الراء حتى قيل له أمر الأمـــير أن يحفر بئر فقـــال أوعز القائد أن يقلب قليب .

ولما انتهى الـكلام إلى ما قاله الأشعري قال الشيخ المقدم فيهم لا ريب أن الامام أحمد إمام عظيم القدر من أكبر أئمة الاسلام لـكن قد انتسب اليه أناس ابتدعوا أشياء (فقلت) أما هذا فحق ، وليس هذا من خصائص أحمد بل مامن إمام إلا وقد انتسب اليه أقوام هو منهم بريء وقد انتسب الى مالك أناس مالك بريء منهم ، وانتسب الى الشافعي أناس هو بريء منهم ، وانتسب الى أبي حنيفة أناس هو بريء منهم ، وقد انتسب الى موسى عليه السلام أناس هو بريء منهم ، وانتسب الى عيسى (عليه السلام) أناس هو منهم بريء ، وقد انتسب الى علي بن أبي طالب أناس هو بريء منهم ، ونبينا ﷺ قد انتسب اليه من القرامطـــة والباطنية وغيرهم من أصناف الملحدة والمنافقين من هو بريء منهم (قال) وذكر

في كلامه أنه انتسب الى أحمد من الحشوية والمشبهة ونحو هذا الكلام (فقلت) المشبهة والمجسمة في غير أصحاب الامام أحمد أكثر منهم فيهم : وبعد أن عدّ أصنافهم من الحنابلة (قال) وتكلمت عن لفظ الحشوية ما أدري جواباً عن سؤال الأمير أو غيره أو غير جواب . فقلت هذا اللفظ أول من ابتدعه المعتزلة فانهم يسمون الجماعة والسواد الأعظم (الحشو) (قال) وحشو الناس هم عموم الناس وجمهورهم . وهم غير الأعيان المتميزين يقولون هذا من حشو الناس كما يقال هذا من جمهورهم . وأول من تكلم بهذا عمرو بن عبيد قال أي عمرو وكان عبد الله ابن عمر رضي الله عنه حشوياً .

(وقلت) لا أدري في المجلس الأول أو الثاني : أول من قال ان الله جسم هشام بن الحكم الرافضي (قلت) لهذا الشيخ : من في أصحاب الامام أحمد حشوي بالمعنى الذي تريده : الأثرم ، أبو داود ، المروزي ، الخلاّل ، أبو بكر ، عبد العزيز ، أبو الحسن التميمي ، ابن حامد ، القاضي أبو يعلى ، أبو الخطاب ، ابن عقيل ، ورفعت صوتي وقلت سمهم قل لي مَن هم ؟ مَن هم ؟؟ أيكذب ابن الخطيب وافترائه على الناس في مذاهبهم تبطل الشريعة وتندرس معالم الدين ، كما نقل هو وغيره عنهم انهم يقولون إن القرآن القديم هو أصوات القارئين ومداد الكاتبين وان الصوت والمداد قديم أزلي ؟

من قال هذا ؟ وفي أي كتاب وجد هذا عنهم ؟ قل لي ، وكما نقل عنهم ان الله لا يُرى في الآخرة باللزوم الذي ادعاه والمقدمة التي نقلها . وأخذت أذكر ما يستحقه هذا الشيخ من أنه كبير الجماعة وشيخهم وأن فيه من العقل والدين ما يستحق أن يعامل بموجبه ، وأمرت بقراءة العقيدة جميعها عليه فانه لم يكن حاضراً في المجلس الأول وإنما أحضروه في الثاني انتصاراً . وحدثني الثقة عنه بعد خروجه من المجلس انه اجتمع به وقال

له أخبرني عن هذا المجلس ، فقال : ما لفلان ذنب ولا لي : فان الأمير سأل عن شيء فأجابه عنه . فظننته سأل عن شيء آخر . وقال قلت أنتم مالكم على الرجل اعتراض فانه نصر ترك التأويل ، وأنتم تنصرون قول التأويل وهما قولان للأشعري . وقال : أنا أختار قول ترك التأويل وأخرج وصيته التي أوصى بها : وفيها : قولي ترك التأويل (قال الحاكي له) فقلت له بلغني عنك أنك قلت في آخر المجلس لما أشهد الجماعة على أنفسهم بالموافقة : لا تكتبوا عني نفياً ولا اثباتاً فلم ذاك ؟ قال : لوجهين (أحدهما) اني لم أحضر قراءة جميع العقيدة في المجلس الاول . والثاني لأن أصحابي طلبوني لينتصروا بي فما كان يليق أن أظهر مخالفتهم فسكت عن الطائفتين اه باختصار قليل .

اعتقال شيخ الاسلام في مصر والشام وسببه

نقل صاحب الكواكب الدرية عن الشيخ علم الدين أنه في شهر ربيع الاول سنة ٦٩٨ وقع بدمشق محنة للشيخ الامام تقي الدين ابن تيمية . وكان الشروع فيها من أول الشهر ، وكان سببها ترجيحه مذهب السلف في الصفات على مذهب المتكلمين ، وكان قبل ذلك بقليل أنكر أمر المنجمين ، ثم عقدت له عدة مجالس للمناظرة في مصر والشام ، وحبس في القطرين ، وقد ذكرنا في الفصل السابق احدى تلك المناظرات . ونقل صاحب جلاء العينين عن الحافظ ابن كثير قال وأكثر ما نالوا منه (أي أعداؤه) الحبس مع أنه لا ينقطع في بحث لا بمصر ولا بالشام ، ولم يتوجه لهم عليه ما يشين وانما أخذوه وحبسوه بالجاه ، كما سيأتي اه .

قيل ومن جملة أسباب حبسه خوفهم أنه ربما يدعي ويطلب الإمارة فلقي أعداؤه عليه طريقاً من ذلك ، فحسنوا للأمراء حبسه لسد تلك المسالك اه .

حاله في معتقله ، ووفاته في قلعة دمشق

ذكر صاحب الكواكب الدرية : أن الشيخ لما سجن في مصر بحبس القضاة بحارة الديلم صار الحبس بالاشتغال بالعلم والدين خيراً من كثير من الزوايا والربط والخوانق والمدارس . وصار خلق من المحابيس إذا أطلقوا يختارون الاقامة عنده . وكثر المترددون اليه حتى صار السجن يمتلىء منهم .

ولما ورد أمر بسجنه بقلعة دمشق أظهر السرور بذلك وقال إني كنت منتظراً ذلك وهذا فيه خير عظيم . ونقل عنه وارث علومه العلامة ابن قيم الجوزية الذي حبس بقلعة دمشق معه في كتابه (الكلم الطيب والعمل الصالح) أنه قال : ما يصنع أعدائي بي ، أنا جنتي وبستاني في صدري أين رحت فهي معي لا تفارقني . أنا حبسي خلوة ، وقتلي شهادة ، واخراجي من بلدي سياحة ؛ وكان يقول في مجلسه في القلعة : لو بذلت ملء هذه القلعة ذهباً ما عدل عندي شكر هذه النعمة ، أو قال ما جزيتهم على ما تسببوا إليّ فيه من الخير ونحو هذا. وكان يقول في سجوده وهو محبوس : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ما شاء الله وقال لي مرة : المحبوس من حبس قلبه عن ربه . والمأسور من أسره هواه . ولما أدخل ووصل الى القلعة وصار داخل سورها نظر اليه وقال : « فضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب » وعلم الله ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه قط . مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها . ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والارجاف ، وهو مع ذلك أطيب الناس عيشاً ، وأشرحهم صدراً ، وأقواهم قلباً ، وأسرهم نفساً ، تلوح نضرة النعيم على وجهه ؛ وكنا إذا اشتد بنا الخوف

وساءت بنا الظنون ، وضاقت بنا الارض ، أتيناه فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله ، فينقلب انشراحاً وقوة ويقيناً وطمأنينة . فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه ، وفتح لهم أبوابها في دار العمل ، فأتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة اليها ، وكان بعض العارفين يقول . لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف اه وكان دخوله قلعة دمشق سادس شعبان ٧٢٦ وما زال مقيماً في قاعتها الى أن كانت وفاته ليلة الاثنين لعشرين من ذي القعدة سنة ٧٢٨هـ .

الاحتفال بالصلاة على شيخ الاسلام ودفنه

دخلت جنازة الامام جامع بني أمية ، وصلي عليه عقب صلاة الظهر ولم يبق في دمشق من يستطيع المجيء للصلاة عليه إلا حضر لذلك حتى غلقت الأسواق بدمشق ، وعطلت معايشها حينئذ ، وحصل للناس بمصابه أمر شغلهم عن غالب أمورهم وأسبابهم . وخرج الأمراء والرؤساء والعلماء والفقهاء ، والأتراك والأجناد ، والرجال والنساء والصبيان من الخواص والعوام ، قال بعض من حضر : ولم يتخلف فيما أعلم إلا ثلاثة أنفس كانوا قد اشتهروا بمعاندته فاختفوا من الناس خوفاً على أنفسهم بحيث غلب على ظنهم أنهم متى خرجوا رجمهم الناس .

واتفق جماعة ممن حضر وشاهد الناس والمصلين عليه أنهم يزيدون على نحو من خمسمائة ألف وحضرها نساء كثير بحيث حزرن بخمسة عشر ألفاً . قال أهل التاريخ : لم يسمع بجنازة تمثل هذا الجمع إلا جنازة الامام أحمد ابن حنبل . قال الدار قطني : سمعت أبا سهل بن زياد القطان يقول : سمعت

عبد الله بن أحمد بن حنبل يقول سمعت أبي يقول : قولوا لأهل البدع : بيننا وبينكم الجنائز . قال أبو عبد الرحمن السلمي أنه حزر الحزارون المصلين على جنازة أحمد ، فبلغ العدد بحزرهم ألف ألف وسبعمائة ألف سوى الذين كانوا في السفن . ثم حملت جنازة الشيخ الى قبره في مقبرة الصوفية فوضع . وقد جاء الملك شمس الدين الوزير ولم يكن حاضراً قبل ذلك فصلى عليه أيضاً ومن معه من الأمراء والكبراء ومن شاء الله من الناس . ثم دفن وقت العصر الى جانب أخيه الشيخ جمال الاسلام شرف الدين . انتهى من الكواكب باختصار .

* * *

خلاصة أعماله رحمه الله

نتقل عن فوات الوفيات (١) ، خلاصة أعماله التي طار بهـــا ذكره في البلاد ، وهو قد نقلها من كتاب (تذكرة الحفاظ) للحافظ ابن عبد الهادي . وقد آثرت نقلها لتكون فهرساً لأعمال شيخ الاسلام من سنة ٦٩٨ الى سنة ٧٢٨ وهي سنة وفاته .

قال ابن عبد الهادي قلت : أملى شيخنا المسألة المعروفة بالحموية سنة ٩٨ في قعدة بين الظهر والعصر وهو جواب سؤال ورد من حماة في الصفات ، وجرى له بسبب ذلك محنة ، ونصره الله وأذل أعداءه ، وما حصل له بعد ذلك الى حين وفاته من الأمور والمحن والتنقلات يحتاج الى عدة مجلدات ،

(١) (ج ١ ص ٤٠) طبع مصر سنة ١٢٩٩ هـ .

وذلك كقيامه في نوبة غازان سنة ٦٩٩ وقيامه باعباء الأمر بنفسه ، واجتماعه هو بنائبه قطلوشاه وبولاي ، واقدامه وجرأته على المغول ، وعظيم جهاده ، وفعله الخير ، من انفاق الأموال ، واطعام الطعـــام ، ودفن الموتى ؛ ثم توجهه بعد ذلك بمام الى الديار المصرية ، وسوقه على البريد اليها في جمعة لما قدم التتار الى أطراف البـلاد ، واشتد الأمر بالبلاد الشامية . واجتماعه باركان الدولة واستصراخه بهم ، وحضهم على الجهاد ، واخباره لهم بما أعد الله للمجاهدين من الثواب ، وابدائهم له العذر في رجوعهم ، وتعظيمهم له ، وتردد الاعيان الى زيارته ، واجتماع ابن دقيق العيد بـه ، وسماعه كلامه ، وثنائه عليه الثنـاء العظيم . ثم توجهه بعـــد أيام الى دمشق واشتغاله بالاهتمام لجهاد التتار ، وتحريض الأمراء على ذلك الى ورود الخبر بانصرافهم ، وقيامه في وقعة شقحب المشهورة سنة ٧٠٢ واجتماعه بالخليفة والسلطان وأرباب الحل والعقد وأعيان الامراء ، وتحريضه لهم على الجهـاد وموعظته لهم ، وما ظهر في هذه الوقعة من كراماته وإجابة دعائه وعظيم جهاده ، وقوة إيمانه وشدة نصحه للاسلام ، وفرط شجاعته ؛ ثم توجهه بعـــد ذلك في آخر سنة أربع لقتال الكسروانيين وجهادهم واستئصال شأفتهم ، ثم مناظرته للمخالفين سنة(٥) في المجالس التي عقدت له بحضرة نائب السلطنة الأفرم وظهوره عليهم بالحجة والبيان ، ورجوعهم الى قوله طائعين ومكرهين ، ثم توجهه بعد ذلك في السنة المذكورة الى الديار المصرية في صحبة قاضي الشافعية ، وعقد له مجلس حين وصوله بحضور القضاة وأكابر الدولة ، ثم حبسه بالجب بقلعة الجبل ومعه أخواه سنة ونصفاً ، ثم خروجه بعد ذلك وعقـــد مجلس له لخصومتهم ، وظهوره عليهم ، ثم اقرائه للعلم وبثه ونشره ؛ ثم عقد مجلس له في شهر شوال

سنة (٧) لكلامه في الاتحادية وطعنه (عليهم) ، ثم الأمر بتسفيره الى الشام على البريد ؛ ثم الأمر برده من مرحلة وسجنه بحبس القضاة سنة ونصفاً ، وتعليمه أهل الحبس ما يحتاجون اليه من أمور الدين ، ثم اخراجه منه وتوجهه الى الاسكندرية وجعله في برج حبس فيه ثمانية أشهر يدخل اليه من شاء ، ثم توجهه الى مصر واجتماعه بالسلطان في مجلس حفل فيه القضاة وأعيان الامراء واكرامه له اكراماً عظيماً ، ومشاورته له في قتل بعض اعدائه وامتناع الشيخ من ذلك ، وجعله كلّ من آذاه في حلّ ، ثم سكناه بالقاهرة وعوده الى نشر العلوم ونفع الخلق ، وما جرى بعد ذلك من قضية البكري وغيرها ، ثم توجهه بعد ذلك الى الشام صحبة الجيش المنصور قاصداً العراق بعد غيبته عن دمشق سبع سنين وسبع جمع ، وتوجهه في طريقه الى بيت المقدس ، ثم ملازمته بعد ذلك بدمشق لنشر العلوم وتصنيف الكتب وإفتاء الخلق ، الى أن تكلم في مسألة الحلف بالطلاق فأشار عليه بعض القضاة بترك الافتاء بها في سنة ثماني عشرة ، فقبل إشارته ، ثم ورد كتاب السلطان بعد أيام بالمنع من الفتوى فيها ثم عاد الشيخ الى الافتاء بها وقال لا يسعني كتمان العلم ، وبقي كذلك مدة الى أن حبسوه بالقلعة خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً ، ثم أخرج ورجع الى عادته من الاشتغال والتعليم ؛ ولم يزل كذلك الى أن ظفروا له بجواب يتعلق بمسألة شد الرحال الى قبور الأنبياء والصالحين كان قد أجاب به من نحو عشرين سنة فشنعوا عليه بسبب ذلك ، وكبرت القضية وورد مرسوم السلطان في شعبان من سنة ست وعشرين بجعله في القلعة ، فأخليت له قاعة حسنة وأجري إليها الماء وأقام فيها ومعه أخوه يخدمه ، وأقبل في هذه المدة على العبادة والتلاوة وتصنيف الكتب والرد على المخالفين ، وكتب على تفسير القرآن العظيم جملة كبيرة تشتمل على نفائس جليلة ، ونكت دقيقة ، ومعان لطيفة ، وأوضح مواضع كثيرة التبست

على خلق من المفسرين ، وكتب في المسألة التي حبس بسببها مجلدات عديدة ، وظهر بعض ما كتبه واشتهر ، وآل الأمر الى أن منع من الكتابة والمطالعة ، وأخرجوا ما عنده من الكتب ، ولم يتركوا دواة ولا قلماً ولا ورقة ، وكتب عقيب ذلك بفحم يقول : إن اخراج الكتب من عنده من أعظم النقم ، وبقى أشهراً على ذلك ، وأقبل على التلاوة والعبادة والتهجد حتى أتاه اليقين .

بعض تلامذة شيخ الاسلام الأعلام

ذكر صاحب جلاء العينين تراجم طائفة من تلاميذ شيخ الاسلام الأعلام، الذين كانوا من بعده من أشهر رجال الاسلام ، بما خلفوا من الآثار ، التي طار ذكرها في الأمصار ، وانتفع بها أبناء الأعصار (فمنهم) أشهر تلاميذه ، ووارث علومه ، العالم الرباني شيخ الاسلام الثاني ، شمس الدين محمد بن قيم الجوزية ، صاحب الآثار الكثيره المحررة ، الذي حبس مع الشيخ في قلعة دمشق ولم يفرج عنه إلا بعد موت الشيخ . وقد قال القاضي برهان الدين الزرعي : ما تحت أديم السماء أوسع علماً منه .

(ومنهم) الامام الحافظ مؤرخ الاسلام شمس الدين أبو عبد الله محمد الذهبي صاحب ميزان الاعتدال في نقد الرجال وغيره . وقال عنه العلامة الشيخ تاج الدين السبكي في طبقاته الكبرى : كأنما جمعت الأمة في صعيد واحد فنظرها ، ثم اخذ يخبر عنها اخبار من حضرها .

(ومنهم) الحافظ الكبير ، عماد الدين اسماعيل بن عمر بن كثير البصري ثم الدمشقي ، قال عنه ابن حبيب : انتهت اليه رئاسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير ، ومن تصانيفه التاريخ المسمى البداية والنهاية . وطبقات الشافعية وغيرها .

(ومنهم) الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي ؛ عده الذهبي في طبقات الحفاظ ، وقد عدّ له ابن رجب في طبقاته ما يزيد على سبعين مصنفاً وتوفي وعمره أربعون سنه أو أقل .

(ومنهم) قاضي القضاة شرف الدين أبو العباس أحمد بن الحسين المشهور بقاضي الجبل . قرأ على الشيخ تقي الدين ابن تيمية عدة تصنيفات في علوم شتى ، وأذن له في الافتاء في شبيبته قال الذهبي فيه : هو مفتي الفرق ، سيف المناظرين ؛ وبالغ ابن رافع وابن حبيب في مدحه ، وله اختيارات في المذهب ومن شعره اللطيف قوله :

الصالحيـــة جنـة ... والصالحون بها أقاموا

فعلى الديار وأهلها ... مني التحية والسلام

(ومنهم) زين الدين عمر الشهير بابن الوردي . له تصانيف في النحو والأدب والتصوف والتاريخ . وقد أطنب في ترجمـــة شيخ الاسلام في تاريخه . ومن نظمه :

سبحان من سخر لي حاسدي ... يحدث لي في غيبتي ذكرا

لا أكره الغيبة من حاسد ... يفيـــدني الشهرة والاجرا

(ومنهم) زين الدين أبو حفص عمر الحراني . ولي نيابة الحكم وقال لم أقض قضية إلا وأعددت لها الجواب بين يدي الله تعالى .

(ومنهم) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن مفلح ، قال أبو البقا السبكي : مارأيت عيناي أفقه منـه . وقال ابن القيم : ماتحت قبـة الفلك أعلم بمذهب الامام أحمد من ابن مفلح . وقال ابن كثير : وله مصنفات كثيرة منها على المقنع نحو ثلاثين مجلداً وعلى المنتقى وكتاب الفروع أربع مجلدات . وله كتاب في أصول الفقه والآداب الشرعية الكبرى والوسطى والصغرى .

أبيات من مراثيه

لقد نظم في رثاء الامام المترجم وذكر أعمـــاله ومآثره قصائد غرّ، وذكر طائفة منها صاحب الكواكب. وقد اخترنا أبياتاً منها نذكرهـــا انموذجاً لما قال فيه بعض واصفيه. قال ابن فضل الله العمري من قصيدة طويلة :

مثل ابن تيمية ترضى حواسده بحبسه والـــكم في حبسه غددوا
مثل ابن تيمية في السجن معتقل والسجن كالغمد وهو الصارم الذكر
مثل ابن تيمية تذوي خمـائله وليس يلقط من أفنـانه الزهر
مثل ابن تيمية شمس تغيب سدى وما ترق بهـا الآصال والبكر
مثل ابن تيمية يمضي وما عبقت بمسكه العاطر الأردان والطرر

ومنها في حساده ومناوئيه :

هل فيهم صادع للحق مقوله أو خائض للوغى والحرب تستعر
رمى إلى نحو غازان مواجهـــة سهامه من دعاء عونه القـدر
بتل راهط والأعداء قد غلبوا على الشآم وطال الشرّ والشرر
وشقّ في المرج والأسياف مصلتة طوائفاً كلهـا أو بعضها تـــتر
هذا وأعداؤه في الدار أشجعهم مثل النساء بظل البـاب مستتر

ومن قصيد لابن الوردي :

تقي الدين ذو ورع وعـــلم خروق المعضلات به تخاط
توفي وهو مسجون فريـد وليس له إلى الدنيـا انبساط
ولو حضروه حين قضى لألفوا ملائكـــة النعيم به أحاطوا

قضى نحبــاً وليس له قرين ولا لنظيره لــف القماط

ثم قال :

فيا لله ما قد ضم لحــد ويا لله ما غطى البــلاط

هم حسدوه لما لم ينــالوا مناقبه فقد مكروا وشاطوا

وكانوا عن طريقته كسالى ولكن في أذاه لهم نشاط

وحبس الدر في الأصداف فخر وعند الشيخ بالسجن اغتباط

بآل الهاشمي له اقتداء فقد ذاقوا المنون ولم يواطوا

الى أن قال :

ألم يكُ فيكم رجل رشيد يرى سجن الامام فيستشاط

إمام لا ولاية كان يرجو ولا وقف عليــه ولا رباط

ولا جاراكم في كسب مال ولم يعهد له بكم اختــلاط

ففيم سجنتموه وغظتموه أما لجزا أذيتــه اشتراط

وسجن الشيخ لا يرضاه مثلي ففيــه لقدر مثلكم انحطاط

أما والله لولا كتم سري وخوف الشر لانحل الرباط

وكنت أقول ما عندي ولكن لأهل العلم ما حسن اشتطاط

فما أحد الى الانصاف يدعو وكل في هواه له انخراط

سيظهر قصــدكم يا حابسيه ويهنيكم إذا نصب الصراط

فها هو مات عنكم واسترحتم فعاطوا ما أردتم أن تعاطوا

وحلوا واعقدوا من غير ردٍ عليكم وانطوى ذاك البساط

ومن قصيدة للشيخ محمد العراقي الجزري :

يا طليق اللسان في كل فنٍ فلقــد شرفت بك العليــاء

إن تكن مت فالعلوم التي أحييت من بعــد موتها أحياء

ومنها :

أنت «صخر» الوجود في كل أرض والبرايا جميعها « الخنساء »

ومنها :

قسماً بالاله لو أنصف الدهر لأضحى في كل بيت عزاء

ومن قصيدة زين الدين عمر بن الحسام الشبيلي رحمه الله :

سل عنه غازانا وسل أمراءه لما أتوا بطلائع الاسراء

والمغل قد ملكوا البلاد وأهلها كم قــــد من عات بغير عنـاء

وللفاضل برهان الدين ولد شهاب الدين التبريزي الحنفي :

فمن جاهد الأعداء في الدين مثله ومن سل سيف العزم في وجه غازان

ومنها :

وما ضره إن طال في السجن مكثه إذا كان في نسك وطاعة رحمن

هذا قليل من كثير من مواهب هذا الامام الكبير وأعماله . ومن وصف الأئمة له ، وشذرات من مراثيه .

علاوة على المحاضرة

دفع فرية عن ابن تيمية

بحث تاريخي علمي

لقد صدق كثير من العلماء والأدباء في مختلف العصور هـــذه الرواية الآتية في رحلة ابن بطوطة الشهير ، وجعلوها قضية مسلمة يروونها ويتوارثونها الى عصرنا هذا ، حتى أن دائرة المعارف الاسلامية التي تنقل الآن الى العربيــة في مصر ، قد ترجمت لابن تيمية ترجمة بقلم الاستاذ محمد بن شنب (ص ١٠٩ - ١١٦ ج ١) فيها أغلاط كثيرة ، ونقلت عبارة ابن بطوطة هذه ، وهي قوله عن إمام الشام وشيخ الاسلام ابن تيمية « وكنت اذ ذاك بدمشق ، فحضرته يوم الجمعة ، وهو يعظ الناس على منبر الجامع ويذكرهم . فكان من جملة كلامه أن قال : إن الله ينزل الى سماءِ الدنيا كنزولي هذا ، ونزل درجة من درج المنبر» فرأيت أن أنشر كلمة في هذا الموضوع تكون الحد الفاصل بين الحق والباطل .

١ — إن ابن بطوطة رحمه الله لم يسمع من ابن تيمية ولم يجتمع به ، إذ كان وصوله إلى دمشق يوم الخميس التاسع عشـــر من شهر رمضان المبارك عام ستة وعشرين وسبعمائة هجرية ، وكان سجن شيخ الاسلام في قلعة دمشق أوائل شهر شعبان من ذلك العام ، ولبث فيه الى أن توفاه

الله تعالى ليلة الاثنين لعشرين من ذي القعدة عام ثمانية وعشرين وسبعمائة هجرية ، فكيف رآه ابن بطوطة يعظ على منبر الجـــامع وسمعه يقول : ينزل ... الخ .

٢ — إن رحلة ابن بطوطة مملوءة بالروايات والحكايات الغريبة ، ومنها ما لا يصح عقلاً ولا نقلاً وهو يلقي ما ينقله على عواهنه ، ولا يتعقبه بشيء فمن ذلك قوله : (ا : ٥٤) وفي وسط المسجد (أي الأموي بدمشق) قبر زكريا عليه السلام ، والمعروف أنه قبر يحيى عليه السلام ، وقوله أيضاً : وقرأت في فضائل دمشق عن سفيان الثوري أن الصلاة في مسجد دمشق بثلاثين ألف صلاة ، وهذا لا يقـــال من قِبَل الرأي ، وسفيان أجل من أن يفضله على مسجد رسول الله (ﷺ) وعلى المسجد الأقصى ثالث الحرمين الشريفين وهما لم يبلغ الثواب فيهما هذه الدرجة ، كما هو معلوم للمحدثين وغيرهم ، ومن نقوله التي أقرها ولم ينكرها (١ ، ١٩٩ ، ١٣٣ ، ١٣٦) النذور للقبور المعظمة ، والوقوف على أبواب الملوك ، ومن ذلك النذر لأبي اسحق ، اذا هاجت الرياح في البحار ، واشتدت الأخطار ، وهو ما لم يبلغه أهل الجاهلية الذين قال الله تعالى عنهم « فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين » .

٣ - لم يكن ابن تيمية يعظ الناس على منبر الجامع كما زعم ابن بطوطة (ا : ٥٧) (فحضرته يوم الجمعة وهو يعظ على منبر الجامع) بل لم يكن يخطب أو يعظ على منبر الجمعة كما يوهمه قوله : « ونزل درجة من درج المنبر » . وإنما كان يجلس على كرسي يعظ الناس ، ويكون المجلس غاصاً بأهله ، قال الحافظ الذهبي : وقد اشتهر أمره ، وبعد صيته في العالم ، وأخذ في تفسير الكتاب العزيز أيام الجمع على كرسي من حفظه ، فكان يورد المجلس ولا يتلعثم ،

وكان يورد الدرس بتؤدة وصوت جهوري فصيح ، وقال : وفسر كتاب الله تعالى مدة سنين من صدره أيام الجمع » .

وقال علم الدين البرزالي في معجم شيوخه : « وكان يجلس في صبيحة كل جمعة يفسر القرآن العظيم ، فانتفع بمجلسه وبركة دعائه ، وطهارة أنفاسه وصدق نيته ، وصفاء ظاهره وباطنه ، وموافقة قوله لعمله ، وأناب إلى الله تعالى خلق كثير وإنما كان يخطب الناس على منبر الجامع الأموي في عهد دخول الرحالة ابن بطوطة دمشق ، قاضي القضاة جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني ، وقد كان خطيب المسجد ، وإمام الشافعية فيه ، وكان سكناه بدار الخطابة (ج ١ ص ٥٦ رحلة ابن بطوطة) .

ومما تقدم يعلم أن ابن تيمية كان مدرساً وواعظاً ، لا خطيباً ، وكان يلقي درسه في التفسير صبيحة كل جمعة ، وهو جالس على كرسي في الجامع الأموي لا واقف على منبر فينزل درجة عنه ، وقد أشار الى ذلك الحافظ المؤرخ ابن عبد الهادي بقوله : ثم ان الشيخ جلس يوم الجمعة (أي بدمشق) على عادته ، وقال وهو يصف حاله وأعماله بمصر : ويتكلم في الجوامع على المنابر من بعد صلاة الجمعة الى العصر ، فهو لم يقل على منابر الجمعة ، ولا على منابر الخطابة ، والظاهر أن المراد بالمنبر كل ما ارتفع عن الأرض كما يؤخذ من مفهومه اللغوي ، فهو يعم هذه الكراسي التي يجلس عليها المدرسون في المساجد الكبرى بمصر والشام والعراق ليُسمعوا منها الجماهير ، فكيف غفل ابن بطوطة عن ذلك ؟

٤ – إنك لا تجد في جميع ما تراه من كتبه المخطوطة والمطبوعة غير تفسير مسهب لمثل قوله الذي نقله عنه الشيخ ابن ناصر الدين الشافعي في الرد الوافر : « ومذهب السلف والأئمة الأربعة وغيرهم : إثبات بلا تشبيه ،

وتنزيه بلا تعطيل ، وليس لأحد أن يضع عقيدة ولا عبارة من عند نفسه ، بل عليه أن يتبع ولا يبتدع ، ويقتدي ولا يبتدي » ولمثل ما فسر به كلامه السيد صفي الدين الحنفي البخاري في القول الجلي بقوله : « قلت : - وتفسير كلامه أنه يجب الايمان بجميع المتشابهات الواردة في الكتاب والسنة كاليد والوجه والاستواء والنزول ، على وجه يليق به تعالى ، فلا يكيف بشيء منها ، ولا يمثل بصفات المخلوقين كما هو مذهب السلف ومن تبعهم من الخلف ، فلا يقال يد كيدنا ، ولا وجه كوجهنا ، أو استواء كاستوائنا ، أو نزول كنزولنا، بل يداه صفته بلا كيف ، وكذا وجهه ،وهكذا فقس سائر الصفات والأفعال» وأقول : هذه عقيدته الحموية والواسطية والاصفهانية التي عقدت له المناظرات حولها في مصر والشام ، بل هذه أيضاً كتبه ورسائله وفتاويه وردوده في العقائد قد بسط الكلام فيها على آيات الصفات والأفعال وأحاديثها كالوجه واليدين والاستواء والنزول وغيرها بالمعقول والمنقول ، وكلها يتضمن اثبات الاسماء والصفات مع نفي مماثلة المخلوقات ، إثباتاً بلا تشبيه ، وتنزيهاً بلا تعطيل ، كما قال تعالى : « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » وقوله : « ليس كمثله شيء » رد للتشبيه والتمثيل ، وقوله : « وهو السميع البصير » دفع للالحاد والتعطيل .

٥ — إن طريقة شيخ الاسلام في اثبات الأسماء والصفات ، وفي بيان منشأ غلط المعطلة والنفاة ، واضحة في جميع كتبه ، وخلاصتها أن لهذه الصفات وجوداً علمياً ذهنياً ، ووجوداً خارجياً عينياً ، فوجودها الذهني ، هو العلمي المطلق المجرد عن جميع الخصائص والاضافات كالحياة والعلم والقدرة ، والسمع والبصر والكلام ، وكون الموصوف حياً عليماً قديراً ، سميعاً بصيراً متكلماً ، وهذا القدر مشترك بين الموجودات كافة ، يطلق عليها بالاشتراك الاسمي أو اللفظي ، كما هو ثابت لها في الوجود العلمي والذهني ، ولكن شيئاً من ذلك

لا يقتضي المشاركة في الأعيان الخارجية ، بل الذهن يأخذ معنى مشتركاً بين المسميين ، وعند الاختصاص يقيد ذلك بما يتميز به الخالق من المخلوق ، والمخلوق من الخالق ولا بد من هذا في جميع أسماء الله وصفاته يفهم منها ما دل عليه الاسم بالمواطأة والاتفاق ، وما دل عليه بالاضافة والاختصاص المانعين من مشاركة المخلوق للخالق في شيء من خصائصه سبحانه وتعالى .

٦ — بيَّن شيخ الاسلام (رحمه الله تعالى) في الرسالة التدمرية وغيرها أن نفاة الصفات يقعون في كثير من الأوهام والمحاذير (منها) ظنهم أن مدلول النصوص هو التمثيل (ومنها) أنهم بنوا على ظنهم السيء تعطيل ما أودع الله ورسوله في كلامهما من معاني الالهية اللائقة بجلال الله تعالى . (ومنها) أنهم نفوا عن الله تعالى تلك الصفات بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير . (ومنها) أنهم وصفوا الرب تعالى بنقيض تلك الصفات من صفات الأموات والجمادات ، أو صفات المنقوصات والمعدومات ، فهم يجمعون في كلام الله وفي الله بين التعطيل والتمثيل ، وهذا من الالحاد في أسماء الله وآياته .

٧ — يظهر من كلام الحافظ ابن حجر ، أن الشيخ نصراً المنبجي الذي كان مقدماً في الدولة هو الذي أشاع مسألة النزول عن الدرج ، بسبب كتاب ورده من الامام ابن تيمية ينكر عليه فيه أقوالاً في وحدة الوجود ، ويعدّها عليه ، قال الحافظ ابن حجر في الدرر الكامنة (١ : ١٥٤) : « وكتب إليه كتاباً طويلاً ، ونسبه وأصحابه إلى الاتحاد الذي هو حقيقة الالحاد ، فعظم ذلك عليهم ، وأعانه عليه قوم آخرون ، ضبطوا عليه كلمات في العقائد مغيرة ، وقعت منه في مواعيده (مواعظه) وفتاويه ، فذكروا أنه ذكر حديث النزول ، فنزل عن المنبر درجتين (كذا) فقال : كنزولي هذا ، فنسب إلى التجسيم .

وأقول : قد عرفت المراد من لفظ المنبر ، حتى إن الحافظ ابن حجر قال : « وكان يتكلم على المنبر على طريقة المفسرين مع الفقه والحديث ، فيورد في ساعة من الكتاب والسنة، واللغة والنظر ، مالا يقدر أحد على أن يورده في عدة مجالس، كأن هذه العلوم بين عينيه » (ص ١٥٣ ج ١) من الدرر . وهذا مما يؤكد أنه كان يلقي درسه على كرسي يجلس عليه ، والمستمعون حوله ، فكلامه على طريقة المفسرين — من بعد صلاة الجمعة إلى العصر ، وإيراده من الآيات والأحاديث ونصوص اللغة ، وأقوال العلماء ، في مجلس واحد مالا يورده غيره في مجالس كثيرة كما تقدم ، هو طريقة المدرسين المحققين في حلقات المجالس الكبرى لا خطباء المنابر وهم وقوف ، لاسيما وقد صرحوا بجلوسه في دروسه ، ولا يتيسر على منابر الخطب الجمعية .

ثم انظر الى قوله في خصومه : ضبطوا عليه كلمات في العقائد مغيرة ، فاذا كانت مغيرة فما ذنبه هو حتى يؤخذ بها أو تؤخذ عليه ؟ « ولا تزر وازرة وزر أخرى »[1] والحافظ ابن حجر هو ناقل غير قائل ، وفي قوله : « عقائد مغيرة » ما يثبت أنه لا يعتد بما قالوه ، بل لا يعبأ بما افتري به عليه ، كيف وقد نقل أقوال الأئمة الثقات فيه ، وهم قد نزهوه عن تلك المفتريات ؟ ومن أراد استيفاء البحث فليراجع مجموعة الرد الوافر ، أو الرسالة التدمرية لشيخ الاسلام ، أو ملحق الجزء الرابع من فتاويه ، أو العقود الدرية للحافظ ابن عبد الهادي ، ليبلغ حد اليقين في نفي مطاعن الطاعنين .

٨ — ان العلوم الحديثة قربت فهم النصوص على طريقة السلف ، وبينت أنها الأعلم والأحكم ، بَلْهَ كونها الأهدى والأسلم ، فمن ذلك حديث النزول الذي أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين : « ينزل ربنا كل ليلة الى سماء الدنيا ...... الخ » فقد أورد في كتاب (دفع شُبه التشبيه) قول القاضي أبي

(١) سورة الأنعام ، الآية : ١٦٤

يعلي : « النزول صفة ذاتيـة ، ولا نقول : نزوله انتقـال » وقال ابن الجوزي : « وهذا مغالط » قلت : ليس بمغالط فقد ظهر في عصرنا ما يؤيد قوله . فان صوت المذياع الآن يسمع في كل مكان كما يسمع في مكانه ، وهذا الاختراع الحديث يقرب لنا فهم ما أورده البخاري في صحيحه ، من أن الله ينادي عباده بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب ، ومثله : إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السموات صوته ... الخ ، بل الآلة التي تريك المتكلم الآن حاضراً عندك وهو لم يبرح مكانه (تلفزيون) تهدينا الى فهم النزول الى سماء الدنيا بلا انتقال ، وان هذا النزول هو صفة ذات لا صفة فعل ، كما قال القاضي أبو يعلى ، ومثله اسناد صفة الكلام اليه تعالى في قوله : « وكلم الله موسى تكليماً »[1] وقول رسوله : « إذا تكلم الله بالوحي » فوصفه بما وصف به نفسه حقيقي غير مجازي وهو لا يحتـاج الى تأويل بـله التعطيل ، فراراً من شبهة التشبيه ، فان تشبيه من ليس كمثله شيء ، بالمخلوق المتكلم بفم ولسان ، غير وارد من أصله فقد أنطق العلم الحديث الآن الجمـــادات فنطقت بغير فم ولسان ، كالمذياع والحاكي ، أفتأبى قدرة الله وحكمته إلا أن يتكلم بفم ولسان كالانسان ؟ أليس هو القـادر على أن يختم على فم الانسـان وينطق جسمه الصامت كما أخبر بعدة أيات ؟ منهـا قوله سبحانه « اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم »[2] الآية . أفيعقل أن يكون هذا القادر الحكيم عاجزاً عن التكلم إلا بفم المخلوق ؟ وجملة القول : إن هذه الرواية مختلقة على ابن تيمية سواء صحت عن ابن بطوطة أم لم تصح ، فهو لم يره ولم يسمع منه ، ومؤلفاته جميعهـا ترد عنه هـذه الكلمة الشاذة ، بل لو ثبتت الرؤية والسماع ، لصح أن نقول : إن ابن بطوطة شبه له ابن تيمية ، كما شبه عذق النخلة في القصة التي حكاها ابن بطوطة في سبب تسمية الشيخ رسلان بالباز الأشهب (ج ١ : ٥٩) وقد كنت دخلت على شاب من معارفي ، فقلت له : ما أشبهك بفلان ، قال : فلان ما أعرفه ، ولكني أعرف شاباً آخر لولا تحققي من وجودي

---

(١) سورة النساء ، الآية : ١٦٤ (٢) سورة يس ، الآية : ٦٥

المستقل عنـه لظنته إياه ، وحـكايات الشبه والاشتباه في الاشخاص والاشياء لا تكاد تحصر ، وهي داخلة في باب تحقيق الشخصيـــة من كتب الطب الشرعي وغيره .

على أن ابن بطوطة لم يكتب رحلته بقلمه ، وانما أملاهـا على ابن جزي الكلبي ، وقال هذا في المقدمة : « ونقلت معاني كلام الشيخ أبي عبد الله بالفاظ موفية للمقاصد التي قصدها ، موضحة للمعاني التي اعتمدها » . فيجوز أن يكون ذلك من تحريف النساخ ، أو وسوسة بعض الخصوم ، والله تعالى أعلم[1] .

---

(١) لشيخ الاسلام كتاب مستقل في (شرح حديث النزول) (طبع بمصر سنة ١٣٦٧ - ١٩٤٨ م ص ٢٣٠) وقد حقق فيه ان هذا النزول هو صفة ذات لا صفة فعل ، ونقل فيه روايات عن أئمة السنة كحماد بن زيد ، واسحق بن راهويه ، بأنه تعالى في مكانه يقرب من خلقه كيف شاء .

قلت : الكتاب كله يؤيد هذا المعنى ، ويبعد عن شيخ الاسلام ضلالة تشبيه الله بخلقه ، ويهدينا الى فهم النزول الى سماء الدنيا بلا انتقال .

علاوة ثانية

في اختيارات شيخ الإسلام ابن تيمية

اشتهر شيخ الاسلام ابن تيمية بمسائل أثرت عنه ، وظن كثير من الناس أنه انفرد بها عن غيره ، بل ظنوا أنه خالف في بعضها الاجماع ؛ وهي أمور اجتهادية يقع في مثلها الخلاف بين العلماء . ومن المفروغ منه أن ابن تيمية قد بلغ رتبة الاجتهاد في الاحكام الشرعية ، وأنه كان يفتي الناس بما أدى اليه اجتهاده ، وانه موافق في فتاواه بعض الصحابة أو التابعين أو أحد أئمة المذاهب الأربعة أو غيرهم ، ممن عاصرهم أو جاء قبلهم أو بعدهم ؛ وقد قال العلامة برهان الدين ابن الامام محمد المعروف بابن قيم الجوزية : لا نعرف مسألة خرق فيها الاجماع ، ومن ادعى ذلك فهو إما جاهل وإما كاذب ، ولكن ما نسب اليه الانفراد به ينقسم الى أربعة أقسام ، (الأول) : ما يستغرب جداً فينسب إليه أنه خالف فيه الاجماع ، لندور القائل به وخفائه على الناس ، لحكاية بعضهم الاجماع على خلافه . (الثاني) : ما هو خارج عن مذاهب الأئمة الأربعة ، وقال بعض الصحابة أو التابعين أو السلف ، والخلاف فيه محكي . (الثالث) : ما اشتهرت نسبته اليه مما هو خارج عن مذهب الامام رضي الله عنه ، لكن قد قال به غيره من الأئمة وأتباعهم . (الرابع): ما أفتى به

واختاره مما هو خلاف المشهور في مذهب أحمد ، وإن كان محكياً عنه وعن بعض أصحابه .

وقد ذكر برهان الدين اختيارات شيخ الاسلام في هـــذه الأقسام الأربعة ، فالقسم الاول عدّ منه في الطلاق عشر مسائل ، وعدّ منـه في غير الطلاق ، تسعاً وعشرين مسألة . ومن مسائل القسم الثاني سبع عشرة مسألة . ومن الثالث ست عشرة ، ومن الرابع ستاً وعشرين . وتجد هـذه المسائل في مجموع يشتمل على رسالتين (الاولى) : في مذهب الامام داود الظاهري ، جمعها الاستاذ الشيخ محمد الشطي (والثانية) : في مسائل شيـخ الاسلام ابن تيمية ، جمع العلامة برهان الدين المتقدم . وفي الكواكب الدرية (من مجموع الردّ الوافر المطبوع بمصر ١٣٢٩) شذرة من هذه الاختيارات ومعها ذكر من اختارها من أئمة السلف (من ص ١٨٤) .

وأهم هذه الاقوال التي اشتدّ فيها النزاع ، وادعى خصوم الشيخ أنه خرق بها الاجماع ، ثلاث مسائل فيما نراه : الطلاق ، والوسيلة ، وشد الرحال الى غير المساجد الثلاثة المفضّلة : حرم مكة ، والمدينة ، والمسجد الأقصى ؛ ولنا في هذه القضايا الثلاث كلمات ثلاث أختم بها هذه العلاوة .

قضية الطـــلاق

الطلاق في الاسلام لا يكون إلاّ عن ضرورة وبصيرة ، وذلك بأن يكون الزوجان قانعين بان لا سبيل لبقائها على الحياة الزوجية ، لموانع جسمية أو نفسية ، خَلقية أو خُلقية ، تجعل صفو العيش كدراً ، وتعرّض النسل للمهانة والشقاء ، فالفراق في هذه الحال نعمة لا نقمة ، والزوجان سعيدان به

لأ شقيان ، « وإن يتفرقا يُغْنِ الله كلا من سَعَته »[1] وآية ذلك أن يكون الزوج في حال الطلاق عاقلاً مختاراً ، وأن تكون الزوجة راضية مطمئنة ، فيمتعها متاعاً حسناً ويفارقها باحسان . أما إذا لم يكن موجب للفراق ، فليس له أن يضارها بالطلاق ، وعليه أن يذكر قول العليم الحكيم : « فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً »[2] فهذا ضمان وأمان لها من الله تعالى طول حياتها عنده ، ما دامت قائمة بواجبها . أما طلاق الغضبان والسكران ، والطلاق من أجل قضية أجنبية لا علاقة للزوجة بها ، فهو طلاق الظالمين لأنفسهم ولأزواجهم ، وسيأتي حكمه .

وقد ذكر شيخنا القاسمي ـ رحمه الله ـ آداب التطليق المستنبطة من الكتاب الكريم والسنة الصحيحة ، في رسالته التي سماها « الاستئناس لتصحيح أنكحة الناس » فعدّ منها عشرة آداب (الأول): هو رعاية المصلحة في ايقاعه ، بعد التروي والتحاكم . (الثاني) : إيقاعه في حال الخوف من عدم إقامة حدود الله . (الثالث) : أن لا يكون القصد بايقاع الطلاق مضارّة الزوجة . (الرابع) : أن يطلق لداع لا يتأتى معه اتخاذها زوجة . (الخامس) : أن لا يطلق ثلاثاً دفعة واحدة . (السادس) : أن يشهد على الطلاق . (السابع) : أن لا يكون في حالة الغضب . (الثامن) : أن ينوي الطلاق ، « إنما الاعمال بالنيات » . (التاسع): أن يكون التطليق مأذوناً فيه من جهة الشارع . (العاشر) : التطليق باحسان ، لا باساءة ولا بفحش من الكلام ، ولا بغي ولا عدوان .

هذه الجمل القصيرة كالعناوين لهذه الآداب العشرة التي شرحها استاذنا في رسالته ، ثم قال : فأمر تعالى المطلقين إذا طلقوا الطلاق المأذون فيه ـ وهو المستوفي شروطه ـ أن يسرحوا نساءهم راضيات عنهم ، داعيات لهم ، ذاكرات لجميلهم ومعروفهم وإحسانهم ؛ وذلك بان يحسنوا إليهن بما يتمتعن به على قدر

(١) سورة النساء ، الآية : ١٣٠ (٢) سورة النساء ، الآية : ٣٤

اليسر والعسر ، وأكد ذلك أيضاً بقوله : « متاعـاً بالمعروف حقاً على المحسنين »
فجعل ذلك حقاً لازماً على الذين يحسنون الى أنفسهم في المسارعة إلى طـاعة الله
فيما ألزمهم به ، واداثهم ما كانهم من فرائضه ، ويحسنون إلى المطلقات بالتمتيـع
على الوجه الذي يحسن في الشرع والمروءة ، وختم البحث بهذه الكلمة الواعظة :
تالله إن القلب ينفطر ألماً ، والعين تدمع دماً ، على ما أصبحوا فيه من الجهـــل ،
ولا من سائق لهم إلى الفقه والعلم ، حتى أصبحت محاكم القضاة تياراً لأمواج
شكاية المظلومات ، وميداناً لجولان دعاوي الزوجات ، (و) حتى صار المسلمون
بتعنيهم في الطلاق وهضم حقوق الأزواج عاراً على الاسلام ، وفتنة لسواهم من
الأقوام ، « ربنا لا تجعلنـا فتنة للذين كفروا ، واغفر لنا ربنا إنك أنت
العزيز الرحيم » .

الطلاق عند الأجـــانب

أما الطلاق في أوربا وأميركا فالظاهر أنه لا يكون إلا لأسبـاب تقع بين
الزوجين خاصة ، ولكنهم يطلقون لأهون الأسباب وأيسرها ، كقص الشعر
وحلق اللحية ، ولباس السهرة ونحو ذلك ، ولذلك كثر عندهم كثرة هائلة ، وهو
طلاق باعثه السآمة والملل ، وحب التنقل ، وله عواقب وخيمة ، ومنها ضيـاع
النسل . وقـــد نشرت جريدة الاهرام (أول سنة ١٣٥٤هـ وسنة ١٩٣٥ م)
اعتقاداً للقاضي لندسي أشهر قضاة الطلاق في لوس انجلوس في ولاية (كليفورنية)
خلاصته أن الحياة الزوجية ستزول من بلادهم (أميركا الشمالية) وتحـــل محلها
الاباحة والفوضى في العلاقة ما بين النســاء والرجال في زمن قريب ؛ وهي الآن
كشركة تجارية ينقضها الشريكان لأوهى الاسباب خلافاً لهداية جميع الأديان ،
إذ لا دين ولا حب يربطهما ، بل الشهوات والتنقل في وسائل المسرات اهـ .

ومن غريب الاتفاق اني قرأت في صحيفة دمشقية صدرت يوم (١٣٧١/٧/٢٢ و ١٩٥٢/٤/١٦) كلمة عن الطلاق عند الاميركيين وأسبابه، يتبين منها أن نزول الفتاة الاميركية — فتاةً ومتزوجة — إلى ميدان العمل الخارجي هو الذي أثارها على طبيعتها وشريعتها، ودعاها إلى كراهية البيوت والأزواج والأولاد !!! فقد « زادت نسبة النساء العاملات في السنوات الأخيرة بمقدار (٥٠) في المئة، في حين أن الرجال لم يزيدوا الا بمقدار (٢٠) في المئة. ومما يدل على أن المرأة الأميركية تفوق جميع نساء العالم نفوذاً انتشار الطلاق في أميركا، والمشاهد أنه كلما قوي نفوذ المرأة كثر الطلاق، لأن قدرة المرأة على الاستقلال بنفسها استقلالاً مادياً وأدبياً يهون عليها أمر الفراق عن زوجها، ولهذا نجد أن نسبة الطلاق في أميركا ثمانية أمثالها في بريطانيا، كما نجد أن (٧٠) في المئة من حالات الطلاق تقع بناءً على طلب الزوجات لا على طلب الأزواج، وقلما تجد الآن فتاة أميركية ترضى أن تكون ربة بيت فقط، بل كل فتاة تريد أن تعمل وأن تكسب كالشباب، وبعد الزواج ترفض المرأة أن تبقى في بيتها ! !

قلت : سبب هذا الانحلال الخُلقي، والتدهور الاجتماعي هو تخلي الرجال عن النساء، بل دفعهن في تيار العمل واللهو خارج المنزل، فاختل نظام البيوت، وتقوضت دعائم الأسرة، وهذا هو الذي يقلدهم فيه من بلاد الشرق عبيد الشهوات، حتى تتعطل الحياة المنزلية، وتقفر البيوت من أهلها :

إذا لم تكن في منزل المرء حرّةٌ   مدبّرة ضاعت مصالح داره

الطلاق في الاسلام

وبعد فلشيخ الاسلام في الطلاق الشرعي والبدعي كلام يطول، ولشرحه في كتب ابن القيم حواشٍ وذيول، وحسبنا أن نشير الى مراجعه فهي مطبوعة

متداولة ، وفيها من حقائق التنزيل والتأويل ، ما يضمن سلامة الأسر ، بل سعادة البشر ، لو رعوا هذه النصوص حق رعايتها ، ولم يستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير ، وكتب الشيخين قد أشبعت هذا الموضوع بحثاً واستدلالاً ، ولم تدع للمبتدعة فيه شبهة ولا مقالاً ، بل أوردت جميع مقالاتهم وأتت عليها نقضاً وإبطالاً . وإنك لتجد هذه المباحث السابغة والحجج البالغة ، في الجزأين الثالث والرابع من فتاوى شيخ الاسلام ، والاغاثتين الكبرى والصغرى لتلميذه ابن القيم ، وله أيضاً سبح طويل في كتابه « زاد المعاد » وفي تهذيبه « لسنن أبي داود » واليك نبذاً قصيرة منها كلها :

قال شيخ الاسلام في فتاويه[1] : إن الأصل بقاء النكاح ، ولا يقوم دليل شرعي على زواله بالطلاق المحرم ، بل النصوص والأصول تقتضي خلاف ذلك ولو غلّظ الايمان التي شرع الله فيها الكفارة بما غلّظ ، ولو قصد أن لا يحنث فيها بحال ، فذلك لا يغير شرع الله ، وأيمان الحالفين ، لا تغيّر شرع الدين .

وقال ص ٣١ : « والمرأة إذا أبغضت الرجل كان لها أن تفتدي نفسها منه وهذا الخلع تبين به المرأة ، فلا يحل له أن يتزوجها بعد إلا برضاها ، وليس هو كالطلاق المجرد .... إن الخلع هو الفرقة بعوض ، فمتى فارقها بعوض فهي مفتدية لنفسها به ، وهو خالع لها بأي لفظ كان .... وذلك أن الاعتبار بمقاصد العقود وحقائقها لا باللفظ وحده ، فما كان خلعاً فهو خلع بأي لفظ كان ، وما كان طلاقاً فهو طلاق بأي لفظ كان ، وما كان يميناً فهو يمين ، وما كان إيلاءً فهو إيلاء ، وما كان ظهاراً فهو ظهار ، والله تعالى ذكر في كتابه الطلاق واليمين والظهار والايلاء والافتداء وهو الخلع ، وجعل لكل واحد حكماً ، فيجب أن

---

(١) ج ٢٧/٣ طبع مصر .

نعرف حدود ما أنزل الله على رسوله ، وندخل في الطلاق ما كان طلاقاً ، وفي اليمين ما كان يميناً ا ه باختصار .

وفي ص ٣٣ : « إن كتاب الله يبين أن الطلاق بعد الدخول لا يكون إلا رجعياً ، وليس في كتاب الله طلاق بائن إلا قبل الدخول » .

ولو قال : أنتِ عليّ كظهر أمي وقصد به الطلاق ، فان هذا لا يقع به الطلاق عند عامة العلماء ، وفي ذلك أنزل الله القرآن فانهم كانوا يعدّون الظهار طلاقاً ، والايلاء طلاقاً ، فرفع الله ذلك كله . وجعل في الظهار الكفارة الكبرى[1] وجعل الايلاء يميناً يتربص فيها الرجل أربعة أشهر ، فاما أن يمسك بمعروف أو يسرح باحسان ، وكل يمين يحلف عليها المسلمون من أيمانهم ففيها كفارة يمين[2] ، كما دل عليه الكتاب والسنة .

وفي ص ٢٤٦ من « زاد المعاد » : وأجمع المسلمون على وقوع الطلاق الذي أذن الله فيه وأباحه ، إذا كان من مكلف مختار ، عالم بمدلول اللفظ ، قاصد له . واختلفوا في وقوع المحرّم من ذلك . . . ونحن نذكر المسألتين تحريراً وتقريراً ، كما ذكرناهما تصويراً .

وفيه : أن رسول الله (ﷺ) أُخبر عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعاً ، فقام غضبان ثم قال : أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم ؟ وإسناده على شرط مسلم . ا ه .

---

(١) « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا ، فتحرير رقبة من قبل ان يتماسا . . فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا ، فمن لم يستطع فاطعام ستين مسكيناً » . الآيتان (٣ و ٤) من سورة المجادلة

(٢) « فكفارته اطعام عشرة مساكين من اوسط ماتطعمون أهليكم ، او كسوتهم او تحرير رقبة ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة ايام » . الآية (٨٩) من سورة المائدة

قال البخاري في صحيحه : باب الطلاق في الاغلاق والسكران والمجنون وأمرها ، والغلط ، والنسيان في الطلاق والشك لقول النبي (ﷺ) : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى » - إلى قوله : وقال عثمان : ليس لمجنون ولا سكران طلاق . وقال ابن عباس : طلاق السكران والمستكره ليس بجائز اهـ . وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري : وذهب الى عدم وقوع طلاق السكران أيضاً - كعثمان - أبو الشعثاء ، وعطاء ، وطاووس ، وعكرمة ، والقاسم ، وعمر بن عبد العزيز ، وذكرهم ابن أبي شيبة عنهم بأسانيد صحيحة ، وبه قال ربيعة والليث واسحق والمزني ، واختاره الطحاوي .

وفي « أعلام الموقّعين ج : ٣/٣٣٢ » - بعد أن ذكر من ذهب الى القول بعدم نفوذ طلاق السكران من الحنفية والشافعية - قال : والصحيح أنه لا عبرة بأقواله من طلاق ولا عتاق ولا بيع ولا هبة ولا وقف ولا إسلام ولا ردّة ولا إقرار ، لبضعة عشر دليلاً ، ثم فصل القول في ذلك كله تفصيلاً .

ومن « زاد المعاد [1] » : « وأما طلاق الاغلاق ، فقد قال الامام أحمد في رواية حنبل : وحديث عائشة رضي الله عنها : سمعت النبي ﷺ يقول : لا طلاق ولا عتاق في إغلاق . يعني الغضب ، قال شيخنا - يعني ابن تيمية - : وحقيقة الاغلاق أن يغلق على الرجل قلبه فلا يقصد الكلام أو لا يعلم به كأنه انغلق عليه قصده وإرادته » اهـ . قلت : قال أبو العباس المبرد : الغلق ضيق الصدر وقلة الصبر بحيث لا يجد له مخلصاً . (قال شيخنا) : ويدخل في ذلك

---

(١) ص ٢٤٤ .

طلاق المكره والمجنون ، ومن زال عقله بسكر أو غضب ، وكل من لا قصد له ولا معرفة له بما قال . اهـ .

وفي « أعلام الموقعين »[1] :

المخرج الأول : أن يكون المطلق أو الحالف زائل العقل إما بجنون أو إغماء ، أو شرب دواء ، أو وسوسة ، وهذا المخرج مجمع عليه بين الامة . اهـ باختصار قليل .

ثم قال : المخرج الخامس : أن يفعل المحلوف عليه ذاهلاً ، أو ناسياً أو مخطئاً ، أو جاهلاً ، أو مكرهاً ، أو متأولاً ، أو معتقداً أنه لا يحنث به تقليداً لمن أفتاه بذلك ، أو مغلوباً على عقله ، أو ظناً منه أن امرأته طلقت ، فيفعل المحلوفَ عليه بناء على أن المرأة أجنبية ، فلا يؤثر فعل المحلوف عليه في طلاقها شيئاً . اهـ .

وفي فتاوى شيخ الاسلام[2] : « ولا يقع طلاق المكره ، والاكراه يحصل إما بالتهديد أو بأن يغلب على ظنه أنه يضره في نفسه أو ماله » . وفي ص ١٥٢ : « ومن حلف بالطلاق كاذباً يعلم كذب نفسه لا تطلق زوجته ولا يلزمه كفارة يمين » .

وقال أيضاً : ومن علق الطلاق على شرط أو التزمه لا يقصد بذلك إلا الحض أو المنع فانه يجزئه فيه كفارة يمين إن حنث .

وفي ص ١١٢ ج ٤ ولو حلف بالثلاث فقال : الطلاق يلزمني ثلاثاً لأفعلن كذا ، فكان طائفة من السلف والخلف من أصحاب مالك وأحمد بن حنبل وداود وغيرهم يفتون بانه لا يقع به الثلاث ، لكنهم منهم من يوقع به واحدة ،

(١) طبع مصر سنة ١٣٢٥ هـ ج ٣٣١/٣ .

(٢) ج ١٥١/٤ .

وهذا منقول عن الصحابة والتابعين ، وغيرهم في التنجيز فضلاً عن التعليق واليمين . وهذا قول من اتبعهم على ذلك من أصحاب مالك وأحمد وداود في التنجيز والتعليق والحلف.

وفي ص ١١٦ : الثاني صيغة قسم كقوله : الطلاق يلزمني لأفعلن كذا ، أو لا أفعل كذا ، فهذا يمين باتفاق أهل اللغة ، واتفاق طوائف الفقهاء ، واتفاق العامة واتفاق أهل الأرض اهـ .

المطلقة

وبعد فهذه مقتطفات من قصيدة (المطلقة) للشاعر الشهير الرصافي في الانتصار لمذهب ابن القيم وشيخه عليهما الرحمة والرضوان ، وقد نشرت في آخر « إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان » ومطلعها :

بدت كالشمس يحضنها الغروب ... فتاة راع نضرتها الشحوب

منزهة عن الفحشاء خود ... من الخفرات آنسة عروب

ومنها :

حليلة طيب الأعراق زالت ... به عنها وعنه بها الكروب

رعى ورعت فلم تر قط منه ... ولم ير قط منها ما يريب

ومنها :

فغاضب زوجها الخلطاء يوماً ... بأمر للخلاف به نشوب

فأقسم بالطلاق لهم يميناً ... وتلك أليَّة خطأ وحُوب

وطلقها على جهل ثلاثاً ... كذلك يجهل الرجل الغضوب

وأفتى بالطلاق طلاق بتٍ ... ذوو فتيا تعصبهم عصيب

فبانت منـــه لم تأت الدنايا ولم يعلق بهـا الذام المعيب

فظلت وهي باكية تنـــادي بصوت منه ترتجف القلوب

لماذا يا نجيب صرمت حبلي؟ وهل أذنبت عندك يا نجيب؟

ومنها:

فأطرق رأسه خجلاً وأغضى وقال ودمع عينيه سكوب

نجيبـــة أقصري عني فاني كفاني من لظى الندم اللهيب

وما والله هجرك باختياري ولكن هكذا جرت الخطوب

وقد ختمها بقوله:

ألا قل في الطلاق لموقعيـه بما في الشرع ليس له وجوب

غلوتم في ديانتـــكم غلواً يضيق ببعضه الشرع الرحيب

أراد الله تيسيراً وأنـتم من التعسير عندكم ضروب

وقد حلت بأمتكم كروب لـكم فيهن لا لهم الذنوب

وَهَتى حبـل الزواج ورق حتى يكاد إذا نفخت له يذوب

كخيط من لعاب الشمس أدلت به في الجو هاجرة حلوب

يمزقـه من الأفواه نفث ويقطعـه من النسم الهبوب

* * *

فدى ابن القيم الفقهاء كم قـد دعاهم للصواب فـلم يجيبوا

ففي أعلامـــه للناس رشد ومزدجر لمن هو مستريب

نحا في ما أتاه طريق عـلم نحاها شيخه الحبر الأديب(١)

وبيّن حكم دين الله لكن من الغالين لم تعـــه القلوب

لعل الله يحدث بعـد أمراً لنـا فيخيب منهم من يخيب

---

(١) هو شيخ الاسلام ابن تيمية.

والمقصود - كما يقول ابن القيم - أن الناس لا بد لهم في باب الطلاق من أحد ثلاثة أبواب يدخلون منها (أحدها) باب العلم والاعتدال الذي بعث الله به رسوله (ﷺ) وشرعه للأمة رحمة بهم، وإحساناً اليهم، (والثاني) باب الآصار والأغلال الذي فيه من العسر والشدة والمشقة ما فيه (والثالث) باب المكر والاحتيال الذي فيه من الخداع والتحيل والتلاعب بحدود الله تعالى، واتخاذ آياته هزواً ما فيه، ولكل باب من المطلقين وغيرهم جزء مقسوم.

رجوع المحاكم المصرية الى الطلاق الشرعي

قال الاستاذ السيد محمد رشيد رضا في مناره: وأطال ابن القيم في تخريج أحاديث الباب والكلام عليها، وأثبته بالكتاب والسنة واللغة والعرف وعمل أكثر الصحابة (ثم قال):

واقترح بعض الفقهاء والعقلاء على حكومتنا المصرية الرجوع فيها الى أصل الكتاب والسنة الذي كان أول من بسط دلائله شيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه المحقق ابن القيم في كتبه أعلام الموقعين، وإغاثة اللهفان، وزاد المعاد، ووافقهما وأيدهما من أعلام السنة وفقهاء الحديث بعدهما الامام الشوكاني، والسيد صديق حسن، وصاحبا شرح سنن أبي داود وحاشية سنن الدارقطني من متأخري علماء الهند الاعلام [1].

ونقف عند هذا الحد من الكلام في يسر الاسلام وسماحته في أمر الطلاق وحماية الأسرة ورعايتها، وان ابن تيمية لم يتخط هذه الدائرة من أقواله، بل جميع ما أتى به مؤيد بالكتاب والسنة وما كان عليه أعلام هذه الامة.

ونختم هـــذا البحث بمـا جاء في القانون المصري للمحاكم الشرعية،

(١) ٦٨٣ ج ٩ م ٢٨ .

وهو المعروف بقانون (٢٥ المؤرخ ١٠ مارس سنة ١٩٢٩) تحت عنوان « الطلاق » ما نصه :

١ – لا يقع طلاق السكران والمكره .

٢ – لا يقع الطلاق غير المنجز إذا قصد به الحمل على فعل شيء أو تركه ، لا غيره .

٣ – الطلاق المقترن بعدد لفظاً أو إشارة لا يقع إلا واحدة .

٤ – كنايات الطلاق – وهي ما تحتمل الطلاق وغيره ، لا يقع بها الطلاق إلا بالنية .

٥ – كل طلاق يقع رجعياً إلا المكمل للثلاث . والطلاق قبل الدخول ، والطلاق على مال ، وما نص على كونه بائناً في هذا القانون ، والقانون ٢٥ لسنة ١٩٢٠

قلت : وهذا القانون المشار اليه سنة ١٩٢٠ هو ما اتفقت عليه اللجنة المؤلفة من حضرات شيخ الجامع الأزهر ، وشيخ المالكية ، ورئيس المحكمة العليا الشرعية ، ومفتي الديار المصرية ، ونائب السادة المالكية ، وغيرهم من العلماء .

وإنك لتجد في المذكرة الايضاحية لهذه الاحكام الخمسة بياناً وافياً عنها واحدة واحدة ، ومَن مين أئمة السلف ، وعلماء الحديث ، وفقهاء المذاهب أخذ بها ، وهذه المقررات منطبقة تمام الانطباق على ما قدمنا من مذهب الشيخين ابن تيمية ، وابن القيم ، والله أعلم .

علاوة ثالثة

ترجيحه لمذهب السلف في أمر المعتقد

تمهيد

يظن بعض الناس أن دعاة الاصلاح والتجديد ، لأمر الدين والتوحيد ، على أساس الكتاب والسنة ، وما كان عليه سلف هذه الأمة ،إنما يحاولون إحياء الدين وإماتة ماعداه من علوم السلف وحضارتهم ، أو عدم الانتفاع بما تدعو اليه الحاجة من مخترعات الغربيين ومدنيتهم ، ان تعجب فعجب هذا الزعم الباطل ! إن سلفنا الصالح الذين نهتدي بهديهم ، ونقفو أثرهم ، قد جعلهم الله هداة للناس في الدين والدنيا ، وأورثهم أرض كثير من الأمم القديمة وما عليها من علوم وآداب وصناعة وعمران ، ونحن نتلو أخبارهم ، ونقفو آثارهم ، وإن لم نبلغ شأوهم ، ونستفيد من مستحدثات الامم المعاصرة ، كما استفاد سلفنا من مزايا الشعوب والأمم الغابرة .

إنا نحاول أن نكون أمة ذات مدنية عربية اسلامية ، لا شرقية ولا غربية ، أساسها الأخلاق والفضائل ، وميزانها إقامة العدل بين الخلائق ، وهذا الطراز الممتاز من المدنية نقتبسه من نور العصور الذهبية للاسلام . ولقد ذاق الناس من ظلم المدنية الحديثة ما جعل أشد الناس إيماناً بها من قبل ، أشدهم بغضاً لها ، وكراهية للمستبدين الظالمين من أهلها .

ولقد كان شيخ الاسلام ابن تيمية ينصر مذهب السلف الصالح بأدلة عقلية ونقلية ، ويحاول إرجاع الناس اليه بكل الوسائل ، ويرى رأي إمام دار الهجرة مالك بن أنس من أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها ، وهو رأي كل حكيم عليم بداء الأمة ودوائها قديماً وحديثاً ، وقد ألف كتباً كثيرة كان معظمها يحوم حول هذه القضية ، وعقدت له عدة مناظرات في مصر والشام من أجلها ، وقد أثرنا بعضها من قبل . وله رحمه الله في باب التوحيد الخالص ، المجرد عن شوائب الوثنية والبدع والزوائد ، كتب ورسائل ، بعضها طبع وبعضها لمّا يطبع ، ونقتصر الآن على ذكر ثلاثة منها مطبوعة :

(١) كتاب الاستغاثة المعروف بالرد على البكري ، وهو علي بن يعقوب بن جبريل البكري الشافعي المصري (٦٧٣ - ٧٢٤) وترجمته في الشذرات (ج ٦ ص ٦٤) وهو رد على مسألة الاستغاثة بالمخلوقين ، وقد لخصه ابن كثير في تاريخه .

(٢) كتاب الرد على الاخنائي المسمى بقاضي القضاة علم الدين بن شمس الدين (٦٦٤-٧٣٢) وترجمته في الشذرات أيضاً (ج ٦ ص ١٠٣) واسمه: «الرد على الاخنائي واستحباب زيارة خير البرية ، الزيارة الشرعية» ، وهما مطبوعان معاً بمصر سنة ١٣٤٦ .

(٣) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ، وهو مطبوع بمصر أيضاً سنة ١٣٢٧هـ .

وفي طلائع الكتاب الأول مباحث جليلة في مدوني التفسير والحديث والسير ، والتاريخ ، والجرح والتعديل ، وذكر طائفة من الكتب المعتمدة ؛ وبيان ما اتسع فيه الكذب من فضائل الأعمال والأشخاص والأماكن والزمان ، وما سمعه شيخ الاسلام من جهالات بعض القضاة والمفتين والمدرسين وما رآه منهم . وقد حقق فيه أن لفظ الاستغاثة في الكتاب والسنة وكلام العرب ، إنما هو مستعمل بمعنى الطلب من المستغاث به ، وأكثر ما يقال يا غياث

المستغيثين ، ومعناه المدرك عباده من الشدائد إذا دعوه ، ومريحهم ومخلصهم ، فلا يجوز للانسان الاستعانة بغير الله فيما لا يقدر عليـه إلا الله . (قال) : ولو كانت الاستغاثة بعد الموت ثابتة ثبوتها في الحيـاة لطلب من النبي (ﷺ) أن يقوم بالامامة في الصلاة ، والإمارة في الغزو ، وإرسال البعوث ، وعقد الألوية ، والشعائر في الحرب ، وإقامـة الحدود ، وايصال الحقوق ، وقسم المواريث والغنائم ، والفيء والصدقات ، وتعليمهم ما يؤمرون به مما في القلوب من المعارف والأحوال أو ما يقوم بالأبدان من الاقوال والاعمال ، وإفتائهم فيما ينوبهم من المسائل والحكم بينهم فيما يتنازعون فيه من القضايا . . . فهذه الامور التي كان مأموراً بها أمر إيجاب أو استحباب ، وكانت حقاً عليه للخلق انتهت بموته فلم يبق عليه منها شيء ، كما انتهى حق الله الذي أمره به [1] .

وأقول تأييداً لمـا ذكره شيخ الاسلام : ان الصحابة الكرام ، قد تناظروا بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام ، في أمر الخلافة ، وفي جمع القرآن ، وفي المعارك الدامية كوقعة الجمل وصفين والنهروان ؛ وتنـاظر الشيخان في قتال مانعي الزكاة ، وفي ارسال جيش أسامة ، ولم يستغيثوا به في هذه الشدائد ، ولا استفتوه في شيء منها ، وكل هذا معلوم من الدين والتاريخ بالضرورة ، ومن العقل والحس والوجدان بالبداهة ، فيجب ردّ ما يتجدد من الوقائع والحوادث الى الوحي المنزل ، وما عرف من سنن الصدر الاول للاسلام . ولو كان ترك وسائل النصر والظفر ، والاستنصار بغيره تعالى مفيداً لنا في شيء ، لكنا اليوم أسعد الأمم حالاً ، وأنعمها بالاً ، وأوفرها عزة وثروة وقوة ، ولكن تلك الخطة المعارضة للشرع والطبع والحس التي سلكها أولئك الناس لم تزد الأمة إلا نكالاً ووبالاً ، « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه ، فلا

---

(١) ملخصة من صفحة ٨١ ، ٩٢ ، ١١٠ منه .

يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا ، أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، إن عذاب ربك كان محذوراً »[1] .

ثم إن هذا المؤلف (البكري) قد جرى على عرف بعض العلماء المتأخرين الذين جعلوا الاستغاثة به (ﷺ) وبغيره في معنى التوسل الى الله تعالى بجاهه وبحقه ، كالسبكي في شفاء السقام ، والقسطلاني في المواهب ، والسمهودي في خلاصة الوفا ، وابن حجر المكي في الجوهر المنظم وغيرهم . والمراد أنهم يسألون الله تعالى بحقه وجاهه أن تقضى حوائجهم ، وسيأتي بحث ذلك . أما الاستغاثة بأهل القبور أنفسهم بمعنى طلب الغوث منهم — أي زوال الشدة ، وتفريج الهم والكرب ، وقضاء سائر الحوائج . فهذه استغاثة شركية ، لا تدخل في دائرة الأسباب والمسببات بحال ، بل هي توسل الغلاة والجهال في الحضر والسفر ، والبر والبحر ، والعسر واليسر ، والفرج والشدة ، ونحن نجل أهل العلم والعقل والايمان ، عن الوقوع في مثل هذا الطغيان والهذيان .

وفي الكتاب الثاني لشيخ الاسلام (قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة) ما ملخصه : لفظ التوسل يراد به ثلاثة معان (أحدها) التوسل بطاعته ﷺ فهذا فرض لا يتم الايمان إلا به . (والثاني) التوسل بدعائه وشفاعته ، وهذا كان في حياته ويكون يوم القيامة . (والثالث) التوسل به بمعنى الاقسام على الله بذاته . والسؤال بذاته ، فهذا هو الذي لم يكن الصحابة يفعلونه في الاستسقاء ونحوه ، لا في حياته ولا بعد مماته ، لا عند قبره ولا غير قبره ، ولا يعرف هذا في شيء من الأدعية المشهورة بينهم ، وهذا هو الذي قال

---

(١) الاسراء : (٥٦ و ٥٧)

ابو حنيفة وأصحابه انه لا يجوز ، ونهوا عنـــه حيث قالوا : لا يسأل بمخلوق [1] اه .

أقول : إن التوسل في لغة الصحابة هو عبارة عن أقوال وأفعال وأحوال لم تجر سنة الله في صدورها عن غير الاحياء بين أظهر الناس ، كتوسل عمر بالعباس في الاستسقاء ، فهو طلب للسقيا والدعاء والصلاة على طريقة معهودة في الشرع معروفة في كتب الحديث والفقه ، ومنها أن يخرج المتوسل به إلى المصلى ويخرج الناس معه ، فيستسقي ويدعو مستقبلاً القبلة ، ويحوّل رداءه ويصلي ركعتين ، ويخطب خطبتين ، أو نحوها من الهيئات الثابتة ، كما يعلم ذلك من سبتتبع الأحاديث الصحيحة الواردة في الاستسقاء ، والمتوسل به للسقيا على تلك الهيئة أو نحوها لا يمكن أن يكون من غير الأحياء .

ثم ههنـــا مسألة مهمة وهي أن حقوق الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وصلاح الصالحين ، ليست من أعمال السائل التي يستحق عليها الجزاء ، ولا رابطة بينها وبين إجابة سؤله ، فاذا قال الداعي : أسألك بحق فلان الصالح أن تقضي حاجتي ، فمعنى ذلك : اقض حاجتي لكون فلان صالحاً ، فأي مناسبة بين قضاء حاجتك وصلاحه ؟ وإذا قلت : بجاه فلان اغفر لي ، كان المعنى : طلب المغفرة لكون فلان ذا جاه ، وأي مناسبة بين جاهه ومغفرة ذنبك ؟ فصلاحه أو جاهه ليس منفياً عنه لا في حياته ولا عند ربه ، ولا هو محل نزاع ، ولكن ليس من عملك الذي تستفيد أنت منه ، وتستحق الجزاء عليه ، وإنما العامل هو الذي يجني ثمرة عمله في الدنيا والآخرة ، قال الله تعالى : « مَن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبـــة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » [2] .

---

(١) ص ١٢ و ٥٣ و ٥٥ و ٥٧ و ١٧٦ منه . (٢) سورة النحل ، الاية : ٩٧

ولو كان التوسل بعمل الصالحين يفيد المتقاعسين عن العمل لهان الأمر علينا معشر المسلمين ، إذ كان يمكننا أن نقول مثلاً : اللهم أزل ضعفنا ، وآمن خوفنا ، وانصرنا على عدونا بجاه سلفنا الصالح الذين جاهدوا في سبيلك لاعلاء كلمتك ، ففتحت لهم فتحاً مبيناً ، ونصرتهم نصراً عزيزاً ، ربنا هب لنا من الملك والسلطان ، والعلم والعرفان ، والحضارة والعمران مثل ما وهبت لهم ، أفترى أنه تفيدنا هذه التوسلات بجاه أسلافنا وقوتهم ، وسعة سلطانهم ، واستبحار عمرانهم ، ونحن قد تداعت علينا الأمم فجعلتنا مغنماً ، ونهباً مقسماً ؟ ! لا لا ، وانما ننهض ونجدد اذا اهتدينا بهديهم ، وكان لنا مثل عملهم .

قال الامام ابن القيم رحمه الله : « وقد رتب الله سبحانه حصول الخيرات في الدنيا والآخرة ، وحصول الشر في الدنيا والآخرة في كتابه على الاعمال ترتيب الجزاء على الشرط ، والمعلول على العلة ، والمسبب على السبب ، وهذا في القرآن يزيد على الف موضع » . وقال أيضاً : « وهكذا شأن التوسل الديني الأخروي . وهكذا من وفقه الله وألهمه رشده يدفع قدر العقوبة الأخروية بقدر التوبة والايمان ، والاعمال الصالحة ،فرب الدارين واحد ، وحكمته واحدة ، لا يناقض بعضها بعضاً ، ولا يبطل بعضها بعضاً » اهـ .

قلت : ويشهد له قوله تعالى : « ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين »[1] فهو توسل الى الله تعالى بالايمان والاتباع . ومن أفضل أنواع التوسل ما جعله الله تعالى دعاء للمؤمنين ، ورتب عليه غفران الذنوب ، وتكفير السيئات ، والوفاة مع الأبرار ، فقال عز من قائل : « ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ، وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الابرار »[2] وقال جلت حكمته :« الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار »[3] فهذه الآيات الكريمة قد أرشدتنا الى التوسل اليه

«١» سورة آل عمران ، الاية : ٣٥ . «٢» سورة آل عمران ، الاية : ١٩٣ .

«٣» سورة آل عمران ، الاية : ١٦ .

تعالى بما شرعه من الاخلاص في الدعاء له وحده ، والايمان بما أنزله من عنده ، واتباع الرسول على الوجه الذي جاء به من عند ربه ، فتأمل كيف جعل ذلك سبباً لمغفرة الذنوب ، والوقاية من النار ، والنظم في سلك الأبرار ، وأين هذا التعليم الالهي ، والتوسل الشرعي ، من المعامل التوسلية التي أنشأها المبتدعة لأنفسهم ولغيرهم ، وهم يصدرون منها كل حين من التوسلات المبتدعة أنواعاً منوعة ما أنزل الله بها من سلطان « قل أأنتم أعلم أم الله »(1) ؟

وأما الكتاب الثالث — وهو الرد على الاخنائي — المسمى بقاضي القضاة، فسببه أن الامام ابن تيمية قد أرسل اليه بعض أصحابه جزءاً أخبر أنه صنفه بعض القضاة ، قد تكلم في المسألة التي انتشر الكلام فيها وهي السفر الى غير المساجد الثلاثة كالسفر الى « مجرّد » زيارة القبور هل هو حرام أو مباح أو مستحب ، « وهي المسألة التي أجبت فيها من مدة بضع عشرة سنة بالقاهرة ، فاظهرها بعض الناس في هذا الوقت ظناً أن الذي فيها خلاف الاجماع ، وأن السفر لمجرد قبور الأنبياء والصالحين هو مثل السفر المستحب بلا نزاع ، وهو السفر الى مسجد نبينا محمد (ﷺ) المتضمن لما شرعه الله من السفر الى مسجده والصلاة فيه ، والسلام عليه ومحبته وتعظيمه ، وغير ذلك من حقوقه (ﷺ) في مسجده المؤسس على التقوى » اهـ .

أرسل اليه بعض أصحابه هذا الجزء وأقسم عليه ليكتبن شيئاً يظهر فيه جهل مثل هؤلاء الذين يتكلمون في الدين بغير علم. وليس في الفتوى القديمة التي اطلع عليها القاضي (وهي منشورة في هذا الرد) تحريم زيارة قبور الانبياء ولا غيرهم ،ولا كان السؤال عن هذا ، وانما فيه الجواب عن السفر الى زيارة قبور . وكتب الشيخ وفتاويه مشحونة باستحباب الزيارة ، وفي جميع مناسكه يذكر استحباب الزيارة . قال ابن تيمية : وأما من كان قصده السفر الى مسجده وقبره

---

(1) سورة البقرة ، الآية : ١٤٠ .

معاً، فهذا قد قصد مستحباً مشروعاً بالاجماع، ... والجواب في السؤال كان عمن سافر لا يقصد إلا زيارة القبور، لا يقصد سفراً شرعياً كالسفر الى مكة (أي المسجد الحرام) والى مسجد النبي (ﷺ) والمسجد الاقصى.

أقول: إن هـــذا الموضوع بأقسامه الثلاثة: الزيارة، وشد الرحال، والتوسل، قد شغل الناس قروناً طويلة، وملأ مئات المصنفات وألوف الصفحات، وكنت قدمت اقتراحاً الى مؤتمر العالم الاسلامي الذي انعقد بمكة (١٣٤٤هـ = ١٩٢٦م) قرّبت فيه بين المذاهب المختلفة في المسائل الثلاث، ووافق عليـــه الأعضاء المؤتمرون جميعاً، وخلاصته:

١ — إن الزيارة الشرعية للأموات من دون شد الرحال، ليس فيهـا مطعن ولا مقال، وقد كان النبي ﷺ يزور سكان البقيع، وشهداء أحد، ثم قلت: إن هذا العصر عصر تآمر ملل، واتفاق دول، تخالف مصلحتها مصلحتنا معشر العرب والمسلمين، وإن كثيراً من العوام والغلاة، كلما أعوزهم كشف البلاء أو تحقيق الرجاء، تركوا ما أمر الله به من إعداد القوة، والأخـذ بوسائل الدفاع، ولجأوا الى قبور بعض الصالحين، يستنجدون بهم الدفاع عنهم، وبذلك قضي على كثير من بلاد المسلمين، فدرءاً لهـــذه المفاسد الدينية والدنيوية، نوضح للناس أن دعاء غير الله بكشف الضر، يعدّ عبادة لذلك الغير «فلا تدعوا مع الله أحداً»[1] وفي الحديث (إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله) فيستفاد من ذلك أن ليس في الاسلام إلا الأخـذ بالأسباب المشروعة في جميع المهات، والاستعداد لجميع الطوارىء والحادثات بقدر الاستطاعة.

٢ — إن مسألة شد الرحال الى المساجد الثلاثة مفروغ منها، وان السفر الى ما عداها من المساجد، أو لمجرد زيارة القبور، لم يعهد في الصدر الاول ولم يقع من الأئمة الهداة، وهل زيارة قبر النبي مشروعة وحدها فتشد الرحال اليها

«١» سورة الجن، الآية: ١٨.

كأداء العبادة في مسجده ؟ أم هي مشروعة تبعاً لأداء العبادة في المسجد ؟ في المسألة قولان ، ويوفق بينهما بأن الصلاة في مسجد النبي وزيارته متلازمان ، بحيث لا ينفك أحدهما عن الآخر ، كمسألة الفقير والمسكين والايمان والاسلام عند الفقهاء ، فلا يذكر أحدهما إلا ويراد معه الآخر ، وأن تكون النية موجهة عند شد الرحال الى أداء العبادة في المسجد ، ومنها زيارته ﷺ .

٣ — ان من استقرأ النصوص ، وسبر غورها ظهر له منها أن التوسل اليه تعالى بالكلم الطيب ، والعمل الصالح هو المشروع ، وأنه هو الذي تنال به خيرات الدنيا والآخرة ، فرب الدارين واحد وحكمته فيهما واحدة كما قال ابن القيم ، وفي طليعة كتابه : (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي) تحقيق بديع لهذا المبحث ، وقد أورد له القواعد والشواهد الشرعية من القرآن العظيم الذي أيد العقل والحس والفطرة وطبيعة البشر في ذلك ، ولما كان بعض ظواهر النصوص يوهم شمول التوسل بالذات والجاه أيضاً ، كانت المسألة خلافية ، وكان فيها قولان لمثل الامام احمد بن حنبل ، وقد ورد : « اللهم اني أسألك بحق السائلين عليك وأسألك بحق ممشاي هذا » رواه أحمد وابن ماجه ، وفي سنده عطية العوفي ، وهو ضعيف كما قالوا ، ولكن معناه صحيح ، فحق السائلين عليه الاجابة ، وحق الماشين الى المساجد الاثابة ، « وقال ربكم : أدعوني أستجب لكم »[1] فالسائلون يسألونه تعالى تحقيق ما وعدهم به ، وقد تفضل فجعله حقاً لهم عليه ، وتحقيق وعده هو من صفاته تعالى الفعلية ، وليس ذلك من محل النزاع في شيء .

ومن المؤسف جداً عدم الاهتداء بهدي الانبياء والصالحين ، والاكتفاء بتشييد القبور ، وجعلها كالقصور والقلاع ، والصلاة عندها ، والطواف حولها ، ونذر النذور لسدنتها ، ويرحم الله حافظاً القائل :

«١» سورة غافر ، الاية : ٦٠ .

أحياؤنا لا يرزقون بدرهم　　　وبألف الف ترزق الأموات

من لي بحظ النائمين بحفرةٍ　　　قامت على أحجارها الصلوات

والواجب يتقاضى علماء الدين الخالص ، والعاملين للمدنية الصحيحة ، أن يتعاونوا على إنشاء معاهد علمية في الأقطار الشرقية والغربية ، تدعو الى الله على بصيرة ، وتصحح العقائد والعوائد ، وتزيل المهالك والمفاسد ، وتعيد عهد الأئمة ، وتجدد معالم الأمة .

تحقيقه لوحدة الأديان وإخوة الرسل الكرام عليهم السلام

مدخل

الإسلام وأهل الأديان السماوية

قرر الاسلام في معاملة الأمم التي يضمها تحت رايته حقوقاً تضمن لهم الحرية في ديانتهم، والفسحة في إجراء أحكامها بينهم، وإقامة شعائرها بارادة مستقلة، فلا سبيل لأولي الأمر الى تعطيل شعيرة من شعائرهم، ولا يدخل في فصل نوازلهم الخاصة، إلا إن تراضوا بالمحاكمة أمام محكمتنا، فتحكم بينهم على قاعدة العدل والمساواة، قال تعالى: « وإن حكمتَ فاحكمْ بينهمْ بالقسطِ، إنَّ اللهَ يحبُّ المقسطين»[1]. وإبقاء الرعية على شرائعهم وعوائدهم منظر من مناظر السياسة العالية، وباب من أبواب العدالة السامية. والأصل في كل مملكة أن يكون حق الولاية الشرعية في يدها دون سواها، بحيث تفصل المحاكم التابعة لها في جميع قضايا من تقلهم أرض الوطن، سواء كان النزاع متعلقاً بالجرائم، أو الأموال، أو الأحوال الشخصية، ولكن عملاً بحرية الأديان والمعتقدات قيدت هذه الولاية وانحصر سلطانها في الأمور الدنيوية، وأصبح كل انسان حرّاً في أحواله الدينية وما يتبعها.

تنظر الى أبواب الشريعة فتبصر في جملتها أحكاماً كثيرة مبنية على التسامح مع غير المحاربين، تطالع أبواب الهبة والوقف والوصية فتستفيد من أحكامها أن

«١» سورة المائدة، الاية: ٤٢.

الاسلام لم يقتصر على إباحة معاملتهم بمعاوضة ، بل أجاز للمسلم أن يهب جانباً من ماله أو يوقفه أو يوصي به لغير المسلم ؛ أمر الاسلام بالعدل والاحسان في معاملتهم ، والرفق بضعيفهم ، وسدّ خلة فقيرهم ، وحرم الاعتداء عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة في عرْض أحدهم .

آيات التوحيد الخالص في الكتب السماوية

من تصفح كتب العهدين القديم والجديد ومزامير داود (التوراة والانجيل والزبور) وجدها طافحة بالدعوة الى توحيد الله تعالى ، والوعيد الشديد على الشرك ، مملوءة بالبشارات بظهور رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام الى الناس كافة . فأما تنزيه الالـه والرب عن الوالد والولد ، وعن الند والضد ، فتراه في الفصول والأعداد ، (وهي كالسور والآيات)من أسفار التوراة ، كتثنية الاشتراع ، وسفر الخروج ، وأشعيَاء ، مثل قوله : « إن الرب هو الاله ،وليس آخر سواه » « لا يكن لك آلهة أخرى أمامي » « لا تسجد لهن ولا تعبدهن ، لأني أنا الرب إلهك إله غيور » « ولكي يعلموا من مشرق الأرض ومن مغربها أن ليس غيري ، أنا الرب وليس آخر » .

وفي إنجيل مَرْقُسَ : فأجابه يسوع : « إن أول كل الوصايا هي : اسمع يا اسرائيل : الرب إلهنا رب واحد » (الفصل ١٢ عدد ٢٩) . وفي إنجيل يوحَنَّا : « وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الاله الحقيقي وحدك ، ويسوع المسيح الذي أرسلته » (الاصحاح ٣/١٧) .

ليس من قصدي استيفاء آيات التوحيد الخالص من الكتب المقدسة فهي كثيرة ، ولا نقل البشائر التي لا تنطبق إلا على النبي العربي محمد خاتم

النبيين فقد نقل منها المحقق الكبير الشيخ رحمة الله الهندي الشهير ، في كتابه (إظهار الحق) عن الكتب المعتبرة عند علماء البروتستانت ثماني عشرة بشارة ، وسبقه إلى مثل ذلك شيخ الاسلام ابن تيمية الذي عقدنا هذا الفصل للكلام على كتابه (الجواب الصحيح) ، وتبعه فيه تلميذه الامام ابن القيم في كتابه (إرشاد الحيارى) . وحسبي الآن أن أنقل شاهداً واحداً من التوراة ، وآخر من الانجيل ، وكلمات قليلة من الزبور أو المزامير ، تأييداً لما جاء في القرآن من بشائر الوحدة والسلام ، والهتاف ببعثة محمد عليه الصلاة والسلام ، لكي لا يكون على المؤمنين بالكتب المقدسة حرج إذا هم صدقوا برسالة النبي العربي الذي آمن بكتب اخوانه المرسلين وصدقهم ، ولتقوم الوطنية على أساس المساواة التامة بين أبناء الوطن الواحد ، وهذا موضوع جليل ، ومطلب خطير ، يهم أهل الملل السماوية ، وعلماء الاجتماع الانساني ، لأنه يدعو إلى الوحدة الصحيحة ، بلسان الكتب الالهية ، والعاملين بها ؛ ومن واجب العلماء بيان هذه الوحدة الدينية من الكتب المنزلة ، لتؤيد بها وحدتنا القومية .

بشارة موسى بمحمد

جاء في العدد الخامس عشر من الاصحاح (أو الفصل كما في الطبعة اليسوعية من سفر التثنية[1] من التوراة : « ويقيم لك الرب إلهك نبياً من وسطك من إخوتك مثلي ، له تسمعون » فهذه البشارة صريحة في محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، لأنه لم يقم نبي مثل موسى من وسط اليهود ، ومن اخوتهم بني اسماعيل

«١» التثنية : اسم السفر الخامس من أسفار العهد القديم ، وقد أطلق عليه التثنية ، لانه ذكرت فيه الشريعة الموسوية مرة ثانية .

غير النبي العربي محمد ، وأبناء العم يسمون أخوة ، ومن ذلك تسمية أبناء عمهم (عيسو) إخوة لهم كما في ٢ : ٤ و٨ من التثنية ، ولو كان المراد من هذه البشارة المسيح عليه الصلاة والسلام لقال : أقيمه منكم أو من نسلكم ، لا من إخوتكم ؛ لأن يسوع المسيح ابن داود ابن ابراهيم ، كما في متى (١١ : ١ — ١٦) فهو من نسل اسحق ، لا من نسل اسماعيل عليهم السلام .

بشارة الانجيل بالنبي العربي

جاء في انجيل يوحنا « ١٦ : ١٢ و ١٣ إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن ، وأما متى جاء روح الحق ، فهو يرشدكم الى الحق ، لأنه لا يتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمع ، يتكلم به ، ويخبركم بأمور آتية » فمحمد هو الذي كان يتكلم بما يسمع من وحي الله اليه ، قال تعالى : سورة النجم: ٣ و ٤ « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى » ومملكة محمد هي مملكة الله في الأرض المسماة في العهد الجديد بملكوت الله ، وبملكوت السموات ، وكان المسيح وتلاميذه يبشرون الناس بمجيئها ، وأمر عليه السلام أن يطلبوا إتيانها من الله في صلواتهم ، انظر متى (٣ : ٢ و ٤ : ١٧ ، ٢٣ و ٦ : ١٠ و ١٣ : ٣١ ، ٣٢ و ٢٠ : ١ — ١٦ و ٢١ : ٣٣ — ٤٤ ولوقا : ١٠ : ٩ ، ١١) وهذه المملكة هي التي بدأت صغيرة ثم نمت وكبرت حتى ملأت العالم ، ولذلك شبهها عليه السلام بالزرع الجيد وبالخميرة وبحبة الخردل ، التي تصير أكبر البقول ، حتى ان طيور السماء تأتي وتتأوى في أحضانها ، (وفي طبعة الجزويت : تستظل في أغصانها ، متى ١٣ : ٢٤ — ٣٥) وهي منطبقة على ما في القرآن الكريم في محمد وأتباعه ، « ومثلهم في الانجيل

كزرع أخرج شَطْئَه فآزره ، فاستغلظ ، فاستوى على سُوقه » سورة الفتح :
الآية : ٤٨) شطأه : أي فراخه ، يقال : أشطأ الزرع ، إذا فرّخ ، فآزره من
المؤازرة ، وهي المعاونة ، أي فشدّ أزره وقواه ، فاستوى على سوقه : فاستقام على
قصبه ، جمع ساق ، وهذا مثل ضربه الله لبدءِ أمر الاسلام ، والنبي عليه السلام،
قام وحده ثم قواه الله بمن آمن معه ، كما يقوي الطاقة الأولى من الزرع ما يحتفّ به
مما يتولد منها ، حتى يعجب الزراع .



بشارة حَبَقُّوق وذكر بلاد العرب فيها

قال حبقوق[1] (٣ : ٣ و ٤) «الله جاء من تيمان، والقدوس من جبال فاران، سِلاَهْ[2] جلاله غطى السموات ، والارض امتلأت من تسبيحه ، وكان لمعان كالنور ، له من يده شعاع ، وهناك استتار قدرته » .

فتيمان بلاد العرب ، ومعنى كلمة تيمان الصحراء الجنوبية ، لانها جنوب بلاد الشام ، ولا يزال الآن على طريق القوافل بين دمشق ومكة قرية تسمى (تيماء) ومعنى هذه الكلمة أيضاً الصحراء الجنوبيـــة ، وتيماء أيضاً اسم قبيلة اسماعيلية تسلسلت من تيماء ، وكانت تقطن بلاد العرب (تك ٢٥ : ١٥ و ١١ ي ٣٠/١) كما في قاموس الكتاب المقدس العربي . أما جبل فاران فهو في البريه التي

«١» نبوة حبقوق : هي السفر الخامس والثلاثون من اسفار العهد القديم حسب ترتيبها الاصلي ، واما زمن كتابتها فقبل المسيح بنحو ستمائة سنة كما بين قاموس الكتاب المقدس .

«٢» قال بعض المحشين : سلاه : اختلفوا في تفسيرها على اقوال ، ارجحها في رأينا وهو ما ذهب اليه اشهر المتأخرين من علماء العبرانيه ــ انها عبارة عن الامر بالسكوت او الوقف ــ ايعاز المنشدين ان يقطعوا الغناء ويتخذوا فترة تنفرد فيها الآلات باللحن .

سكنها اسماعيل أبو العرب (تك ٢١/٢١) فكأن حبقوق أشار بعبارته هذه الى مسكن رسول الله ، وهو بلاد العرب (أو التيمان) والى مسكن أصله ، أو جده اسماعيل ، وهو برية فاران .

التصريح ببكة وهي مكة

ومنه قول المزمور الرابع والثمانين (٥ و ٦) طوبى لأناس عزهم بك ، طرق بيتك في قلوبهم ، عابرين في وادي البكا ، والاصل العبراني : وادي (بكة) فأبدِل لفظ (بكا) بلفظ (بكة) وهي (مكة) في نص القرآن [١] .

التصريح باسم محمـــد

من ذلك ما جاء في الفصل الخامس من النشيد ١٦ حلقه حلاوة ، وكله مشتهيات ، هذا حبيبي ، (هذه ترجمة البروتستانت ، وترجمة اليسوعيين : حلقه أعذب ما يكون ، بل هو بجملته ، هذا حبيبي) .

ولفظ مشتهيات في الأصل العبراني (محمديم) والقواميس العبرانية تقول: ان هذه اللفظة لا تفيد مشتهيات ، ولكن تفيد أنه محمود ، ونقول : ان هذه صريحة في نبينا عليه السلام ، وقوله قبلها حلقه حلاوة : كناية عن فصاحة كلامه ، لم يأت نبيٌّ بكلام أحلى ممـــا جاء به خاتم الأنبياء ، وقوله بعدها هذا حبيبي نصٌّ في لقب النبي عليه الصلاة والسلام ، فانه حبيب الله عزّ وجل .

ومنه ماجاء في الفصل الثاني من النشيد : أسمعيني صوتك ، لان صوتك

«١» ضبطنا الالفاظ العبرية على اهلها ونقلنا بعض معانيها الى العربية بالتعاون معهم .

لطيف ، ووجهك جميل ، وفي الاصل العبراني : (عرب) بدل (جميل) أي عربي . ومنه ما في الفصل الثاني من نبوة حجّي أو حجاي أو حكاي — كما في الاصل العبري : ٧ وازلزل كل الامم ويأتي مشتهى كل الامم فأملأ هذا البيت مجداً قال رب الجنود . وكلمة مشتهى هذه ، أصلها العبراني (حِمْدات) ومعناه محمود ، وهي من الفعل العبراني (حَمَدْ).

علمنا من هذه النصوص والبشائر الصريحة في الكتب المقدسة أنها بشرت بالنبي العربي ، وذكرته باسمه الكريم ، وصرحت باسم بلاده ، ومحل ميلاده وهو مكة .

أفرأيتم كيف ألفت هذه النصوص الصريحة بين الأديان الثلاثة؟ وهذا هو الاخاء الصحيح ، بين محمد وموسى والمسيح ، عليهم الصلاة والسلام ، وهذا بعض نصوصه وبشائره ، وهي قليل من كثير مما عثرنا عليه ، ولو اقتصر رجال الكنيسة الأكارم على ما بين أيديهم من الكتب المقدسة ، — دون عقائد وعوائد ليست في هذه الأناجيل التي هي أصل العقيدة ومستندها — لاجتمعت الكلمة ، وأحكمت عرى المودة القلبية بين المختلفين .

~~~~~~~~~~~~~~~~
~~~~~~~~~~~~~~~~

الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح

يقع هذا الكتاب المطبوع بمصر (١٣٢٢ هـ = ١٩٠٥ م) في أربعة أجزاء وهي تبلغ أكثر من الف وأربعمائة صفحة بالقطع المتوسط ، وقد ذكر شيخ الاسلام في طلائع كتابه أنه جعله جواباً لكتاب ورد من قبرص « فيه الاحتجاج لدين النصارى بما يحتج به علماء دينهم ، وفضلاء ملتهم قديماً وحديثاً من الحجج السمعية والعقلية ، فاقتضى أن نذكر من الجواب ، ما يحصل به فصل الخطاب ، (ثم قال) : وأنا أذكر ماذكروه بالفاظهم باعيانها — فصلاً فصلاً ، واتبع كل فصل بما يناسبه من الجواب فرعاً وأصلاً ، وعقداً وحلاً ، . . . فان هذه الرسالة وجدناهم يعتمدون عليها قبل ذلك ، ويتناقلها علماؤهم بينهم ، والنسخ بها موجودة قديمة ، وهي مضافة الى بولص الراهب أسقف صيدا الانطاكي كتبها الى بعض أصدقائه ، وله مصنفات » وقد اشتمل رد شيخ الاسلام على ستة فصول :

(١) دعواهم أن محمداً (ﷺ) لم يبعث إلا الى أهل الجاهلية من العرب .

(٢) دعواهم أن القرآن أثنى على دينهم الذي هم عليه .

(٣) دعوى أن نبوات الانبياء المتقدمين تشهد لدينهم الذي هم عليه من الأقانيم والتثليث والاتحاد وغير ذلك .

(٤) فيه تقرير ذلك بالمعقول .

(٥) دعوى أنهم موحدون والاعتذار عما يقولونه من الفاظ يظهر منها تعدّد الآلهة كألفاظ الاقانيم الخ .

(٦) أن المسيح عليه السلام جاء بعد موسى عليه السلام بغاية الكمال ، فلا حاجة بعد النهاية الى شرع مزيد على الغاية [١] .

والغرض الاول من تأليف « الجواب الصحيح » على ما يظهر ، هو بيان أصول الشرائع السماوية والكتب المنزلة ، وانها واحدة (قال) وهذا أصل دين المسلمين ، فمن كفر بنبي واحد ، أو كتاب واحد فهو عندهم كافر ، « ..كلٌ آمن بالله وملائكه وكتبه ورسله ،لا نفرق بين أحد من رسله »[٢] والمنسوخ التي تنوعت فيه الشرائع قليل بالنسبة الى ما اتفقت عليه الكتب والرسل ، فان الذي اتفقت عليه هو الذي لابد للخلق منـــه في كل زمان ومكان ، وهو الايمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح ، كما قال تعالى : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمـل صالحاً فلهم أجرهم عنـد ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »[٣] وعامة السور المكية كالأنعام والأعراف وآل حم وآل طس ، وآل الر ــ هي من الأصول الكلية التي اتفقت عليهـــا شرائع المرسلين ، كالأمر بعبادة الله وحده لا شريك له ، والصدق والعدل والاخلاص ، وتحريم الظلم والفواحش والشرك ، والقول على الله بلا علم . وعامة ما عندهم من النقول الصحيحة عن الأنبياء من التوراة والانجيـــل والزبور ونبوات الأنبياء ، توافق المنقول عن محمد (ﷺ) يشهد هذا لهذا ، وهذا لهذا ، وذلك من دلائل نبوة محمد (ﷺ) ومن دلائل نبوة أولئك الأنبياء[٤] .

(١) ص ١٩ و ٢٠

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٨

(٣) سورة البقرة ، الآية : ٦٢

(٤) ج ٣ ص ٢٤٥

الابن وروح القدس لا اختصاص لهما بالمسيح عليه الاسلام

وقد أوضح ان الابن ليس كلمة ولا صفة ، ولا هو خاص بالمسيح ، وإنما يراد به المصطفى المكرم ، (قال)[1] : المراد بالابن ناسوت المسيح ، وبروح القدس ما أنزل عليه من الوحي ، والملك الذي نزل به ، فيكون قد أمرهم بالايمان بالله وبرسوله ، وبما أنزله على رسوله ، والملك الذي نزل به ، وبهذا أمرت الانبياء كلهم (قال)[2] : وليس في كلام المسيح ولا في كلام سائر الانبياء ولا كلام غيرهم أن كلمة الله القائمة بذاته سبحانه وتعالى تسمى ابنا ولا روح قدس ، ولا يوجد قط في كلام الانبياء اسم الابن واقعاً إلا على مخلوق ، والمراد في تلك اللغة أنه مصطفى محبوب الله ، كما ينقلونه أنه قال لاسرائيل: انه ابنه بكره ، ولداود انت ابني وحبيبي ، وأن المسيح قال للحواريين : أبي وأبيكم ، فجعله أباً للجميع ، وهم كلهم مخلوقون ، فيكون اسم الابن واقعاً على المسيح ، الذي هو ناسوت مخلوق قال[3] : وفي الانجيل في غير موضع يقول المسيح : أبي وأبيكم كقوله :إني ذاهب الى أبي وأبيكم ، وإلهي وإلهكم» فيسميه أباً كما يسميهم ابناً له ، فان كان هذا صحيحاً ، فالمراد بذلك أنه الرب المربي الرحيم ، فان الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها . . . فيكون المراد بالأب الرب ، والمراد بالابن عبده المسيح الذي رباه ، وأما روح القدس فهي لفظة موجودة في غير موضع من الكتب التي عندهم وليس المراد بها حياة الله باتفاقهم ، بل روح القدس عندهم تحل

---

(١) ج ١ ص ٢٥٠

(٢) ج٢ص ٦٥ .

(٣) ج ٢ ص ٩٤و٩٥ .

في ابراهيم وموسى وداود وغيرهم من الانبياء والصالحين ، وروح القدس قد يراد بها الملك المقدس ، ويراد بها الوحي والهدى والتأييد الذي ينزله الله بواسطة الملك أو بغير واسطة .

(وفي ص ٩٦) : فالذي فسر (بعض) النصارى به ظاهر كلام المسيح ، هو تفسير لا تدل عليه لغة المسيح ، وعادته في كلامه ، ولا لغة غيره من الانبياء والأمم ، بل المعروف في لغته وكلامه ، وكلام سائر الانبياء تفسيره بما فسرناه ، وبذلك فسره أكابر علماء النصارى .

(وفي ص ٣٣٢ من ج٢): بل أفصح في كل الانجيل من كلامه ومخاطباته ووصاياه بما لا يحصى كثرة بانه عبد مثلكم ومربوب معكم ، ومرسل من عند ربه وربكم ، ومبدي ما أمر به فيكم ، وحكى مثل ذلك من أمره حواريوه وتلامذته، ووصفوه لمن سأل عنه ، ومن كلامهم بأنه رجل جاء من عند الله عز وجل ، ونبي له قوة وفضل [1] .

(وفي ص ٢٤٤) : ولفظ الابن عنــدهم في كتبهم يراد به من رباه الله تبارك وتعالى ، فلا يطلق عندهم في كلام الانبياء لفظ (الابن) قط إلا على مخلوق محدث ، ولا يطلق إلا على الناسوت دون اللاهوت ، فلا يسمى عندهم اسرائيل ابناً ، ولا داود ابناً لله والحواريون كذلك . فتبين أن العارف كلما تدبر ما قالته الانبياء وما قاله أهل البدع من . . . وغيرهم لم يجد لهم في كلام الانبيــاء إلا ما يدل على نقيض ضلالهم .

وقد بين في (ص ٣٠٦ ج ٢) : فلسفتهم في الأقانيم الثلاثة (الأب والابن وروح القدس) وأعظم فرقهم في ذلك العهد اليعقوبية والملكانية والنسطورية

---

(١) ج ٢ ص ٣٣٢ .

وقد اختلفت وجهات نظرهم واستغرقت صفحات كثيرة . وذكر القائلين منهم ، بالأمانة ، واختلافهم في تفسيرها وامتناع تصورها على الوجه الصحيح ، وهنا تظهر سعة علم شيخ الاسلام بالفِرَق ، واطلاعه على مقالاتها وإحاطته بفلسفتها ، وقوة عقله في إظهار تعارضها وفي ردها كلها بالمنقول والمعقول .

التوحيـــد الصحيح في كلامهم

ثم خلص إلى إفراد الله تعالى بالوحدانية والعبادة على ألسنة طوائف منهم ، (وقال ص ٣٠٩) : وقال الأريوسية : إن الله ليس بجسم ولا أقانيم له ، وان المسيح لم يصلب ولم يقتـــل ، وانه نبي ، وحكى عن بعضهم أنه قال : المسيح ليس بابن الله (أي بنوة لاهوت) وحكى عـــن بعضهم انه ابن الله على التسمية والتقريب (إلى أن قال) : وهذا الذي نقله عنهم أبو الحسن الزاغوني ، هو نحو ما نقله عنهم القاضي أبو بكر بن الطيب والقاضي أبو يعلى وغيرهما ، (قال) : وقال أبو محمد بن حزم : النصارى فرق ، منهم أصحاب أريوس ، وكان قسيساً بالاسكندرية ، ومن قوله : التوحيـــد المجرّد ، وان عيسى عبد مخلوق ، وأنه كلمة الله التي بها خلق السموات والأرض (أي وهي كلمة « كن ») وكان في زمن قسطنطين الأول باني القسطنطينية ، وأول من تنصّر من ملوك الروم ، وكان على مذهب أريوس هذا . (قال ابن حزم) : ومنهم أصحاب بولس الشمشاطي ، وكان بطرياركاً بانطاكية قبل ظهور النصرانية ، وكان قوله بالتوحيد المجرّد الصحيح ، وان عيسى عبـــد الله ورسوله كأحد الأنبياء عليهم السلام ، خلقه الله في بطن مريم من غير ذكر ، وانه إنسان لا إلـٰهية فيـه البتة ، وكان يقول : لا أدري ما الكلمة ولا روح

القدس ، (قال) : وكان منهم أصحاب مقدينوس — وكان بطريار كاً بالقسطنطينية بعد ظهور النصرانية أيام قسطنطين بانيها — وكان هذا الملك أريوسياً كأبيه ، وكان من قول مقدينوس هذا التوحيد المجرّد ، وان عيسى عليه السلام عبد مخلوق ، إنسان نبي رسول كسائر الأنبياء عليهم السلام ، وأن عيسى هو روح القدس وكلمة الله ، وأن روح القدس والكلمة مخلوقان ، خلق الله كل ذلك .

رسالة الحسن بن أيوب الى أخيه

وهذه الرسالة من أخ دان بالتوحيد الخالص ، وكتبها إلى أخيه ، وذكر له سبب إسلامه فيها ، ثم ذكر فرَق النصرانية الثلاث ، وناقشهم في مذاهبهم وقضاياها واحدة واحدة ، وهي من أمتع الرسائل وأبلغها ، وفيها أدق المباحث وأهمها ، لم تترك شبهة إلا كشفتها ، ولا حجة إلا جلّتها ، ومن قرأها بتدبر وإمعان علم ما علمناه منها ، فقد سبرت غور المسائل ، وقابلت بين الأشباه والنظائر ، وأتت بأحسن النتائج ، التي تسكن اليها النفس ويطمئن بها القلب ، ثم هي تزيل الفروق بين الأديان ، وتجعل أهلها عباداً للرحمن ، لا لبني الانسان. وقد أوردها في (الجواب الصحيح) فبلغت ثلاثاً وخمسين صفحة (ج ٢/٣١٢-٣٦٣) وصفحتين من أول الثالث .

ذكر مؤلفها فيها أن مريم ولدت انساناً (عليها السلام) وأنه جرى عليه أحكام الآدميين من غذاء وتربية ، وصحة وسقم ، وخوف وأمن ، وتعلم وتعليم ، لا يتهيأ لكم أنه كان منه في تلك المدة من أسباب اللاهوتية شيء ولا له من أحوال الآدميين كلها — من حاجاتهم وضروراتهم ، وهمومهم ومحنهم وتصرفاتهم — مخرج .

ابن الله ومعنـــاه

(قال) : وقد علمتم أن من يسمى بابن الله كثير لا يحصون ، فمن ذلك إقراركم أنكم جميعاً أبناء الله بالمحبة ، وقول المسيح أبي وأبوكم ، وإلهي وإلهكم في غير موضع من الانجيل ، ثم تسمية (الله) يعقوب وغيره (بنيه) خصوصاً ، فالسبيل في المسيح إذا لم تلحقوه في هذا الاسم بالجمهور ، أن يجري في هـــذه التسمية مجرى الجماعة الذين اختصوا بها من الأنبيـاء والأبرار ، ونسبة الملك إياه الى أبيه داود ، تحقق أن أباه داود ، وان التسمية الأولى (أي ابن الله) على جهة الاصطفاء والمحبة ، وان حلول الروح عليه على الجهة التي قالهـا متّى التلميذ للشعب عن المسيح في الانجيل لستم أنتم متكلمين ، بل روح الله تأتيكم تتكلم فيكم . فأخبر أن الروح تحل في القوم أجمعين وتتكلم فيهم .

عشرون ألف آية تنطق بعبودية المسيح لله تعالى

ومن تمـام كلام الحسن بن أيوب (٣٦١ من ج ٢) قوله : وإذا نظر في الانجيل وكتب بولص وغيره ممن يحتج به النصارى وجـــد نحواً من عشرين ألف آية [١] مما فيه اسم المسيح ، وكلهـا تنطق بعبودية المسيح ، وانه مبعوث مربوب ، وأن الله اختصه بالكرامات ، ما خلا آيات كثيرة مشكلات ، قد تأولها كل فريق من أولئك الذين وضعوا الشريعة باختيارهم على هواهم ، فأخذوا بذلك التأويل الفاسد ، وتركوا المعظم الذي ينطق بعبوديته ، وقال في أواخر هذه الرسالة :

---

(١) أي أمارة او علامة .

ومن أعجب العجب أن تكون أمة كتابها ودعوتها ومعبودها واحداً ، يتمسكون بأمر المسيح عليه السلام وتلامذته وانجيله ، وسنته وشرائعه ، وهم مـــع ذلك مختلفون فيه أشد الاختلاف ، فمنهم من يقول انه عبد ومنهم من يقول إنه إله الخ .

وقد ختم شيخ الاسلام كلام هذه الرسالة بقوله في أول الجزء الثالث من جوابه : هذا آخر ما كتبته من كلام الحسن بن أيوب — وهو ممن كان من أجلاء علماء النصارى ، وأخبر الناس بأقوالهم ، فنقله لقولهم أصح من نقل غيره ، وقد ذكر في كتـابه من الرد على ما يحتجون به من الحجج العقلية والسمعية ، وما يبطل قولهم من الحجج السمعية والعقلية — ما يبين ذلك . (قال) ونحن نذكر مع ذلك كلام من نقل مذاهبهم من أئمتهم الخ ثم وصف كتاب (نظم الجوهر) لابن البطريق بترك الاسكندرية وصفاً شاملاً لأخبارهم ومجامعهم واختلافهم ، وسبب إحداثهم ما أحدثوه مع انتصار ابن البطريق لقول الملكية ، والرد على من خالفهم (وفي ص ١٦٩ ج ٣) : ومن أجل من جمع أخبارهم عندهم (أي الطوائف المختلفين في التثليث والاتحاد ، وان كل صنف يحكي أقوالاً غير الأقوال التي حكاها الآخرون) سعيد بن البطريق بترك الاسكندرية في أثناء المائة الرابعة من دولة الاسلام ، وقد فند هذا البترك أقوال النسطورية والملكانية ، وفند شيخ الاسلام أقوال الطوائف كلها بالعقل والنقل ولم يبق زيادة لمستزيد . (وفي ص ٢٢٢ ج ٣) : ذكر ما امتاز به القرآن على التوراة ، (وفي ص ٢٤٤) : ان جمهور المسلمين لا يعلمون نبوة أحد من الأنبياء قبل محمد (ﷺ) الا باخبار محمد (ﷺ) بنبوتهم ، فلا يمكنهم التصديق بنبوة أحد من هؤلاء إلا بعد التصديق بنبوة محمد (ﷺ) .

ما اتفقت عليه الكتب والرسل

ثم انتقل في الجواب الصحيح الى ذكر ما اتفقت عليه الكتب والرسل من الأصول الكلية العامة ، والى ماجاء في التوراة من الجمع بين التوراة والانجيل والقرآن ، والرسل الثلاثة موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام « تجلى الله من طور سينا ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من جبال فاران »والى بشارة السفر الأول من التوراة بمحمد . وبشائر الزبور به وهو مزامير داود ، وقد ذكرنا قبل هذا شواهد من هذه الكتب الثلاثة المقدسة .

وفي الجواب الصحيح (٢٨٢/٣) قال كثير من العلماء واللفظ لمحمد بن قتيبة : ليس بهذا خفاء على من تدبر ولا غموض ، لأن مجيء الله من طور سينا إنزاله التوراة على موسى من طور سينا كالذي هو عند أهل الكتاب وعندنا ، وكذلك يجب أن يكون اشراقه من ساعير، إنزاله الانجيل على المسيح ، وكان المسيح من ساعير أرض الخليل بقرية تدعى ناصرة ، وباسمها سمي من اتبعه من نصارى ، وكما وجب أن يكون اشراقه من ساعير المسيح ، فكذلك يجب أن يكون استعلانه من جبال فاران ، انزاله القرآن على(محمد صلى الله عليه وسلم) وجبال فاران هي جبال مكة ، (قال) : وليس بين المسلمين وأهل الكتاب خلاف في أن فاران هي مكة ، فان ادعوا أنها غير مكة... قلنا أليس في التوراة أن ابراهيم أسكن هاجر واسماعيل(فاران)، وقلنا دلونا على الموضع الذي استعلن الله منه واسمه فاران، والنبي الذي أنزل عليه كتاب بعد المسيح ؟ (ثم قال) : ولا يمكن أحداً أن يدعي أنه بعد المسيح نزل كتاب في شيء من تلك الأرض ، ولا بعث نبي ، فعلم أنه ليس المراد باستعلانه من جبال فاران إلا ارسال محمد(ﷺ)، وهو سبحانه ذكر هذا بالتوراة على الترتيب الزماني ، فذكر إنزال التوراة ، ثم الانجيل ثم

القرآن ، وهذه الكتب نور الله وهداه . والى أماكن هذه الكتب الثلاثة أشار القرآن الكريم ، قال في الجواب الصحيح (ص ٣٨٦) : فقوله تعالى : « والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين »[1] إقسام منه بالأمكنة الشريفة المعظمة الثلاثة التي ظهر فيها نوره وهداه ، وأنزل فيها كتبه الثلاثة . التوراة والانجيل والقرآن ، كما ذكر الثلاثة في التوراة .

بشائر النبوات بالنبي العربي ، والتصريح باسمه

ثم ذكر في « الجواب الصحيح » بشائر النبوات بالنبي العربي ، وفي اشعياء : « اسم محمد ، موجود إلى الابد » قال أشعياء : يا محمد يا قدوس الرب ، اسمك موجود من الأبد » قالوا فهل بقي بعد ذلك لزائغ مقال ، أو لطاعن مجال ؟ (ص ٣٠٧) . وفيه أيضاً التصريح باسمه (أحمد) و (محمد) . وقال أشعياء : إنما سمعنا من أطراف الأرض صوت (محمد) » وهذا افصاح من أشعياء باسم رسول الله (ﷺ) (٣/٣١٠) . وفي حبقوق التصريح باسم محمد مرتين : « إن الله جاء من التيمن ، والقدوس من جبال فاران ، لقد أضاءت السماء من بهاء محمد (ﷺ) وامتلأت الارض من حمده ، شعاع منظره باسم النور ، يحوط بلاده بعزه (إلى أن قال) وترتوي السهام بأمرك يا محمد ارتواء » (ثم قال) : وهذه النبوة لا تليق إلا بمحمد ، ولا تصلح إلا له ، ولا تدل إلا عليه ، فمن حاول صرفها عنه فقد حاول ممتنعاً .

وفي (ج ٤ ص ٥) في كلمة الانجيل وتفسيرها ، قالوا : وقال يوحنا الانجيلي ، قال يسوع المسيح في الفصل الخامس عشر من انجيله : إن الفارقليط روح الحق الذي يرسله أبي هو يعلمكم كل شيء . وقال يوحنا التلميذ أيضاً عن

---

(١) ١/٩٥

المسيح أنه قال لتلاميذه : إن كنتم تحبوني فاحفظوا وصاياي ، وأنا أطلب من الأب أن يعطيكم فارقليطاً آخر يثبت معكم إلى الابد روح الحق الخ .

وذكر بشارات أخرى من هـــذه الأناجيل ، وتوسع في شرح هذه البشائر واحدة واحدة ، وجملة جملة ، وبين وجه دلالتهـــا على النبي (ﷺ) وانطباقها عليه دون غـــيره ، (إلى أن قال ص ٤/١٤) : وأيضاً فان معنى الفار قليط إن كان هو الحامد أو الحماد أو الحمد أو المعز ، فهذا الوصف ظاهر في محمد (ﷺ) فانه وأمته الحمّادون الذين يحمدون الله على كل حال ، وهو صاحب لواء الحمد .

ثم عقد فصولاً في اعجاز القرآن من وجوه متعددة ، من جهة اللفظ ، والنظم ، والبلاغة ، ومعانيه التي أمر بها ، والمغيبات التي أخبر عنها ، وما وصف به المعاد ، وما أقامه من الدلائل اليقينية ، والأقيسة العقلية التي هي الأمثـــال المضروبة ، قال : وكل ما ذكره الناس من الوجوه في اعجاز القرآن فهو حجة على إعجازه ، وكل قوم تنبهوا لما تنبهوا له . وعقد فصولاً أخرى في سيرة النبي ، وفي هديه وأوصافه وأخلاقه . وذكر معجزاته في نفسه وفي خلفائه (إلى ص ١٢٠) ثم ما أخبر بوقوعه في الأحاديث الصحيحة . ثم قال بعد سرد أخباره (ﷺ) بالمغيبات (ص ١٤٨) : وهذا وأمثاله مما أخبر به من المستقبلات ، فوقع بعده كما أخبر ، ورأى الناس ذلك ، وأما ما أخبر به مما لم يقع إلى الآن فكثير . ثم ذكر شواهد مما تواتر عند علماء التاريخ أو السير ، أو النحو ، أو اللغة ، أو الحديث دون غيرهم ، وبيان أن المحدثين أوثق وأضبط من جميـــع هؤلاء ، وقال (ص ٢٣٥) : وعامة ما ذكرناه من آيات النبي(ﷺ)هي من موارد اجماعهم ، لا من موارد نزاعهم .

وفي (ص ٣٠٦) : والرجل الصادق البار يظهر على وجهه من نور صدقه، وبهجة وجهه ، سيما يعرف بها .

ونقل عن القاضي عياض - في صدق نبوة النبي - قوله : اذا تأمل المتأمل المنصف ما قدمناه من جميل أثره ، وحميد سيره ، وبراعة علمه ، ورجاحة عقله وحلمه ، وجملة كماله ، وجميع خصاله ، وشاهد حاله وصواب مقاله ، لم يمتر في صحة نبوته ، وصدق دعوته ، (قال) : وكفى هذا غيرَ واحد في اسلامه والايمان به .

في أواخر الفصل الذي ختم به شيخ الاسلام « الجواب الصحيح » مانصه: وفي خبر الجلندي ملك غسان لما بلغه أن الرسول (ﷺ) يدعوه الى الاسلام فقال الجلندي : والله لقد دلني على هذا النبي الأمي أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به ، ولا ينهى عن شر إلا كان أول تارك له ، وأنه يَغلِب فلا يبطَر ، ويُغلَب فلا يضجر ، ويفي بالعهد ، وينجز بالموعود ، وأشهد أنه نبي . وقال نفطويه في قوله تعالى: « يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار »[1] هو مثل ضربه الله لنبيه ، يقول : يكاد منظره يدل على نبوته وإن لم يتل قرآناً كما قال ابن رواحة :

لو لم يكن فيه آيات مبينة ... كانت بديهته تأتيك بالخبر

«١» سورة النور ، الاية : ٣٥ .

العقل والنّقل عند الإمام ابن تيميّة

تمهيد

في كتاب « العقود الدرّية في مناقب شيخ الاسلام أحمد بن تيمية » لتلميذه الحافظ محمد بن أحمد بن عبد الهادي (– ٧٤٤ هـ) ما يأتي : « وله كتاب في الردّ على المنطق مجلد كبير ، وله مصنفان آخران في الردّ على المنطق » اهـ (ص ٣٦) .

قلت : أحدها كتاب الردّ على المنطقيين ، وقد طبع في بمبَي (سنة ١٣٦٨هـ ١٩٤٩ م) في نحو خمسمائة وخمسين صفحة ، والثاني (نقض المنطق) وقد طبع بمصر (سنة ١٣٧٠ هـ ١٩٥١ م) وقد بلغ مائتين وعشر صفحات ، ولم أهتد الى الثالث ولعله كتاب « بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول » المطبوع على هامش كتاب منهاج السنة النبوية ، بالمطبعة الكبرى الأميرية بمصر سنة ١٣٢١ هـ في أربعة أجزاء كبار ، وهو كتاب حافل عظيم المقدار ، ردّ فيه الامامُ على الفلاسفة والمتكلمين .

في هذا الكتاب الجليل كغيره – من كتب شيخ الاسلام ومصنفاته وفتاويه – ترجيحٌ لمذهب السلف في الاعتقاد على مذهب المتأخرين ، وبيان أنّ أهل الحديث هم أولى بالصواب ، وفيه دفع ما يورده حذّاق علماء الكلام والفلسفة في مسائل الأسماء والصفات والأفعال ، ونقض قواعدهم وأقوالهم ، مما لا تؤيده فطرة سليمة ، ولا ميزان مستقيم ، ولا عقل صريح ، ولا نقل صحيح ، ويجمع

ذلك كلّه الانحراف عما نزلت به الكتب السماوية ، وجاءت به الرسل ، واهتدى به السلف . وقد أوضح شيخ الاسلام في هذا الكتاب وغيره طريقته في إثبات الأسماء والصفات ، وفي بيان منشأ غلط المعطّلة والنفاة ، ودافع فيه عن حقائق الاسلام كتاباً وسنـــة ونصراً لمذهب السلف الصالح ، وردّ مقالات الفرق الزائغة التي وصفت بأنها جهالات وضلالات ، ونقض أقوال المنحرفين عن هدي القرآن كالقدرية (١) والمعتزلة (١) ، والجبرية (٢) ، والجهمية (٣) ، ودعاة الحلول والاتحـاد (٤) ، وغيرهم كثير ؛ ومعظم الكلام معهم يدور حول تحقيق الاثبات للأسماء والصفات .

---

(١) المعتزلة – ويسمون أصحاب العدل والتوحيد – ويلقبون بالقدرية ، وهم نفاة القدر القائلون بأن الله تعالى لا يعلم الامور إلا بعد وقوعها . والذي يعم طائفة المعتزلة من الاعتقاد القول بأن الله تعالى قديم ، والقدم أخص وصف ذاته ، ونفوا الصفات القديمة أصلا ، فقالوا هو عالم بذاته ، قادر بذاته ، حي بذاته ، لا بعلم وقدرة وحياة هي صفات قديمة ومعان قائمة به ، واتفقوا على أن كلامه محدث مخلوق في محل ، واتفقوا على أن الإرادة والسمع والبصر ليست معاني قائمة بذاته ، واتفقوا على نفي رؤية الله تعالى بالابصار ، في دار القرار .

(٢) الجبر هو نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته الى الرب تعـــالى ، والجبرية أصناف ، فالجبرية الخالصة هي لا تثبت للعبد فعلا ولا قدرة على الفعل أصلا .

(٣) الجهمية : أصحاب جهم بن صفوان ، وهو من الجبرية الخالصة ، ظهرت بدعته بترمذ ، وقتله سالم بن أحوز المازني بمرو في آخر ملك بني أمية . ووافق المعتزلة في نفي الصفات الأزلية ، وزاد عليهم بأشياء ... والسلف كلهم من أشداء الرادين عليه ، ونسبته الى التعطيل المحض ، وهو أيضاً موافق للمعتزلة في نفي الرؤية ، وإثبات خلق الكلام ، وإيجاب المعارف بالعقل ، قبل ورود الشرع . « يراجع في هذا كله كتاب الملل والنحل للشهرستاني » .

(٤) دعاة الحلول والاتحاد : هم الذين يجعلونه سبحانه حقيقـــة الوجود في الموجودات ، ويجعلون كل ممكن وحادث من المخلوقات هو الوجود الواجب بنفسه أي ان الخلق هو عين الحق « سبحان ربك رب العزة عما يصفون » .

وقد بيَّن أنّ الدليلين السمعي والعقلي القطعيين لا يتعارضان أصلاً ، وإذا تعارضا كان أحدهما قطعياً والآخر ظنياً ، والقطعيّ منهما هو المقدّم ، وما أحبُّ أن أطيل الكلام في هذه المقدمة ، ولا في الخاتمة . وحسبي أن أنقل شذرات من كتاب العقل والنقل هذا ، ومن هذه النقول التي وضعنا لها عناوين مناسبة ، تُعلم قيمة هذا المصنف الجليل ، هذا والمقال قد اشتمل على عشرات من أسماء الأعلام ، من الصحابة الكرام ، فمن بعدهم بعدّة قرون ، فذكرت تاريخ وفياتهم ليسهل الرجوع الى تراجمهم في كتب التاريخ والتراجم المرتبة على الحروف أو على السنين ، اللهم إلاّ ما سهوت عنه وما لم أجد ترجمة له ، وبالله التوفيق .

باب أسماء الله تعالى وصفاته (١)

(ج ١ ص ١٥٤) مَن تدبَّر كلام أئمة السنة المشاهير في هذا الباب ، علم أنهم كانوا أدقّ الناس نظراً ، وأعلم الناس في هذا الباب بصحيح المنقول وصريح المعقول ، وأنّ أقوالهم هي الموافقة للمنصوص والمعقول ، ولهذا تأتلف ولا تختلف ، وتتوافق ولا تتناقض .

(ص ١٤٤) ذكر العلماء أن الطرق المبتدعة إما أن تكون مخطرة لطولها ودقتها ، وإما أن تكون فاسدة ، ولكن مَن سلك الطريق المخوفة ، وكانت طريقة صحيحة ، فانه يرجى له الوصول الى المطلوب . ولكن لمّا فعل هؤلاء ما فعلوا ، وصاروا يعارضون بمضمون طرقهم صحيح المنقول وصريح المعقول ،

---

(١) ملخص من الكتاب المسمى : « بيان موافقة صريح المعقول ، لصحيح المنقول » المطبوع بالمطبعة الاميرية بمصر سنة ١٣٢١ هـ على هامش كتاب « منهاج السنة النبوية » لشيخ الاسلام احمد بن تيمية .

ويدّعون أن لا معرفة إلا من طريقهم ، وأن لا يكون عالماً كاملاً ، إلا من عرف طريقهم - احتيج إلى تبيين ما فيها دفعاً لمن يحارب الله ورسوله ويسعى في الأرض فساداً ، وبياناً للطرق النافعة غير طريقهم ، وبياناً لأن أهل العلم والايمان عالمون بحقائق ما عندهم ليسوا عاجزين عن ذلك ، فان الهدى الذي بعث الله به رسوله لما كان فيه معنى الماء الذي يحصل به الحياة ، ومعنى النور الذي يحصل به الاشراق ذكر هذين المثلين كما قال تعالى : « أو مَن كان ميتاً فأحييناه ، وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مَثله في الظلمات ، ليس بخارج منها »[1] .

(ص ٩٠) وقد كنّا صنّفنا في فساد هذا الكلام مصنفاً قديماً من نحو ثلاثين سنة ، وذكرنا طرفاً من بيان فساده في الكلام على المحصّل[2] وفي غير ذلك ، فذاك كلام في تقرير الأدلة السمعية ، وبيان أنها قد تفيد اليقين والقطع . وفي هذا الكتاب كلام في بيان انتفاء المعارض العقلي ، وإبطال قول من زعم تقديم الأدلة العقلية مطلقاً .

الدليلان القطعيان لا يتعارضان

(ص ٤٢) الدليلان القطعيان لا يتعارضان أصلاً ، سواء أكانا سمعيين أم عقليين ، أو كان أحدهما سمعياً والآخر عقلياً ، ويقدم القطعي على الظني منهما . وقد قدم المؤولون والمعطلون العقلي على السمعي بدعوى أنه الأصل . وقد أبطل شيخ الاسلام ذلك كما سيأتي بيانه ، واذا قدر أنه لم يتعارض قطعي وظني لم ينازع عاقل في تقديم القطعي ، لكن كون السمعي لا يكون قطعياً دونه خرط القتاد .

---

(١) سورة الانعام ، الآية: ١٢٢

(٢) للفخر الرازي « المتوفى سنة ٦٠٦ هـ » .

وأيضاً فان الناس متفقون على أن كثيراً مما جاء به الرسول معلوم بالاضطرار من دينه كايجاب العبادات وتحريم الفواحش والظلم وتوحيـــد الصانع واثبـات المعـــاد ، وغير ذلك . فتبين أن كل ما قام عليه دليل قطعي سمعي يمتنع أن يعارضه قطعي عقلي .

أصول الدين ومسائل الاعتقاد

(ص ١٣) إن أصول الدين إما أن تكون مسائل يجب اعتقادها ، ويجب أن تذكر قولاً أو تعمل عملاً ، كمسائل التوحيـــد والصفات والقدر والنبوة والمعاد ، أو دلائل هذه المسائل . أما القسم الاول فكل ما يحتاج الناس الى معرفته واعتقاده والتصديق به من هذه المسائل فقد بينه الله ورسوله بياناً شافياً قاطعاً للعذر . وكتاب الله الذي نقـــل الصحابة ثم التابعون عن الرسول لفظه ومعانيه ، والحكمة التي هي سنة رسول الله ﷺ مشتملة على ذلك على غاية المراد ، وتمام الواجب والمستحب . والرسل عليهم الصلاة والسلام بُعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها ، لا بافسادها وتغييرها ، قال تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها »[1] .

والغرض: التنبيـه على أن في القرآن والحكمة النبوية عامـة أصول الدين . ومن المسائل والدلائل ما يستحق أن يكون أصول الدين . وأما ما يدخله بعض الناس في هذا المسمى من الباطل فليس ذلك من أصول الدين مثل : نفي الصفات والقدر ونحو ذلك . وقد اعترف حذّاق أهل الكلام كالأشعري[2] وغيره أنها

---

(١) سورة الروم ، الاية: ٣٠

(٢) كان ابو الحسن الاشعري - علي بن اسماعيل - اولا معتزلياً ، ثم تاب من القول بخلق القرآن ، ووجوب الاصلح على الله ، وانه تعـالى لا يرى بالابصار في دار القرار وهو امام الاشاعرة ، ومولده بالبصرة ، وتوفي ببغداد « سنة ٣٢٤هـ - ٩٣٦م »

ليست طريقة الرسل وأتباعهم ، ولا سلف الأمة وأئمتها ، وذكروا أنها محرّمة عندهم ، بل المحققون على أنها طريقة باطلة . وثبوت الرسالة في نفسها ، وثبوت صدق الرسول ، وثبوت ما أخبر به في نفس الامر ، ليس موقوفاً على وجودنا فضلاً عن أن يكون موقوفاً على عقولنا ، أو على الأدلة التي نعلمها بعقولنا ، كما أن وجود الرب تعالى وما يستحقه من الاسماء ثابت في نفس الامر ، سواء علمناه أو لم نعلمه . ومعلوم أن السمعيات مملوءة من إثبـــات الصانع وقدرته وتصديق رسوله ، ليس فيها ما يناقض هذه الأصول العقلية التي بها يعلم السمع ، بل الذي في السمع يوافق هذه الاصول ، بل السمع فيه من بيان الادلة العقلية على إثبات الصانع ودلائل ربوبيته وقدرته ، وبيـــان آيات الرسول ودلائل صدقه أضعاف ما يوجد في كلام النظار ، فليس فيه ولله الحمد ما يناقض الأدلة العقلية التي بها يعلم صدق الرسول .

فتبين بذلك أن العقل ليس أصلاً لثبوت الشرع في نفسه ، ولا معطياً له صفة لم تكن له ، ولا مفيداً له صفة كمال .

مَن خالف صحيح المنقول فقد خالف صريح المعقول

إنّ كل مَن أثبت ما أثبته الرسول ، ونفى ما نفـــاه كان أولى بالمعقول الصريح ، كما كان أولى بالمنقول الصحيح ، وإنّ من خالف صحيح المنقول ، فقد خالف أيضاً صريح المعقول ، وكان أولى بمن قال الله فيه : « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير »[1] .

---

(١) سورة الملك ، الاية : ١٠

أنزل القرآن بلغة العرب لا بلسان الاصطلاح

(ص ٦٣) أرسل الله الرسول بلسان قومه وهم قريش خاصة ، ثم العرب عامة ، لم ينزل القرآن بلغة مَن قال الأجسام متماثلة حتى يحمل القرآن على لغة هؤلاء ، هذا لو كان ما قالوه صحيحاً في العقل ، فكيف وهو باطل في العقل ؟

(ص ١٩٤) والقرآن نزل بلغة الذين خاطبهم الرسول (ﷺ) ، فليس لأحد أن يستعمل ألفاظه في معان بنوع من التشبيه والاستعارة ، ثم يحمل كلام من تقدمه على هذا الوضع الذي أحدثه هو .

ما المراد بالعالم

(ص ٦٨) المراد بالعالَم في الاصطلاح هو كلُّ ما سوى الله . فانّ هذه العبارة لها معنى في الظاهر المعروف عند عامة الناس أهل الملل وغيرهم ، ولها معنى في عرف المتكلمين ، وقد أحدث الملاحدة لها معنى ثالثاً . (فالمعنى الأول) انّ الله وحده القديم الأزلي ، وهذا المعنى هو المعروف عن الانبياء وأتباع الأنبياء . (والمعنى الثاني) أن يقال لم يزل الله لا يفعل شيئاً ، ولا يتكلم بمشيئته ، ثم حدثت الحوادث من غير سبب يقتضي ذلك مثل أن يقال : ان كونه لم يزل متكلما بمشيئته أو فاعلاً بمشيئته ، بل لم يزل قادراً (هو ممتنع) وانه يمتنع وجود حوادث لا أول لها ، فهذا المعنى هو الذي يعنيه أهل الكلام من الجهمية والمعتزلة ومن اتبعهم بحدوث العالم ، وقد يحكونه عن أهل الملل ، وهو بهذا المعنى لا يوجد في القرآن ، ولا غيره من كتب الأنبياء . (والمعنى

الثالث) الذي أحدثه الملاحدة كابن سينا (٤٢٨ هـ) وأمثاله ، قالوا : نقول : العالم مُحدَث ، أي معلول لعلة قديمة أزلية ، أوجبته فلم يزل معها ، وسمّوا هذا : الحدوث الذاتي ، وغيره : الحدوث الزمني . والتعبير بلفظ الحدوث عن هذا المعنى لا يعرف عن أحد من أهل اللغات لا العرب ولا غيرهم ، إلاّ من هؤلاء الذين ابتدعوا لهذا اللفظ هذا المعنى . والقول بأنّ العالم مُحدَث بهذا المعنى فقط ، ليس قول أحد من الأنبياء ولا أتباعهم ، ولا أمة من الأمم العظيمة ، ولا طائفة من الطوائف المشهورة .

(ص ٧١) وإن قال الملحد : بل هذا العالم المشهود قديم ، واجب بنفسه غنيّ عن الصانع ، فقد أثبت واجباً بنفسه قديماً أزلياً هو جسم حامل الأعراض ، متحيز في الجهات ، تقوم به الأكوان وتحله الحوادث والحركات ، وله أبعاض وأجزاء ، فكان ما فرّ منه من إثبات جسم قديم قد لزمه مثله وما هو أبعد منه ، ولم يستفد بذلك الانكار إلاّ جحد الخالق ، وتكذيب رسله ، ومخالفة صريح المعقول ، والضلال المبين .

حدوث العالم

(ص ٧٣) إن مسألة حدوث العالم اعترف بها أكابر النظّار من المسلمين وغير المسلمين ، حتى إنّ موسى بن ميمون (أبو عمران) صاحب (دلالة الحائرين) (سنة ٦٠١ هـ - ١٢٠٤ م) - وهو في اليهود كأبي حامد الغزالي (سنة ٥٠٦ هـ) في المسلمين - يمزج الأقوال النبوية بالأقوال الفلسفية ويتأولها عليها ، حتى الرازي (سنة ٦٠٦ هـ) وغيره من أعيان النظّار اعترفوا بأن العلم بحدوث العالم لا يتوقف على الأدلة العقلية ، بل يمكن معرفة صدق الرسول قبل العلم بهذه المسألة .

قيام الصفات بالموصوفات

(ص ١٧٨) المعقول : هو قيام الصفات بالموصوفات، والأعراض بالجواهر، كالصورة الصناعية مثل صورة الخاتم والدرهم والسرير والثوب ، فانه عرض قائم بجوهر هو الفضة والخشب والغزل ، وكذلك الاتصال والانفصال قائمان بمحل هو الجسم .

(ص ١٤) وليست الصفات خارجة عن مسمى الموصوف ، ولا زائدة على ذلك ، بل هي داخلة في مسمى اسمه . وكلام المتكلم ليس ببائن عنه .

(ص ٢٠) وأما الصفات الملازمة للموصوف في الخارج فكلها لازمة له ، لا تقوم ذاته مع عدم شيء عنها .

(ص ١٧٨) والخالق تعالى أولى أن تكون حقيقته هي وجوده الثابت الذي لا يشركه فيه أحد ، وهو نفس ماهيته التي هي حقيقته الثابتة في نفس الأمر . ولو قدّر أنّ الوجود المشترك بين الواجب والممكن موجود فيهما في الخارج ، وان الحيوانية المشتركة هي بعينها في الناطق والأعجم ، كان يميز أحدهما عن الآخر بوجود خاصّ ، كما يتميز الانسان بحيوانية تخصّه . كما أن السواد والبياض إذا اشتركا في مسمّى اللون يتميز أحدهما بلونه الخاصّ عن الآخر .

الموجود بنفسه والموجود بغيره

(ص ١٩٦) فالله تعالى هو الموجود الواجب بنفسه خالق لكل ماسواه ، وأما الهيئة الاجتماعية إن قدّر لها وجود في الخارج فهي حاصلة به أيضاً سبحانه وتعالى . وأما المجموع الذي كل منهم مفتقر الى من يبدعه ، وليس فيه موجود

بنفسه ، فيمتنع أن يكون فاعلهم واحداً منهم ، لانه لا بدّ له من فاعل ، ولو كان فاعلهم لكان فاعل نفسه وغيره من الممكنات .

كل موجود فاما موجود بنفسه وإما موجود بغيره ، والموجود بغيره لا يوجد إلا بالموجود بنفسه ، ثبت وجود الموجود بنفسه ، واذا سمي هذا واجباً وهذا ممكنناً ، كان ذلك أمراً لفظياً .

الذات مستلزمة للصفات

وأكثر العقلاء من طوائف المسلمين وغيرهم ينكرون الجوهر الفرد ، حتى الطوائف الكبار من أهل الكلام ، وأئمة أهـــل السنة والحديث من أصحاب الأئمة الاربعة وغيرهم يثبتون الصفات الخبرية . هناك ذات موصوفة بصفات لازمة له . فاذا قال القائل : كل موصوف بصفات لازمة له يفتقر الى مركّب ومؤلف ، يجمع بين الذات والصفات كان قوله باطلاً . وان هنا ذاتاً موصوفة بصفات ، ولا دليل لك على أن الذات القديمة الواجبة المستلزمة للصفات مفتقرة الى من ركّب صفاتها فيها . فقـــد علمتم أنه ليس المراد بالمركّب إلا اتصاف الذات بصفات لازمة لها ، أو وجود معان فيها ، أو اجتماع معـــان وأمور ونحو ذلك ؛ ليس المراد أن هناك مركباً ركبه غيره ، حتى يقال : ان المركّب يحتاج الى مركّب ، بل إن الذات ، إن أريد بها الذات الموجودة في الخارج ، فتلك مستلزمة لصفاتها ، يمنع وجودها بدون تلك الصفات .

موافقة المعقولات للسمعيات

(ص ٢١٤) إن هذه المعقولات التي اضطرب فيهـــا أكابر النظار وهي عندهم أصول العلم الالهي ، إذا حققت غاية التحقيق تبين أنها موافقة لما قاله أئمة

السنة والحديث . العارفون بما جاءت به الرسل ، وتبين أن خلاصة المعقول خادمة ومعينة وشاهدة لما جاء به الرسول (ﷺ) . ونحن - ولله الحمد - قد بينا الجواب عن جميع حجج الفلاسفة في غير هذا الموضع ، وبسطنا الحجج في ذلك .

(ص ٢١٧) وهذا مما تبين به أنه ليس في العقل الصريح ما يخالف النصوص الثابتة عن الأنبياء ، صلوات الله وسلامه عليهم وهو المقصود ، والذين يُعارِضون الكتاب والسنة بما يزعمون أنه من العقليات القاطعة ، إنما يعارضونه بمثل هذه الحجج الداحضة ، فكلٌ من لم يناظر أهل الالحاد والبدع مناظرة تقطع دابرهم لم يكن أعطى الاسلام حقه ، ولا وفىٌ بواجب العلم والايمان . وكل من جحد القضايا الضرورية المستقرة في عقول بني آدم التي لم ينقلها بعضهم عن بعض كان سوفسطائيا(١) .

المعقول مطابق لما جاء به الرسول

(ص ٢٣٢) وهؤلاء أهل الكلام المخالفون للكتاب والسنة الذين ذمهم السلف والأئمة ، لا قاموا بكمال الايمان ، ولا بكمال الجهاد ، بل أخذوا يناظرون أقواماً من الكفار وأهل البدع الذين هم أبعد عن السنة منهم بطريق لا يتمّ إلا برد بعض ما جاء به الرسول وهي لا تقطع أولئك الكفار بالمعقول ، فلا آمنوا بما جاء به الرسول حق الايمان ، ولا جاهدوا الكفار حق الجهاد .

---

(١) السوفسطائية انكروا كلا من الحسيات والبديهيات فقالوا بعدم الجزم في كل منها . و « سوفا » معناه : العلم والحكمة ، و « اسطا » معناه المزخرف والغلط ، ومنه اشتقت السفسطة ، كما اشتقت الفلسفة من فيلاسوف : أي محب الحكمة .

(ص ٢٣٢) وتبين أن المعقول الصريح مطابق لما جاء به الرسول لا يناقضه ولا يعارضه ، وأنه بذلك تبطل حجج الملاحدة ، وينقطع الكفار ، فتحصل مطابقة العقل للسمع ، وانتصار أهل العلم والايمان ، على أهل الضلال والالحاد .

وقد كنت قديماً ذكرت في بعض كلامي أني تدبرت عامة ما يحتج به النفاة من النصوص فوجدتها على نقيض قولهم أدلّ منها على قولهم كاحتجاجهم على نفي الرؤية بقوله تعالى : « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار [1] » فبينت أنّ الادراك هو الاحاطة لا الرؤية ، وأن هذه الآية تدلّ على إثبات الرؤية أعظم من دلالتها على نفيها .

إثبات الصانع وإحداثه للمحدَثات لا يمكن إلا باثبات صفاته وأفعاله

وإذا تدبَّر العاقل الفاضل تبيَّن له أن إثبات الصانع وإحداثه للمحدثات ، لا يمكن إلاّ باثبات صفاته وأفعاله ، ولا تنقطع الدهرية [2] من الفلاسفة وغيرهم قطعاً باتاً عقلياً لا صلة فيه إلاّ على طريقة السلف أهل الاثبات ، للأسماء والأفعال والصفات . ففحول أهل الكلام كأبي علي (سنة ٣٠٣ هـ) وأبي هاشم (سنة ٣٢١ هـ) والقاضي عبد الجبار (سنة ٤٥١ هـ) وأبي الحسن الأشعري (سنة ٣٢٣ هـ) والقاضي أبي بكر (سنة ٤٠٣ هـ) وأبي الحسين البصري (سنة ٤٣٦ هـ) ومحمد بن الهيضم وأبي المعالي الجويني (سنة ٤٧٨ هـ) وأبي الوفاء ابن عقيل (سنة ٥١٥ هـ) وأبي حامد الغزالي (سنه ٥٠٦ هـ) وغيرهم يبطلون

---

(١) سورة الانعام ، الاية : ١٠٣

(٢) الدهرية : هم المنكرون للبعث والمعاد ، القائلون : « وما يهلكنا إلا الدهر » أي إلا مر الليالي والايام .

طرق الفلاسفة التي بنوا عليها النفي ، منهم من يبطل أصولهم المنطقية ، وتقسيمهم الصفات إلى ذاتي وعرضي وتقسيمهم العرضي الى لازم للماهية وعارض لهـــا ، ودعواهم أنّ الصفات اللازمة للموصوف منها ما هو ذاتي داخل في الماهية ومنها ما هو عرضي خارج عن الماهية ، وبناءهم توحيد واجب الوجود الذي مضمونه نفي الصفات على هذه الأصول .

(ص ٥٩ ج) وبعض حذاق المعتزلة نصر القول بعلو الله ومباينته لخلقه بالأدلة العقلية ، وأظنه من أصحاب أبي الحسين، وقد حكى ابن رشد (سنة ٥٩٥ هـ) ذلك عن أئمة الفلاسفة ، وأبو البركات وغيره من الفلاسفة يختارون قيام الحوادث به كإرادات وعلوم متعاقبة ، وقد ذكروا ذلك وما هو أبلغ منه عن متقدمي الفلاسفة كما ذكرت أقوالهم .

(ج ٣ ص ٦٨) إنّ الاستدلال بحدوث المحدثات على إثبات الصانع هي طريقة فطرية ضرورية ، وهي خيار ما عندهم ، بل ليس عندهم طريقـة صحيحة غيرها ، لكنهم أدخلوا فيهـــا من الاختلال والفساد ، ما يعرفه أهل التحقيق والانتقاد ، الذين آتاهم الله الهدى والسداد .

تكليم الله تعالى لعبـــاده

الناس متنازعون في تكليم الله لعباده ، هل هو مجرد إدراك لهم من غير تجدد تكليم من جهته ، أم لا بد من تجديد تكليم من جهته ؟ على قولين للمنتسبين الى السنة وغيرهم من أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وغيرهم ، فالأول: قول الكُلاَّبية [1] والسالمية ومن وافقهم من أصحاب هؤلاء الأئمة القائلين بأنّ

---

(١) قال ابن كلاب ومن وافقه : كلامه تعالى صفة ذات ، لازم لذاته كلزوم الحياة ، ليس هو متعلقاً بمشيئته وقدرته ، بل هو قديم كقدم الحياة .

الكلام لا يتعلق بمشيئته وقدرته ، بل هو بمنزلة الحياة . والثاني قول الأكثرين من أهل الحديث والسنة ، من أصحاب هؤلاء الأئمة ، وغيرهم وهو قول أكثر أهل الكلام من المرجئة (١) والكرّامية (٢) والمعتزلة وغيرهم ، قالوا : ونصوص الكتاب والسنة تدل على هذا القول ، ولهذا فرّق الله بين إحداثه وتكليمه كما ذكر في سورة النساء وسورة الشورى ، والأحاديث التي جاءت بأنه يكلم عباده يوم القيامة ويحاسبهم .

الحوادث والمتجددات

(ج ٤ ص ١٧) ذكر (أبي الآمدي) (سنة ٦٣١ هـ) أنّ لفظ الحادث مرادهم به الموجود بعد العدم ، سواء أكان قائماً بنفسه كالجوهر ، أو صفة لغيرهم كالأعراض ،وسمي ما ليس بموجود كالاحوال والسلوب والاضافات (متجددات) وهذا الفرق أمر اصطلاحي ، وإلا فلا فرق بين معنى المتجدد ومعنى الحادث .

(ص ١٨) وأما المذاهب فيقال : لفظ الحوادث والمتجددات في لغة العرب يتناول أشياء كثيرة ، وربما أفهم أو أوهم في العرف استحالات كالأمراض والغموم والاحزان ونحوها ، اذا قيل فلان حدث به حادث ؛ وكثير منهم يعبر بالأحداث عن المعاصي والذنوب ونحو ذلك .

---

(١) لقبوا بالمرجئة لانهم يرجئون العمل عن النية والاعتقاد ، أي يؤخرون ، أو لانهم يقولون لا يضر مع الايمان معصية ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة .

(٢) تنسب الفرقة الكرامية الى محمد بن كرام (كجمال) وقد نسب اليه أنه كان يقول: إن الايمان قول بلا عمل (مات سنة ٢٥٥ هـ).

صدورها عمن لا فعل له ولا صفة محال

(ص ١٠) فقولكم - (أي الفلاسفة والدهرية) - بصدور الحوادث المختلفة الدائمة عمن لا فعل له ولا صفة ولا يحدث منه شيء أعظم فساداً من قول مَن يقول : انه تارة تصدر منه الحوادث ، وتارة لا تصدر ، فانه إن كان صدور الحوادث عنه من غير حدوث شيء فيه محالاً ، فصدورها دائماً عنه من غير حدوث شيء فيه أشد استحالة .

نفاة الصفات لا مستند لهم

(ج ٤ ص ١٨) ومن المعلوم أنه لا يمكن أصلاً أن ينقل عن محمد (صلى الله عليه وسلم) ولا عن إخوانه المرسلين كموسى وعيسى صلوات الله عليهما ما يدل على قول النفاة لا نصاً ولا ظاهراً ، بل الكتب الالهية المتواترة عنهم والاحاديث المتواترة عنهم تدل على نقيض قول النفاة ، وتوافق قول أهل الاثبات ، وكذلك أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والتابعون لهم باحسان ، وأئمة المسلمين أرباب المذاهب المشهورة ، وشيوخ المسلمين المتقدمون ، لا يمكن لأحد أن ينقل نقلاً صحيحاً عن أحد منهم بما يوافق قول النفاة ، بل المنقول المستفيض عنهم يوافق قول أهل الاثبات . فنقل مثل هذا عن أهل الملة خطأ ظاهر ، ولكن أهل الكلام والنظر من أهل الملة ، تنازعوا في هذا الأصل لما حدث في أهل الملة مذهب الجهمية نفاة الصفات ، وذلك بعد المائة الاولى في أواخر عصر التابعين ، ولم يكن قبل هذا يعرف من أهل الملة من يقول بنفي الصفات ، ولا بنفي الأمور الاختيارية القائمة بذاته تعالى .

(ص ٦٥) وحقيقة هؤلاء الجهمية والمعتزلة ومن وافقهم من الأشعرية وغيرهم، أن الرب لم يزل معطلا، لا يفعل شيئاً ولا يتكلم بمشيئته وقدرته. ثم أنه أبدع جواهر من غير فعل يقوم به، وبعد ذلك ما بقي يخلق شيئاً، بل إنما تحدث صفات تقوم بها، ويدعون أن هذا قول أهل الملل الأنبياء وأتباعهم !!

اضطرابهم في مسمى واجب الوجود

(ص ١٨٧) واعلم أن هؤلاء غلطوا في مسمى واجب الوجود، وفيما يقتضيه الدليل من ذلك حتى صاروا في طرفي نقيض، فتارة يثبتونه ويجردونه عن الصفات حتى يجعلوه وجوداً مطلقاً، ثم يقولون: هو الوجود الذي في الموجودات، فيجعلون وجود كل ممكن وحادث هو الوجود الواجب بنفسه، كما يفعل ذلك محقق صوفيتهم كابن عربي (سنة ٦٣٨ هـ)، وابن سبعين (سنة ٦٦٨ هـ)، والقونوي (سنة ٧٢٩ هـ)، والتلمساني (سنة ٦٩٠ هـ) وأمثالهم؛ وتارة يشككون في نفس الوجود الواجب، ويقدرون أن يكون كل موجود ممكنا بنفسه، لا فاعل له، وأن مجموع الوجود ليس فيه واجب بنفسه، بل هذا معلول مفعول، وهذا معلول مفعول، وليس في الوجود إلا ما هو معلول مفعول، فلا يكون في الوجود ما هو فاعل مستغن عن غيره، فتارة يجعلون كل موجود واجباً بنفسه، وتارة يجعلون كل موجود ممكنا بنفسه، ومعلوم بضرورة العقل بطلان كل من القسمين، وان من الموجودات ما هو حادث، كان تارة موجوداً وتارة معدوماً، وهذا لا يكون واجباً بنفسه، وهذا لا بدّ له من موجود واجب بنفسه.. وأن يكون ما دخل في مسمى نفسه من صفاته لازماً له، فاتصافه بصفاته سواء سمي ذلك تركيباً أو لم يسم، لا يمنعه أن يكون واجباً بنفسه لا يفتقر الى أمر خارج عنه، ولهذا كانت صفاته واجبة الوجود بهذا الاعتبار،

وإنْ لزم من ذلك تعدُّد واجب الوجود بهذا المعنى ، بخلاف ما إذا عُني به أنه الموجود الفاعل للممكنات ، فان هذا واحد سبحانه لا شريك له .

(ص ٢٤٨) والمسلمون متفقون على أن الله سبحانه وتعالى ، وصفاته اللازمة لذاته ، لا يجوز عليها العدم .

(ص ١٩٤) وعامة ما يلبِّس به هؤلاء النفاة ألفاظ مجملة متشابهة ، إذا فسرت معانيها ، وفُصِل بين ما هو حق منها ، وبين ما هو باطل ، زالت الشبهة وتبين أن الحق الذي لا محيد عنه ، هو قول أهل الاثبات للمعاني والصفات .

إنَّ مَن شكَّ في أوضح الأمرين وأبينها في العقل ، وفي أمر لم يشكّ أحد من الأولين والآخرين فيه ، كان أولى بالجهل ممن قال ما قالت به الأنبياء والرسل وأتباعهم وسائر عقلاء بني آدم من الأولين والآخرين ، وعُلم ثبوته بالبراهين اليقينية ، وذلك أنه لم يجوز أحد من بني آدم ، وجود فاعل للعالم ، ولذلك الفاعل فاعل ، إلى ما لا نهاية له من غير أن يكون هناك فاعل موجود بنفسه ، فمن شك في جواز هذا ، أو عجز عن جواب شبهة مجوِّزه ، كان جهله بيناً ، وكان أجهلَ من أخش الناس قولاً بالباطل المحض من التشبيه والتجسيم .

لا يؤخذ بلفظ مجمل مشتبه حتى يتبين معناه ، ويعلم المقصود منه

(ص ١٧٩) هؤلاء عمدوا إلى ألفاظ مجملة مشتبهة تحتمل في لغات الأمم معاني متعددة ، وصاروا يدخلون فيها من المعاني ما ليس هو المفهوم منها في لغات الأمم ، ثم ركّبوها وألّفوها تأليفاً طويلاً بنوا بعضه على بعض وعظّموا قولهم وهوّلوه في نفوس مَن لم يفهمه ، ولا ريب أنّ فيه دقةً وغموضاً لما فيه من الألفاظ المشتركة ، والمعاني المشتبهة . ولهذا يجب على من يريد كشف ضلال هؤلاء وأمثالهم أن لا يوافقهم على لفظ مجمل حتى يتبين معناه

ويعرف مقصوده ، ويكون الكلام في المعاني العقلية المبيَّنة ، لا في معانٍ مشتبهة ، بألفاظ مجملة .

(ص ١٨٠) وما تنازع فيه الأمة من الألفاظ المجملة كلفظ المتحيِّز والجهة والجسم والجوهر والعرض وأمثال ذلك ، فليس على أحد أن يقبل مسمى اسم من هذه الأسماء ، لا في النفي ولا في الاثبات ، حتى يتبين له معناه .

فلسفة المعتزلة والجهمية في نفي الصفات والأفعال

(ص ١٨٧) إن المعتزلة والجهمية نفت أن يقوم بالله تعالى صفات وأفعال بناءاً على هذه الحجة ، قالوا لأن الصفات والافعال لا تقوم إلاّ بجسم ، وبذلك استدلوا على حدوث الجسم . . . فصاروا ينفون ما ينفونه من صفات الله تعالى لأن إثبات ذلك يقتضي أن يكون الموصوف جسماً ، وذلك ممتنع ، لأن الدليل على إثبات الصانع إنما هو حدوث الأجسام ، فلو كان جسماً لبطل دليل إثبات الصانع .

وقالت المعتزلة كأبي الحسين وغيره أيضاً : إنّ صدق الرسول معلوم بالمعجزة ، والمعجزة معلومة بكون الله تعالى لا يظهرها على يد كاذب . . . وغناه معلوم بكونه ليس بجسم ، وكونه ليس بجسم معلوم بنفي الصفات ، فلو قامت به الصفات لكان جسماً ، ولو كان جسماً لم يكن غنياً ، وإذا لم يكن غنياً لم يمتنع عليه فعل القبيح ، فلا يؤمن أن يظهر المعجزة على يد كذاب ، فلا يبقى لنا طريق الى العلم بصدق الرسول ، فهذا الكلام ونحوه أصل دين المعتزلة .

(ص ١٨٩) وجمهور العقلاء ، وأهل العلم من الفقهاء وغيرهم متفقون على بطلان قولهم ، وأنّ الله تعالى يحدث الأعيان ويبدعها ، وإن كان يحيل الجسم الأول الى جسم آخر ، فلا يقولون إن جرم النطفة باق في بدن الانسان ،

ولا جرم النواة باق في النخلة ، والكلام على هذه الأمور مبسوط في غير هذا الموضع . والمقصود هنا أن هذه القواطع العقلية ، هي التي يعارضون بها الكتب الإلهية ، والنصوص النبوية ، وما كان عليه سلف الأمة وأئمتها . فيقال لهم : أنتم وكل مسلم عالم ، تعلمون بالاضطرار أن إيمان السابقين الأولين من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان ، لم يكن مبنيــــاً على هذه الحجج المبنيّة على الجسم ، ولا أمر النبي أحداً أن يستدل بذلك على إثبات الصانع ، ولا ذكر الله تعالى في كتابه وفي آياته الدالة عليه وعلى وحدانيته شيئاً من هــذه الحجج المبنيّة على الجسم والعرض ، وتركيب الجسم وحدوثه ، وما يتبع ذلك ، فمن قال : إن الايمان برسوله لا يحصل إلا بهذا الطريق ، كان قوله معلوم الفساد بالاضطرار من دين الاسلام .

وأما السلف والائمة فينكرون صحتها في نفسها ويعيبونها لاشتمالها على كلام باطل، ولهذا تكلموا في ذم مثل هذا الكلام ، لأنه باطل في نفسه لا يوصل الى حق بل الى باطل ... وان تقديم الشرع المعارض لها لا يكون قدحاً في العقليات التي هي أصل الشرع ، بل يكون قدحاً في أمور لا يفتقر الشرع اليها ولا يتوقف عليها وهو المطلوب .

أول من أظهر هذا النفي في الاسلام

وأول من أظهر هذا النفي في الاسلام الجعد بن درهم معلم مروان بن محمد (سنة ١٢٢ هـ) ، قال الامام أحمد : وكان يقال انه من أهل خراسان ، وعنه أخذ الجهم بن صفوان مذهب نفاة الصفات ، وكان بحران هؤلاء النفاة الصابئة الفلاسفة أهل هذا الدين أهل الشرك ونفي الصفات والأفعال ، ولهم مصنفات في دعوة الكواكب ، كما صنفه ثابت بن قرة (سنة ٢٨٨ هـ) وأمثاله من الصابئة

الفلاسفة أهل حرّان ، وكما صنفه أبو معشر الفلكي (سنة ٢٧٢ هـ) وأمثاله ، وكان لهم بها هيكل العلة الاولى ، وهيكل العقل الفعال ، وهيكل النفس الكلية ، وهيكل زحل ، وهيكل المشتري ، وهيكل المريخ ، وهيكل الشمس ، وهيكل الزهرة ، وهيكل عطارد ، وهيكل القمر .

فالعقول عندهم عشرة ، والنفوس تسع بعدد الأفلاك .

نفي الجبر وإثبات القدر

(ج ١ ص ٣٥) عن بقية بن الوليد (سنة ١٩٧ هـ) قال : سألت الزُبَيدي (سنة ١٤٩ هـ) والأوزاعيّ (سنة ١٥٧ هـ) عن الجبر ، فقال الزبيدي : أمر الله أعظم وقدرته أعظم من أن يجبر أو يعضل ، ولكن يقضي ويقدر ، ويخلق ويجبل عبده على ما أحب ، وقال الأوزاعي : ما أعرف للجبر أصلاً من القرآن ، ولا السنة ، فأهاب أن أقول ذلك ، ولكن القضاء والقدر والخلق والجبل ، فهذا يعرف في القرآن والحديث عن رسول الله (ﷺ) ، فهذان الجوابان أحسن الاجوبة . أما الزبيدي محمد بن الوليد صاحب الزهري (سنة ١٢٤ هـ) فانه قال : أمر الله أعظم ، ويريدون بعضلها ـ أي النفس ـ منعها مما ترضاه . وأما الاوزاعي فانه منع من اطلاق هذا اللفظ حيث لم يكنْ له أصل في الكتاب والسنة ، فيُفضي الى إطلاق لفظ مبتدع ظاهر في إرادة الباطل .

(ص ٣٦) قال النبي (ﷺ) لأشج عبد القيس : إن فيك لخصلتين يحبها الله ، الحلم والاناة ، فقال : أخُلُقين تخلقتُ بهما أم خُلُقين جُبلت عليهما ؟ فقال : بل خُلُقين جبلتَ عليهما ، فقال : الحمد لله الذي جبلني على خُلقين يحبهما الله « رواه مسلم » .

(ص ٣٩) وبذلك يتبين أن الشارع عليه السلام نص على كل ما يعصم من

المهالك نصاً قاطعاً للعذر ، وقال تعالى : « وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم ، حتى يبين لهم ما يتقون »[1] .

الاسلام يجمع الفِرَق ويعمّها

(ص ٥٠) قال الشيخ أبو الحسن الأشعري في أول مقالات اختلاف الاسلاميين: اختلف المسلمون بعد نبيهم في أشياء ضلل فيها بعضهم بعضاً ، وتبرأ بعضهم من بعض ، إلا أن الاسلام يجمعهم فيعمهم ، فهذا مذهبه وعليه أكثر الاصحاب ، وأما الفقهاء فقد نقل عن الشافعي رضي الله تعالى عنه قال : لا أرُدُّ شهادة أهل الأهواء إلاّ الخطّابية [2] ، فانهم يعتقدون حلّ الكذب . وأما أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه ، فقد حكى الحاكم صاحب «المختصر» في كتاب «المنتقى» عن أبي حنيفة رضي الله عنه أنه لم يكفر أحداً من أهل القبلة ... والذي نختاره أن لا نكفر أحداً من أهل القبلة .

(ج٢ ص٥٢) ثم إنه مامن هؤلاء إلاّ من له في الاسلام مساع مشكورة ، وحسنات مبرورة ، وله في الرد على كثير من أهل الالحاد والبدع ، والانتصار لكثير من أهل السنة والدين ما لا يخفى على مَن عَرَف أحوالهم ، وتكلم فيهم بصدق وعدل وإنصاف .

---

(١) سورة التوبة ، الاية : ١١٥

(٢) الخطابية : أصحاب أبي الخطاب محمد بن أبي زينب الأسدي الاجدع ، وهو الذي عزا نفسه الى أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق ، فلما وقف الصادق على غلوه الباطل في حقه ، تبرأ منه ولعنه وأخبر اصحابه بالبراءة منه ، وشدد القول في ذلك ... فلما اعتزل عنه ادعى الامر لنفسه . زعم ابو الخطاب أن الأئمة أنبياء ثم آلهة ، وقال بالهية جعفر بن محمد وإلهية آبائه « انظر الملل والنحل للشهرستاني » .

وصف القرآن الكريم في الحديث النبوي

(ص ٢٩) روى الترمذي (سنة ٢٧٩ هـ) وغيره عن علي (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله (ﷺ) : إنها ستكون فِتَن ، قلت : فما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : « كتاب الله ، فيه نبأ ما قبلكم ، وخبرُ ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبّار قصمه الله ، وَمن ابتغى الهُدى في غيره أضله الله ، وهو حبلُ الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسن ، ولا يخلق عن كثرة الردّ ، ولا تنقضي عجائبه ، ولا يشبع منه العلماء ... مَن قال به صُدّق ، ومن عمل به أُجر ، ومن حكم به عَدَل ، ومن دعا إليه هُدِي الى صراط مستقيم » .

الترجمة التفسيرية للقرآن

ولذلك يترجم القرآن لمن يحتاج الى تفهمه إياه بالترجمة ، وكذلك يقرأ المسلم ما يحتاج اليه من كتب الأمم وكلامهم بلغتهم ، ويترجم بالعربية ، كما أمر النبيُّ (ﷺ) زيدَ بن ثابت (سنة ٤٥ هـ) أن يتعلَّم كتاب اليهود ليقرأ له ويكتب له ذلك ، حيث لم يأمن اليهود عليه .

إثبات الارادة الأزلية والعلة الفاعلية والغائية

(ص ٢٠٣) الأشعرية أثبتوا السبب الفاعل لارادة العبد ، وأثبتوا لله إرادة قديمة تتناول جميع الحوادث ، ولكن لم يثبتوا لها الحكمة المطلوبة والعاقبة

المحمودة ، فكان هؤلاء بمنزلة من أثبت العلة الفاعلية دون الغائية ، وأولئك بمنزلة العلة الغائية دون الفاعلية . والمتفلسفة المشاؤون يدعون إثبات العلة الفاعلية والغائية ، ويعللون ما في العالم من الحوادث بأسباب وحكم ... وحقيقة قولهم : إن أفعال الرب تعالى ليس فيها حكمة ولا عاقبة محمودة . لأنهم ينفون الارادة ، ويقولون ليس فاعلاً مختاراً .

حدوث ما يُحدثه تعالى من المخلوقات تابع لافعاله الاختيارية

(ج ٢ ص ٣) حدوث ما يحدثه الله تعالى من المخلوقات تابع لما يفعله من أفعاله الاختيارية القائمة بنفسه ، وهذه سبب الحدوث والله تعالى حيٌ قيوم ، لم يزل موصوفاً بأنه يتكلم بما يشاء فعَّال لما يشاء ، وهذا قد قاله العلماء الأكابر من أهل السنة والحديث ، ونقلوه عن السلف والأئمة ، وهو قول طوائف كثيرة من أهل الكلام والفلسفة المتقدمين والمتأخرين ، بل هو قول جمهور المتقدمين من الفلاسفة ، وعلى هذا فيزول الإشكال ، ويكون إثبات خلق السموات إنما يتمّ بما جاء به الشرع ... وكل كمال وصف به المخلوق من غير استلزامه لنقص ، فالخالق أحقُّ به ، وكلُّ نقص نزّه عنه المخلوق فالخالق أحقّ أن ينزّه عنه ، والفعل صفة كمال لا صفة نقص ، كالكلام والقدرة ، وعدم الفعل صفة نقص كعدم الكلام وعدم القدرة ، فدل العقل على صحة ما دل عليه الشرع وهو المطلوب .

ولما كان الاثبات هو المعروف عند أهل السنة والحديث كالبخاري (سنة ٢٥٦ هـ) وأبي زرعة (سنة ٢٦٤ هـ) وأبي حاتم (سنة ٢٧٧ هـ) ومحمد بن يحيى الذهلي (سنة ٢٥٨ هـ) وغيرهم من العلماء الذين أدركهم محمد بن اسحق (سنة

٣١٣ هـ) وابن خزيمة (سنة ٣١١ هـ) ، كان المستقر عنده ما تلقاه عن أئمته من أن الله تعالى ، لم يزل متكلماً إذا شاء ، وانه يتكلم بالكلام الواحد مرةً بعد مرةٍ .

الكشف عن مذهب المعتزلة وبيان حقيقته

(ص ٦) كانت المعتزلة تقول : إن الله مُنزَّه عن الأعراض والأبعاض والحوادث والحدود ، ومقصودهم نفيُ الصفات ونفيُ الافعال ،ونفيُ مباينته للخلق وعلوه على العرش ، وكانوا يعبّرون عن مذاهب أهل الاثبات أهل السنة بالعبارات المجملة التي تشعر الناس بفساد المذهب ، فانهم إذا قالوا إن الله منزه عن الأعراض لم يكن في ظاهر هذه العبارة ما يُنكر ، لأن الناس يفهمون من ذلك أنه منزه عن الاستحالة والفساد ، كالأعراض التي تعرض لبني آدم من الامراض والاسقام ، ولا ريب أن الله منزَّه عن ذلك ، ولكن مقصودهم أنه ليس له علم ولا قدرة ولا حياة ولا كلام قائم به ولا غير ذلك من الصفات التي يسمونها هم أعراضاً . وكذلك إذا قالوا : إن الله منزَّه عن الحدود والأحياز والجهات ، أوهموا الناس أن مقصودهم بذلك أنه لا تحصره المخلوقات ، ولا تحوزه المصنوعات ، وهذا المعنى صحيح ، ومقصودهم أنه ليس مبايناً للخلق ولا منفصلاً عنه ، وأنه ليس فوق السماوات رب ولا على العرش إله ، وأن محمداً لم يعرج به اليه ، ولم ينزل منه شيء ، ولا يصعد اليه شيء ، ولا يتقرب اليه شيء ولا يتقرب إلى شيء ولا ترفع اليه الأيدي في الدعاء ولا غيره ، ونحو ذلك من معاني الجهمية . وإذا قالوا إنه ليس بجسم أوهموا أنه ليس من جنس المخلوقات ، ولا مثل أبدان الخلق ، وهذا المعنى صحيح ، ولكن مقصودهم بذلك أنه لا يرى ولا يتكلم بنفسه ، ولا تقوم به صفة ، ولا هو مباين للخلق وأمثال ذلك . وإذا قالوا : لا تحله الحوادث

أوهموا الناس أن مرادهم أنه لا يكون محلاً للتغيرات والاستحالات ونحو ذلك من الأحداث التي تحدث للمخلوقين فتحيلهم وتفسدهم ، وهذا معنى صحيح ، ولكن مقصودهم بذلك أنه ليس له فعل اختياري يقوم بنفسه ، ولا له كلام ولا فعل يقوم به يتعلق بمشيئته وقدرته ، وأنه لا يقدر على استواء أو نزول أو إتيان ، أو مجيء ، وأن المخلوقات التي خلقها لم يكن منه عند خلقها فعل أصلاً ، بل عين المخلوقات هي الفعل ، ليس هناك فعل ومفعول ، وخلق ومخلوق ، بل المخلوق عين الخلق ، والمفعول عين الفعل ونحو ذلك . وابن كُلاَّب ومن اتبعه وافقوهم على هذا وخالفوهم في إثبات الصفات .

الامام الأشعري يثبت الصفات بالشرع تارة وبالعقل أخرى

وكذلك الأشعري يثبت الصفات بالشرع تارة وبالعقل أخرى ، ولهذا يثبت العلو ونحوه مما تنفيه المعتزلة ، ويثبت الاستواء على العرش ، ويرد على من تأوله بالاستيلاء ونحوه مما لا يختص بالعرش - أي هو تعالى مستول على كل شيء من مخلوقاته لا على العرش وحده ، وهو العالي على كل شيء ، المحيط بكل شيء في جميع أحواله من نزوله وارتفاعه ، لا يحيط به شيء ، ولا يحتوي عليه شيء . وكان الأشعري وأئمة أصحابه يقولون انهم يحتجون بالعقل لما عرف ثبوته بالسمع ، فالشرع هو الذي يعتمد عليه في أصول الدين ، والعقل عاضد له معاون . لكن المعتزلة القائلين بأن دلالة السمع موقوفة على صحته صرحوا بأنه لا يستدل بأقوال الرسول على ما يجب ويمتنع من الصفات بل ولا الأفعال ، وصرحوا بأنه لا يجوز الاحتجاج على ذلك بالكتاب والسنة وإن وافق العقل فكيف إذا خالفه . وهذه الطريقة هي التي سلكها من وافق المعتزلة في ذلك . وأما الأشعري وأئمة

أصحابه فانهم مثبتون لها (أي الصفات الخبرية) يردون على من ينفيها أو يقف فيها فضلاً عمن يتأولها .

وأمَّا مسألة قيـــام الأفعال الاختيارية به فانَّ ابن كُلاَّب والأشعري وغيرهما ينفونها ، وعلى ذلك بنوا قولهم في مسألة القرآن ، وبسبب ذلك وغيره تكلم الناس فيهم في هذا الباب بما هو معروف في كتب أهل العلم ونسبوهم الى البدعة . والصواب ان الله بجميع صفات ذاته واحـــد ، لم يزل ولا يزال ، وما أضيف الى الله من صفات فعله مما هو غير بائن عن الله فغير مخلوق .

التفاسير المأثورة مثبتة للصفات

والتفاسير المأثورة عن النبي صلوات الله عليه والصحابة والتابعين مثل تفسير محمد بن جرير الطبري (سنة ٣١٠ هـ)، وتفسير عبد الرحمن بن ابراهيم المعروف بدُحَيْم (سنة ٢٤٥ هـ) ، وتفسير عبد الرحمن بن أبي حاتم (سنة ٣٢٧ هـ) ، وتفسير ابن المنذر (سنة ٣٠٩ هـ) ، وتفسير أبي بكر عبد العزيز ، وتفسير أبي الشيخ الأصبهاني ، وتفسير ابي بكر مردويه ، وما قبل هؤلاء من التفاسير مثل تفسير أحمد بن حنبل (سنة ٢٤١ هـ) ، واسحق بن ابراهيم (سنة ٢٣٨ هـ) وبقي بن مخلد (سنة ٢٧٦ هـ) وغيرهم . ومن قبلهم مثل تفسير عبد بن حميـد ، وتفسير عبد الرزاق (سنة ٢١١ هـ) ، ووكيع بن الجراح (سنة ١٩٧) ، فيها من هذا الباب الموافق لقول المثبتين ما لا يكاد يحصى . وكذلك الكتب المصنفة في السنَّة التي فيها آثار النبيّ (ﷺ) والصحابة والتابعين .

خلاصة ما تقدم

الردّ بعشرات الآيات على مَن يقول : إن الله تعالى لا يتكلم إلا بأصوات قديمة أزلية ليست متعاقبة وهو لا يقدر على التكلم بها ، ولا له في ذلك مشيئة

ولا فعل (٦٠ - ٦٣ ج ٢) وقد جاء في آخرها قوله : وأمثال ذلك كثير في كتاب الله تعالى ، بل يدخل في ذلك عامّة ما أخبر الله به من أفعاله لا سيما المرتبة كقوله تعالى : « ولسوف يعطيك ربُّك فترضى »(١) ، « وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده »(٢) ، « ألم نهلك الأولين ثم نتبعهم الآخرين »(٣) ، وآيات كثيرة كلها تدلّ على أفعال الله تعالى بالتعاقب والترتيب .

(ص ٦٠) وخلاصة هذا المبحث الطويل الجليل هو في قوله : لكن المقصود هنا أن نبين أن القرآن والسنة فيهما من الدلالة على هذا الأصل ما لا يكاد يُحصر ، فمن له فهم في كتاب الله يستدلُّ بما ذكر من النصوص على ما ترك ، ومَن عرف حقيقة قول النفاة علم أنّ القرآن مناقض لذلك مناقضة لا حيلة لهم فيها ، وأن القرآن يثبت ما يقدر عليه ويشاؤه من أفعاله تعالى التي ليست هي نفس المخلوقات .

كلام هؤلاء الطوائف

مَن تدبَّر كلام هؤلاء الطوائف بعضهم مع بعض تبين له أنهم لا يعتصمون فيما يخالفون به الكتاب والسنة إلا بحجة جدلية يسلمها بعضهم لبعض ، وآخر منتهاهم حجة يحتجون بها في إثبات حدوث العالم لقيام الأكوان به أو الأعراض ، ونحو ذلك من الحجج التي هي أصل الكلام المحدَث الذي ذمّه السلف والأئمة ، وقالوا إنه جهل ، وان حكم أهله أن يضربوا بالجريد والنعال ، ويطاف بهم في القبائل والعشائر ، ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على

---

(١) سورة الضحى ، الاية : ٥

(٢) سورة الروم ، الاية : ٢٧

(٣) سورة المرسلات ، الاية : ١٦ و ١٧

الكلام ؛ وكذا من عرف حقائق ما انتهى اليه هؤلاء الفضلاء الأذكياء ازداد بصيرة وعلماً ويقيناً بما جاء به الرسول (ﷺ) ، وبأن ما يعارضون به الكتاب والسنّة من كلامهم الذي يسمونه عقليات ، هي من هذا الجنس الذي لا يتفق إلاّ بما فيه من الألفاظ المجملة المشتبهة مع مَن قلَّت معرفته بما جاء به الرسول ، وبطرق إثبات ذلك ؛ ويتوهم أن بمثل هذا الكلام يثبت معرفة الله وصدق رسله ، وأن الطعن في ذلك طعن فيما به يصير العبد مؤمناً ، فيتعجّل ردّ كثير مما جاء به الرسول (ﷺ) ، لظنه أنّه بهذا الرد يصير مصدّقاً للرسول في الباقي .

(ص ٢٠٧) وهذا مما يبين أن ما جاءت به الرسل هو الحق ، وأن الأدلة العقلية الصريحة توافق ما جاءت به الرسل ، وأن صريح المعقول ، لا يناقض صحيح المنقول ، وإنما يقع التناقض بين ما يدخل في السمع وليس منه ، وما يدخل في العقل وليس منه ، كالذين جعلوا من السمع أن الرب لم يزل معطلاً عن الكلام والفعل ، لا يتكلم بمشيئته ، ولا يفعل بمشيئته ، بل ولا يمكنه عندهم أنه لا يزال يتكلم بمشيئته ويفعل بمشيئته ،فجعل هؤلاء هذا قول الرسل، وليس هو قولهم . وجعل هؤلاء من المعقول أنه يمتنع دوام كونه قادراً على الكلام والفعل بمشيئته .

(ص ١١١) فاذا خلق في الشجرة « إني أنا الله رب العالمين»[1]ـ ولم يقم هو به كلام ـ كان ذلك كلاماً للشجرة ، فتكون هي القائلة !! والحوادث لا تحل به تعالى من غير مشيئة ولا قدرة ، بل يفعلها بمشيئته وقدرته ، واتصافه بها واجب لأنها صفات كمال . والذات الموصوفة بصفاتها ، القادرة على أفعالها ، مستلزمة لما يلزمها من الصفات ، قادرة على ما تشاؤه من الأفعال .

---

(١) سورة القصص ، الآية : ٣٠

نفي القول بخلق القرآن

(ص ١٢٣) إن الطريقة المعروفة التي سلكها الاشعري وأصحابه في مسألة القرآن هم ومن وافقهم على هذا الاصل من أصحاب أحمد وغيرهم كأبي الحسن التميمي ، والقاضي أبي يعلى (سنة ٤٥٨ هـ) وابن عقيل (سنة ٢٥٥ هـ) وأبي الحسن الزعفراني (سنة ٢٥٩ هـ) من أصحاب أحمد (سنة ٢٤١ هـ) وكأبي المعالي (سنة ٤٧٨ هـ) وأمثاله وأبي القاسم الرواسي ، وأبي سعيد المتولي (سنة ٤٧٨ هـ) وغيرهم من أصحاب الشافعي (سنة ٣٠٤ هـ) ؛ والقاضي أبي الوليد الباجي (سنة ٤٧٤ هـ) وأبي بكر الطرطوشي (سنة ٥٢٠ هـ) وأبي بكر بن العربي (سنة ٥٤٣ هـ) وغيرهم من أصحاب مالك (سنة ١٧٩ هـ) ، وكأبي منصور الماتريدي (سنة ٣٣٣ هـ) وميمون النسفي (سنة ٥٠٨ هـ) وغيرهما من أصحاب أبي حنيفة (سنة ١٥٠ هـ) ، أنهم قالوا : لو كان القرآن مخلوقاً للزم أن يخلقه إما في ذاته أو في محل غيره ، أو قائماً بنفسه ، لا في ذاته ولا في محل آخر، و (الأوّل) يستلزم أن يكون محلاً للحوادث ، و (الثاني) يقتضي أن يكون الكلام كلام المحل الذي خلق فيـــه فلا يكون ذلك الكلام كلام الله ، كسائر الصفات إذا خلقها في محل ، كالعلم والحياة والحركة واللون وغير ذلك. (والثالث) يقتضي أن تقوم الصفة بنفسها ، وهذا ممتنع . فهذه الطريقة هي عمدة هؤلاء في مسألة القرآن ؛ وقد سبقهم عبد العزيز المكي (سنة ٢٤٠ هـ) صاحب المحاورة المشهورة الى هذا التقسيم ، وقد يظن الظان أن كلامهم هو كلامه بعينه ، وانه كان يقول بقولهم ان الله لا يقوم بذاته ما يتعلق بقدرته ومشيئته ، وان قوله من جنس قول ابن كلاّب ؛ وليس الامر على ذلك ، فان عبد العزيز هذا ، له في الرد على الجهمية وغيرهم من الكلام ما لا يعرف فيه خروج عن مذهب السلف وأهل الحديث . وذكر طرفاً من هذه المناظرة التي جرت بحضور الخليفة المأمون بين

عبد العزيز الكناني المكي وبشر المريسي (سنة ٢١٨ هـ) الى أن قال عبد العزيز: وما كان قبل الخلق متقدماً ، فليس هو من الخلق في شيء ثم قال : فقد كسرت قول بِشر بالكتاب والسنة واللغة العربية ، والنظر والمعقول . ثم قال ابن تيمية ـ معلقاً على كلام عبد العزيز وبشر ـ : والمقصود هنا أن ما قام بذاته ، لا يسميه أحد منهم مخلوقاً ، سواء كان حادثاً أو قديماً ، وبهذا يظهر احتجاج عبد العزيز على بشر ، فان بِشراً من أئمة الجهمية نفاة الصفات ، وعنده : لم يقم بذات الله تعالى صفة ولا فعل ولا قدرة ولا كلام ولا إرادة ، بل ما ثمَّ عنده إلا الذات المجردة عن الصفات والمخلوقات المنفصلة عنها كما تقول بذلك الجهمية من المعتزلة وغيرهم ، فاحتج عليه عبد العزيز بحجتين عقليتين ، (إحداهما) أنه إذا كان كلام الله مخلوقاً ، ولم يخلقه في غيره ولا خلقه قائماً بنفسه ، لزم أن يكون مخلوقاً في نفس الله ، وهذا باطل . و (الثانية) أن المخلوقات المنفصلة عن الله خلقها الله بما ليس من المخلوقات ، إما القدرة كما أقر به بشر ، وإما فعله وأمره وإرادته كما قاله عبد العزيز ، وعلى التقديرين ثبت أنه كان قبل المخلوقات من الصفات ما ليس بمخلوق فبطل أصل قول بشر والجهمية أنه ليس لله صفة ، وأن كل ما سوى الذات المجردة فهو مخلوق ، وتبين أن الذات يقوم بها معان ليست مخلوقة ، وهذا حجة مثبتة الصفات للقائلين بأن القرآن كلام الله غير مخلوق على من نفى الصفات ، وقال بخلق القرآن .

قصور كثير من المصنفين في المقالات والمذاهب عن بلوغ الغاية

(ص ١٥٨) يوجد كثير من المتأخرين المصنفين في المقالات والكلام يذكرون ـ في أصل عظيم من أصول الاسلام ـ الأقوال التي يعرفونها ؛ وأما القول المأثور عن السلف والأئمة الذي يجمع الصحيح من كل قوم ، فلا يعرفونه ولا

يعرفون قائله ، فالشهرستاني صنف الملل والنحل وذكر فيها من مقالات الأمم ما شاء الله . والقول المعروف عن السلف والأئمة لم يعرفه ولم يذكره ، والقاضي أبو بكر ، وأبو المعالي ، والقاضي أبو يعلى ، وابن الزعفراني ، وأبو الحسين البصري ، ومحمد بن الهيضم ، ونحو هؤلاء من أعيان الفضلاء المصنفين ، تجد أحدهم يذكر في مسألة القرآن أو نحوها عدة أقوال للأئمة ويختار واحداً منها ، والقول الثابت عن السلف والأئمة كالامام أحمد ونحوه من الأئمة لا يذكره الواحد منهم ، مع أن عامة المنتسبين الى السنة من جميع الطوائف يقولون انهم متبعون للأئمة كمالك والشافعي وأحمد وابن المبارك (سنة ١٨١ ه) وحمَّاد بن زيد (سنة ١٧٩ ه) وغيرهم لا سيما الامام أحمد فانه بسبب المحنة المشهورة من الجهمية له ولغيره أظهر من السنة ورد من البدعة ما صار به إماماً لما بعده ، وقوله هو قول سائر الأمة ، فعامة المنتسبين الى السنة يدعون متابعته والاقتداء به ، سواء كانوا موافقين له في الفروع أو لا ، فان أصول الأئمة في أصول الدين متفقة ، ولهذا كلما اشتهر الرجل بالانتساب الى السنة كانت موافقته لاحمد أشد ، ولما كان الاشعري ونحوه أقرب الى السنة من طوائف من أهل الكلام ، كان انتسابه الى أحمد أكثر من غيره كما هو معروف في كتبه . . . . والعصمة إنما هي ثابتة لمجموع الامة ليست ثابتة لطائفة بعينها .

قول الحشوية المنتمين الى الظاهر

(ص ١٥٩) ذهب الحشوية المنتمون الى الظاهر الى أن كلام الله تعالى قديم أزلي ، ثم زعموا أنه حروف وأصوات ، وقطعوا بأن المسموع من أصوات القراء ونغماتهم عين كلام الله تعالى ؛ وأطلق الرعاع منهم القول بأن المسموع صوت الله تعالى عن قولهم . . . . ومعلوم أن هذا القول لا يقوله عاقل يتصور مايقول ، ولا نعرف هذا القول عن معروف بالعلم من المسلمين ، ولا رأينا في كتاب أحد

أن المداد الحادث انقلب قديماً ، ولا أن المداد الذي يكتب به القرآن قديم ، بل رأينا عامة المصنفين من أصحاب أحمد وغيرهم ينكرون هذا القول ، وينسبون ناقله عن بعضهم الى الكذب ، وأبو المعالي وأمثاله أجلُّ من أن يتعمدوا الكذب؛ لكن القول المحكي قد يسمع من قائل لم يضبطه ، وقد يقول القائل نفسه لم يخبر قولهم ، بل يذكر كلاماً مجملاً يتناول النقيضين .

ما جاءت به الكتب والرسل هو الحق

(ص ٢٠٧) وهذا مما يبين أن ما جاءت به الرسل هو الحق ، وأن الادلة العقلية الصريحة ، توافق ما جاءت به الرسل ، وأن صريح المعقول ، لا يناقض صحيح المنقول ، وإنما يدخل التناقض بين ما يدخل في السمع وليس منه ، وما يدخل في العقل وليس منه ، كالذين جعلوا من السمع أن الرب لم يزل معطلاً عن الكلام والفعل ، لا يتكلم بمشيئته ، ولا يفعل بمشيئته ، فجعل هؤلاء هذا قول الرسل ، وليس هو قولهم .

(ج ٣ ص ٨١) فالتوراة مملوءة من وصف الله بمثل ذلك (أي من صفات الكمال) وكذلك الانجيل ، وسائر نبوات الانبياء مثل الزبور ، ونبوة أشعياء وأرميا ، وأساطين الفلاسفة كانوا يقولون بذلك ، والسلف من الصحابة والتابعين وأهلُ الحديث متواتر عنهم ذلك .

علم مما تقدَّم أن الله تعالى كامل الصفات ، له الأسماء الحسنى ، ولا يكون عن الكامل في ذاته وصفاته إلاَّ الفعل المحكم ، لكن تلك الفِرَق جعلت قواعدها وأصولها محكمة ، وما أخبر به الرسول متشابهاً ، ثم أصَّلوا أصلاً في ردِّ هذا المتشابه الى المحكم ، وما أصَّلوه مخالف لصريح العقل وسليم الفطرة ، كما هو مخالف لما جاءت به الرسل عن الله .

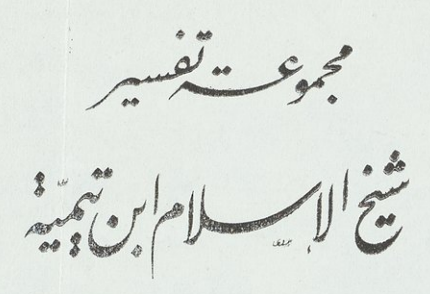
قال الامام ابن القيم : وقد كفانا شيخ الاسلام ابن تيمية هذا المقصد في عامّة كتبه ، لا سيما كتابه الذي وسمه « ببيـــان موافقة العقل الصريح للنقل الصحيح » فمزّق فيه شملهم كلّ ممزّق ، وكشف أسرارهم وهتك أستارهم ، فجزاه الله عن الاسلام وأهله أفضل الجزاء . وقال أيضاً :

وجملة أمرهم أنهم في المسلمين كالزغل في النقود ، يروج على أكثر الناس لعدم بصيرتهم بالنقد ، ويعرف حاله الناقدُ البصير من الناس ، وقليل ما هم اهـ .

أقول وخاتمة القول في هذا الباب أنّ كلام الله ورسوله ، وكلام أئمة السنّة والعلم ، هو أوضح تبياناً ، وأرسخ إيماناً ، وأوفى ميزاناً ، يتآخى فيه العقل والنقل ، والطبع والشرع ، والفطرة والدين ، وأنه هو الأسلم ، والأعـلم والأحكم ، وأنّ نفاة الأفعال والصفات ، يشبهونه سبحانه بالجمادات « سبحان ربك رب العزة عما يصفون »[1] .

---

(١) سورة الصافات ، الاية : ١٨٠ .



من ست سور : الأعلى ، الشمس ، الليل ، العلق ، البينة ، الكافرون
صححه وعلق عليه ، مع مقدمة بالانكليزية عبد الصمد شرف الدين . مطبعة « ق »
بمباي ، الهند

ليست هذه المجموعة المؤلفة من تفسير هذه السور الست الامام أحمد بن تيمية (البالغة ٤٨٠ صفحة عدا الفهارس) تفسيراً لها فحسب ، بل هي في الحقيقة تفسير لبعض سور القرآن ، ومناظرة لعلماء الكلام ، المؤولة لآيات الصفات ، والمعطلة لمانيها اللغوية والشرعية ، كالجهمية والمعتزلة والقدرية ، وتوفيق بين صحيح المنقول وصريح المعقول على أفضل الوجوه . وقد كملت هذه المجموعة بتعليقات الاستاذ المولع بدراسة كتب الشيخين ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية ، السيد عبد الصمد شرف الدين ، فقد بيّن بتعليقاته المبهم ، وفصّل المجمل ، وأوضح المشكل ، وملأ البياض ، بما نقله من كتبهما مفصولاً عن الأصل ، وبما أضافه من قوله طبقاً لما اقتضاه البحث ، وخرّج الأحاديث ، وترجم للأعلام ، وذكر ما اشتهروا به ، مع تاريخ وفياتهم .

وقد ظفر الاستاذ بهذه المجموعة في كتاب « الكواكب الدراري في

ترتيب مسند الامام أحمد على أبواب البخاري ، لابن عروة الدمشقي الحنبلي (المتوفى سنة ٨٣٧) المحفوظ بخزانة دار الكتب المصرية تحت رقم (٦٤٥) تفسير. وهذه المجموعة مما كتبه شيخ الاسلام في آخر عمره ، وهو منعزل عن الناس في خلوة السجن ، كما تراه في مقدمة السيد شرف الدين. وقد طبعها على أحدث ما بلغه فنّ الطباعة من إتقان ، وجعل في رؤوس الصحائف اليمنى أسماء السور المفسرة ، وفي اليسرى خلاصة ما تضمنته تلك الصحائف من مباحث ، وفي الشواهد القرآنية - وما أكثرها - أسماء سورها وأرقام آياتها ، وبين كل بضعة أسطر من الأصل ، عنوان للناشر بما اشتملت عليه ، وفي أول الكتاب فهرس عام لمباحث سوره المفسّرة ، وفي آخره فهرس مفصّل لأسماء الأعلام ، والفِرَق ، والأماكن ، والكتب ، مع الاشارة الى أرقام صحائفها مهما تكررت ، ويتلو هذا الفهرس جدول الخطأ والصواب. وختمه بمقدمة الكتاب باللغة الانكليزية.

ومن غرر مباحث الكتاب : صفة العلو ، ومسألة النزول ، والرد على دائرة المعارف الاسلامية ، وعلى ابن بطوطة (وقد ردّ عليهما من قبل كاتب هذه السطور في مجلة الرسالة المصرية ، ومجلة العالم الاسلامي البغدادية) ، قيام إبراهيم وموسى ومحمد بأصل الدين - التوحيد - حل مشكلات تفسير سورة التين. أقول : أما صفة العلو فقد دلت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية على أن الله تقدّست ذاته هو فوق سمواته ، التي هي مقر ملائكته ومهبط وحيه ، وأنه مستوٍ على عرشه ، وبائن من خلقه ، لا يحل فيهم ، ولا يمتزج بهم. ومن هنا يُعلم المراد من المعية في مثل قوله تعالى : « وهو معكم أينما كنتم »[1] ، « إنني معكما أسمع وأرى »[2] ، « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم »[3] ، « إن

(١) سورة الحديد ، الآية : ٤

(٢) سورة طـه ، الاية : ٤٦

(٣) سورة المجادلة ، الاية : ٧

الله مع الذين اتقوا»(٤) ، فليس حقيقة هذه المعية المخالطة والمجاورة ، بل هي منفية قطعاً ، وإنما هي معية العلم والقدرة والإحاطة ، ومعية النصر والتأييد والمعونة ، ومثل ذلك معنى القرب .

وأما وحدة الأديان ، وأخوة الرسل الكرام ، فقد بيّن أن المنسوخ الذي تنوعت فيه الشرائع قليل بالنسبة الى ما اتفقت عليه الكتب والرسل ، فان الذي اتفقت عليه هو الذي لا بد للخلق منه في كل زمان ومكان ، وهو الايمان بالله واليوم الآخر ، والعمل الصالح ، وعامة السور المكية كالأنعام والأعراف ، وآل حم ، وآل طس ، وآل الر ، هي من الأصول الكلية التي اتفقت عليها شرائع المرسلين ، كالأمر بعبادة الله وحده لا شريك له ، والصدق والعدل والاخلاص ، وتحريم الظلم والفواحش والشرك ، والقول على الله بلا علم .

رحم الله المؤلف ورضي عنه ، وجزى أفضل الجزاء الناشر ، وكلّ من عاونه في إبراز هذا الكتاب الجليل ، وقد ذكرهم في مقدمته ، وأثنى عليهم أطيب الثناء .

---

(٤) سورة النمل ، الآية : ١٢٨

بين ابن المطهر الحلي وابن تيمية

المدخل

إن السنة والشيعة هما أكبر مظهر للمسلمين اليوم، وإن بلغ أهلُ السنة أضعاف الشيعة عدداً، وإن أضر شيء في الامة الواحدة هو العصبية الموروثة والتفرق الذميم، «إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء»[1]

وقد كان ينبغي على كل من يدعي الحب والولاء للامام علي (عليه السلام) أن يأخذ بأدبه وهَدْيه، ويقف من محاربيه عند حدود أمره ونهيه، وها هي ذي أقواله وأعماله في «نهج البلاغة» وغيره.

لقد بايع علي للأئمة الثلاثة من قبله، وتنازل ولده الحسن عن الخلافة لمعاوية من بعده، وأصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين، طبقاً لما أخبر به جده الصادق الأمين، عليه وآله الصلاة والتسليم. في (نهج البلاغة) أن علياً سُئل عن الخوارج: أكفار هم؟ قال: من الكفر فرّوا! قيل أفمنافقون؟ قال: المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلاً، ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى، قيل فما هم؟ قال: قوم بغوا علينا فقاتلونا وقاتلناهم. وفي (نهج البلاغة)

(١) سورة الانعام، الآية ١٥٩

أيضاً أنه قال ـ وقد سمع قوماً من أصحابه يسبّون أهـــل الشام أيام حربهم بصفين ـ : إني لأ كره أن تكونوا سبّابين ، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم ، وذكرتم حالهم ، كان أصوب في القول وأبلغ في العذر .

قلت : ومعلوم من حال أهـل السنة أنهم يقصون ما جرى بين الصحابة (رضي الله عنهم) ويصفون أعمالهم ، ويذكرون حالهم ، ولكنهم يؤولون التشاجر بينهم تأدباً معهم واحتراماً لصحبتهم ، وحفظاً لكرامتهم ، ولحسن بلائهم في نشر الدعوة الاسلاميه . على أنه قـــد انقضت عصور الأمويين والعباسيين ، وأصحاب الجمل والنهروان وصفين ، وحسابنا وحسابهم على رب العالمين :

وليس بضائري ما قد أتوه إذا ما الله أصلح ما لديه

وقد كنت قرأت كتاب (أوائل المقالات) للشيخ المفيد (م ٤١٣ هـ) ومعه شرح عقائد شيخه ابن بابويه القمي المعروف بالصدوق (م ٣٨١ هـ) فرأيت فيها بعض ما في غيرهما ـ كالكافي والتهذيب والوافي ـ من الأحكام الصادرة : باللعن والتكفير والتخليد في النـــار ، لمن أورثوهم الأرض والديار !! قلت : لا شك أن هذه الكتب تورث قراءها وغَراً وحقداً ، وعداءً وبغضاً ، وتنطق ألسنتهم بأفحش القول وأوحشه ، لرجال الصدر الأول فمن دونهم ، وفي مقدمتهم الخلفاء الثلاثة ، وبعض أمهات المؤمنين ، ومن معهم من المهاجرين والأنصار ، ممن رضي الله عنهم ورضوا عنه بنص القرآن ، ولم نر انتقاداً ولا اعتراضاً على الكتابين الأولين ممن صححوها ، وهم ثلة من أشهر مجتهدي الشيعة في عصرنا . بل رأينا حركة الطبع والنشر قد قويت في العراق وإيران والشام ، وصدرت منها كتب كثيرة ، في هذه الاعوام الأخيرة ، وكلها ردود على السنيين ، وزراية على أهل المفاخر والمآثر في الاسلام ، وهي لا تعدو أمّهات المسائل التاريخية التي وقعت في الصدر الأول والأحداث التي تلتها .

ولما كانت هذه الوقائع قد أحاط بها خبرا شيخ الشيعة الامامية في عصره ابن المطهر الحلي (م ٧٢٦) في مؤلفه الذي سماه (منهاج الكرامة في معرفة الامامة) وأجابه عنها واحدة فواحدة إمام السنة أحمد بن تيمية (م ٧٢٨) في ردّه (منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية) في أربعة أجزاء ، جاء الحافظ الذهبي (م ٧٤٨) واختصره بكتاب سماه (المنتقى) وقد حققه وعلق حواشيه ووقف على طبعه الكاتب الكبير السيد محب الدين الخطيب ، (طبع سنة ١٣٧٤ هـ) ، وقد أهديتْ منه نسخ الى المجمع العلمي بدمشق ، ولبعض الفضلاء ، والمهدي هو الأستاذ السلفي الشهير الشيخ محمد نصيف عين أعيان الحجاز ، كما أهدي الى المجمع العلمي وبعض أعضائه من كتب الشيعة أيضاً ، ومنهم كاتب هذه السطور ، وقد وصفنا بعضها في باب « التعريف والنقد » من مجلة المجمع .

ونصف الآن كتاب (المنتقى) الذي يقع في مجلد ضخم يقرب من ستمائة صفحة بالقطع المتوسط ، وهو يشتمل على فصول كثيرة في إمامة الخلفاء الراشدين ، وما ظهر على أيديهم من الخير العظيم . ومجمل القول : إن ابن المطهّر ينفي الخصائص ، ويثبت النقائص ، للخلفاء الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان (رضي الله عنهم) ويتعقبه ابن تيمية فيثبت العكس ، وهما إماما السنة والشيعة في عصرهما ، وقد كتب من جاء بعدهما في موضوع الامامة الكبرى ، ولكن الحملة قد اشتدت في هذا الزمن العصيب على السنّيين ، وإن اختلفت كتب الشيعة وردودهم في الأسلوب قوة وضعفا ، وقسوة ولينا .

ولما كانت مجلة مجمعنا العلمي تعنى بنشر حقائق التاريخ ، مصفاة من الشوائب ، بعيدة عن عصبية المذاهب ، مسجلة ما يجب تسجيله من الوقائع والحوادث ،

لا سيما ما كان بأقلام الأعلام - رأينا أن نثبت فيها شذرات من هـذا الحوار ، موردة بغاية الاختصار ، مغنية عن قراءة هذه الكتب التي ظهرت وستظهر في أمر الخلافة العظمى ، وما جرى بين الصحابة الكرام في شأنهـــا ، وقد افتتن الناس بها ، وتعادَوا من أجلها هـذه القرون الطويلة ، ولتكن أجوبة الامام ابن تيمية التي أوجزناها وأجملناها هنا بالكلم الوجيز كما ستراها - جواباً من كل سنيّ ، وجعلنا كلَّ ما نقلناه عن الأستاذ (الخطيب) بين قوسين . ونبـدأ القول بإيراد فصل عقده كتاب (المنتقى) في تقديم الخلفـاء الأربعة بترتيبهم الزمني ، سلك فيه الامام ابن تيمية طريقة المعقول ، الموافقة لصـريح المنقول قال [1] (رحمه الله تعالى) :

(فصل) وهنا طريق يمكن سلوكها لمن له معرفة بالأخبار ، فان كثيراً من العلمـاء يتعذر عليهم التمييز بين الصدق والكذب من جهة الإسنـاد ، وإنما ينهض بذلك جهابذة الحفاظ : نقدّر أن الأخبار المتنازع فيها لم تكن ، فنرجع الى ما هو معلوم بالتواتر ، أو بالعقل والعادات ، أو ما دلت عليه النصوص المتفق عليها فنقول : من المتواتر أن أبا بكر لم يطلب الخلافة برغبة ولا برهبة ، فلا بذل فيها مالاً ، ولا شهر عليها سيفاً ، ولا كانت له عشيرة ضخمة ولا عدد من الموالي تقوم بنصـره كما جرت عادة طلاب الملك ، بل ولا قال : بايعوني ، وانما أشار ببيعة عمر أو ببيعة أبي عبيدة ، ثم من تخلّف عن مبايعته لم يؤذه ولا أكرهه عليها كسعد بن عبادة . ثم الذين بايعوه طائعين ، هم الذين بايعوا رسول الله (ﷺ) تحت الشجرة ، الذين رضي الله عنهم ، فقاتل بهم المرتدين ، وفارس والروم ، وثبّت بهم الاسلام وأهله ، ولا أكل منهـا ولا لبس إلاّ

(١) « ص ٤٨٢ » من المنتقى .

كعادته وعيشه ، فلما جاءه اليقين ، خرج منها أزهد مما دخل فيها ، ولم يستأثر فيها بشيء عنهم ، ولا آثر بها قرابته ، بل نظر الى أفضلهم في نفسه فولّاه عليهم (وهو عمر رضي الله عنه) فأطاعوه كلّهم ففتح الأمصار ، وقهر الكفار ، وأذلّ أهل النفاق ، وبسط العدل ، ووضع الديوان والعطاء ، لازماً لعيش من قبله في مأكله ومشربه وملبسه ، حتى خرج منها شهيداً لم يتلوث لهم بمال ، ولا ولّى أحداً من أقاربه ولاية ، هذا أمر يعرفه من يعرف وينصف . ثم بايعوا عثمان كلهم طوعاً منهم ، فسار ، وبَنى على أمر قد استقر قبله ، بسكينة وحلم ، وهدى ورحمة ، وكرم ولين ، لكن لم تكن فيه قوة عمر ، ولا سياسته التي بهرت العقول ، ولا كمال عدله الذي ملأ الوجود ، ولا فرط زهده الذي ما ينكره إلّا جاهل . فطمع فيه الناس بعض الطمع ، وتوسّعوا في الدنيا ، وكثرت عليهم الأموال ، ودخل - بسبب توليته أقاربه - عليه الداخل ، وأنكرت منه أمور ما اعتادها الناس قبله ، وتولّد من رغبة بعض الناس في الدنيا - وضعف خوفهم من الله تعالى ، ومنه ومن ضعفه هو ، بالنسبة الى كمال الذين قبله ، ومما حصل من أقاربه في الولاية والمال ، - ما استحكم به الشرّ ، وحرك الفتنة ، حتى قتل مظلوماً ، وذبحوه صبراً .

فتولّى علي رضي الله عنه والفتنة قائمة ، واتّهم بالتخلي عن عثمان حتى قُتل ، وبعضهم اتهمه بدمه ، والله يعلم براءته من دمه : ثبت عنه أنه لم يرض بقتله ولا أعان عليه ، فلم تصفُ قلوب كثير منهم ، ولا أمكنه هو قهرهم حتى يطيعوه ، ولا اقتضى رأيه الكفّ عن القتال حتى ينظر ما يؤول اليه أمره كما أشار عليه ولده الحسن .

فظنّ أن الطاعة تحصل ، والأمّة تجتمع بالقتال ، فما زاد الأمر إلا شدة

وافتراقاً ، حتى خرج عليه من جنده ألوف ومرقوا ، وكفّروه وقاتلوه قاتلهم الله ، حتى كان في آخر أمره يطلب هو الكف عن قتال من لم يطعه ، فكان آخر الخلفاء الراشدين الذين ولايتهم خلافة النبوة .

ثم آل الأمر الى معاوية أول الملوك كما قال عليه الصلاة والسلام « الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تكون ملكاً » وسيرة معاوية من أجود سِيَر الملوك بالنسبة » اه .

هذه فلسفة عقلية للامام ابن تيمية في شأن الخلافة الاسلامية ، وتولية الخلفاء الراشدين الأربعة ، وقد جاءت طبيعية كما ترى . ومن هنا نبتدىء بذكر نماذج من الحوار الذي دار بين ابن المطهر وابن تيمية ، جاعلاً إياه على طريق السؤال والجواب ، مجرداً عن التنابز بالألقاب ، لتتجلى شمس الحقيقة للناظرين ، لا يغشاها حجاب ولا سحاب ، ونرمز للأول بحرف الميم ، وللثاني بحرف التاء .

(ابن المطهر) : « إن مذهب الامامية واجب الاتباع . . . أخذوا دينهم عن المعصومين ، وغيرهم اختلفوا ، وتعددت آراؤهم وأهواؤهم ، فمنهم من طلب الأمر لنفسه بغير حق ، وتابعه اكثر الناس طلباً للدنيا » .

(ابن تيمية) : هذا الصنف هو أشرف الأمـــة ، وقد قال سبحانه في شأنهم : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض »[1] الآية فوعـدهم الاستخلاف ، وأخبر برضاه عنهم ، وبأنهم متقون ، وبأنه أنزل السكينة عليهم . وهذه النعوت منطبقة على الصحابة الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان ، فانه إذ ذاك الزمان حصل لهم الاستخلاف ، وتمكين الدين والأمن بعد الخوف ، الى أن قهروا فارس والروم ، وافتتحوا الشام والعراق ، ومصر والمغرب

---

(١) سورة النور ، الآية : ٥٥

وخراسان وأذربيجان وغير ذلك . فلما قتل عثمان وحصلت الفتنة لم يفتحوا شيئاً ، بل طمع فيهم الروم وغيرهم . . وأريقت الدماء ، فأين ما بعد قتله مما قبله ؟؟

(م) فاذا قلت : إن أبا بكر ومبايعيه طلبوا الدنيا والرياسة .

(ت) (فالجواب أن أبا بكر) : «بويع باختيارهم بلا سيف ولا عصا ، واستوسق له الامر فلم يولّ أحداً من أقاربه ، ولا خلف لورثته مالا ، وأنفق مالاً كثيراً في سبيل الله ، وأوصى الى بيت المال ما كان عنده ، حتى قيل : يرحمك الله أبا بكر لقد أتعبت الامراء بعدك ، وما قتل مُسلم على إمارته ، بل قاتل بالمسلمين المرتدين والكفار ، فلما احتضر استخلف على الأمة القويّ الامين العبقري (عمر) لا لقرابة ولا لنسابة ولا لدنيا ، بل اجتهد للمسلمين ، فحمدت فراسته وشكر نظره ، بالذي افتتح الأمصار ، ونصب الديوان وملأ بيت المال ، وعم الناس بالعدل ، مع ملازمته لهدي صاحبه وخشونة عيشه ،وعدم توليته أقاربه ، ثم ختم الله له بالشهادة » .

(م) نقلك عن أهل السنة : أن العبد لا تأثير له في الكفر والمعاصي :

(ت) نقل باطل ، بل جمهور من أثبت القدَر يقول : إن العبد فاعل لفعله حقيقة ، وان له قدرة واستطاعة ، ولا ينكرون تأثير الأسباب الطبيعية ، بل يقرون بما دل عليه الشرع والعقل من أن الله يخلق السحاب بالرياح ، وينزل الماء بالسحاب ، وينبت النبات بالماء ، والله خالق السبب والمسبب .

(القول الثاني) ان الظلم مقدور لله منزه عنه كتعذيب الانسان بذنب غيره ، كما قال تعالى : « ومن يعملْ من الصالحات وهو مؤمن فلا يخافُ ظلماً ولا هضما »[1] وهؤلاء يقولون : الفرق بين تعذيب الانسان على فعله الاختياري وغير

---

(١) سورة طه ، الآية : ١١١

فعله الاختياري مستقر في فطر العقول ، ويقولون : الاحتجاج بالقـــدر على الذنوب مما يعلم بطلانه بالعقل، فان الظالم لغيره لو احتج بالقدر لاحتج ظالمه بالقدر أيضاً فالاحتجاج على فعل المعاصي بالقدر باطل باتفاق الملل والعقلاء ، وانما يحتج به من اتبع هواه كما قيل : أنت عند الطاعة قدري وعند المعصية جبري ، أي مذهب وافق هواك تمذهبت به ، ولو كان القدر حجة لفاعل الفواحش لم يحسن أن يلوم أحد أحدا ، ولا أن يعاقب أحد أحدا.

(م) وذهب من عدا الامامية والاسماعيلية الى أن الأنبياء والأئمة غير معصومين ، فجوزوا بعثة من يجوز عليه الكذب والسهو والسرقة .

(ت) ما ذكرته عن الجمهور في تجويز ذلك على الأنبياء (باطـل) فانهم متفقون على عصمة الأنبياء عليهم السلام في تبليغ الرسالة ، وطاعتهم واجبـــة إلا عند الخوارج ، والجمهور يجوزون عليهم الصغائر وانهم لا يقرون عليها . وأما عصمة الأئمة فنعم كما قال ، لم يقل بها إلا من ذكر ، وناهيك بقول عري عن الحجة ، قالوا : إن الله لم يخل العالم من أئمة معصومين لما في ذلك من المصلحة واللطف ، قلنا : فهذا الغائب المنتظر المفقود لم يحصل به شيء من المصلحة واللطف سواء كان ميتاً كما نقول ، أو حياً كما تزعمه الاماميـــة . . ثم لم يحصل بعده أحد من الاثني عشر له سلطان (إلا علي كرم الله وجهه) . ومن المعلوم بالضرورة أن حال اللطف والمصلحة التي كان المؤمنون فيها زمن الخلفاء الثلاثة أعظم مما كان في زمانه من الفرقة والفتنة والقتال ، والله قد أمرنا بالرد عند التنازع الى الله والرسول ، ولو كان للناس معصوم غير الرسول لوجه الرد اليه .

(م) وهم يرون القول بالقياس والرأي ، فأدخلوا في دين الله ما ليس منه ،

وحرّفوا أحكام الشريعة ، وأحدثوا مذاهب أربعة لم تكن في زمن النبي (ﷺ) وأهملوا أقاويل الصحابة .

(ت) فالجواب أن هذا وارد عليكم ، فالزيدية تقول بالقياس ، ثم قوله : « أدخلوا في دين الله ما ليس منه » فهذا ليس في طائفة أكثر (من الامامية) .. حيث قالوا « مرج البحرين »[1] علي وفاطمة « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان »[2] الحسن والحسين « في امام مبين »[3] علي « وآل عمران على العالمين »[4] آل أبي طالب وسموا أبا طالب عمران، « والشجرة الملعونة »[5] بني أمية « أن تذبحوا بقرة »[6] عائشة ، « لئن أشركت ليحبطن عملك »[7] لئن أشركت بين أبي بكر وعمر ، ونحو ذلك مما وجدته في كتبهم ، ومن ثمّ دخلت الاسماعيلية في تأويلات الواجبات والمحرّمات .

(م) وأحدثوا مذاهب أربعة ، وأهملوا أقاويل الصحابة !

(ت) متى كانت مخالفة الصحابة شيئاً منكراً عندكم ؟ ومن الذي يخالف إجماع الصحابة نحن أو أنتم ؟ ومن الذي كفّرهم وضلّلهم ؟.. إنه لم يكن في العترة النبوية — بني هاشم — على عهد رسول الله (ﷺ) وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي (رضي الله عنهم) من يقول بامامة اثني عشر ، ولا بعصمة أحد بعد النبي (ﷺ) ولا بكفر الخلفاء الثلاثة ، بل ولا من يطعن في إمامتهم .

---

(١) سورة الرحمن ، الآية : ١٩
(٢) سورة الرحمن ، الاية : ٢٢
(٣) سورة يس ، الاية : ١٢
(٤) سورة آل عمران ، الاية : ٣٣
(٥) سورة الاسراء ، الاية : ٦٠
(٦) سورة البقرة ، الاية : ٦٧
(٧) سورة الزمر ، الاية : ٦٥

وأما المذاهب فان الأربعة لم يكونوا في وقت واحد . ولا كان فيهم من يقلد الآخر ، ولا من أمرَ الناس باتباعه ، بل كان كل منهم يدعو الى متابعة الكتاب والسنّة ، ويردّ على صاحبه ، وان قلت ان الناس اتبعوا الأربعة فهذا أمر اتفاقي . والأربعة لم يخترعوا علماً لم يكن .. ثم لم يقل أهل السنّة إن إجماع الأربعة حجة معصومة ، ولا أن الحق منحصر في قولهم ، وأن ما خرج عنه باطل ... ولا شك أن القياس فيه فاسد ، وليس يوجب بطلان جميعه ، كما أن وجود الموضوعات في المرويات لا يوجب بطلان جميع الحديث .

(لشيخ الاسلام رسالة في بيان القياس الصحيح والقياس الفاسد ، ولتلميذه الامام شمس الدين بن القيم تحقيق واسع في ذلك ، وسبق اننا جمعنها في كتاب عنوانه « القياس في الشرع الاسلامي » (الخطيب)

(م) ثم ذكر (أي ابن المطهر) حديث ابن عمر : « يخرج في آخر الزمان رجل من ولدي ... الحديث » .

(ت) قلنا : ذا حجة عليكم ، فان لفظه « يواطىء اسمه اسمي ، واسم أبيه اسم أبي » يعني اسمه (محمد بن عبد الله) لا (محمد بن الحسن) . ثم قد رُوي عن علي (رضي الله عنه) أنه من ذرية الحسن ، لا الحسين .

(م) فهؤلاء الأئمة المعصومون الذين بلغوا الغاية في الكمال .

(ت) إن دعوى العصمة في هؤلاء لم يذكر عليها حجةً إلاّ ما ادعاه من أنه يجب على الله أن يجعل للناس إماماً معصوماً ، ليكون لطفاً ومصلحة في التكليف . وقد تبين فساد هذه الحجة من وجوه أدناها أن هذا ــ أي اللطف والمصلحة ــ مفقود لا موجود ، فانه لم يوجد إمـــام معصوم حصل به لطف ولا مصلحة ، ولو لم يكن في الدليل على انتفاء ذلك إلا المنتظر الذي قد علم بصريح العقل أنه

لم ينتفع به أحد لا في دين ولا دنيا ، ولا حصل لاحد من المكلفين به مصلحة ولا لطف ، لكان هذا دليلاً على بطلان قولهم فكيف مع كثرة الدلائل على ذلك .

(م) لم يتخذوا ما اتخذ غيرهم من الائمة المشتغلين بالملك والمعاصي .

(ت) كلام باطل ، فان علماء أهل السنة المعروفين بالعلم عند أهل السنة متفقون على أنه لا يُقتدى بأحد في معصية الله ، ولا يتخذ إماماً في ذلك ، وان أراد أن أهل السنة يستعينون بهؤلاء الملوك فيما يحتاج اليه في طاعة الله ، ويعاونونهم على ما يفعلون من طاعة الله ، فيقال له : ان كان اتخاذهم أئمة بهـذا الاعتبار محذوراً ، (فالإمامية) أدخل منهم في ذلك [والنصير الطوسي شيخ المؤلف مثل واضح على استعانة علمائهم بالملوك الكفار والفجار . وإعانتهم والعمل في خدمتهم . وهو المسؤول مع عدو الله ابن العلقمي ومستشاره ابن أبي الحديد ، عن الذبح العام الرهيب الذي ارتكبه الوثني هلاكو في أمة محمد (ﷺ) سنة ٦٥٥ عند استيلائه على عاصمة الاسلام بغداد بخيانة ابن العلقمي ومستشاره ، وتحريض هذا الفيلسوف] .

(م) ومنع أبو بكر فاطمة إرثها ، والتجأ الى رواية انفرد بها ، وكان هو الغريم لها ، لأن الصدقة تحل له ؟ لأن النبي (ﷺ) قال : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة » على ما رووه عنه .

(ت) بل رواه - أي هذا الحديث - عن النبي (ﷺ) أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعيد وعبد الرحمن بن عوف والعباس ، وأزواج النبي (ﷺ) وأبو هريرة رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين .

وقوله : كان الغريم لها : إن أبا بكر لم يدع التركة لنفسه ، وإنما هي صدقة لمستحقها . وأيضاً فتيقن الصحابة ، وأولهم علي رضي الله عنه أن النبي (ﷺ)

لا يورث ، ولهذا لما ولي علي الخلافة لم يقسم تركة النبي (ﷺ) ولا غيّرها عن مصرفها ، وعموم آية الميراث قد خُص منه هذا ، وأنه لا يرث الكافر ، ولا القاتل عمداً ، ولا العبد وغير ذلك . ثم ان أبا بكر وعمر (رضي الله عنهما) قد أعطيا علياً وبنيه (رضي الله عنهم) من المال أضعاف ما خلفه النبي (ﷺ) ، وما خلفه النبي (ﷺ) فقد سلمه عمر الى علي والعباس (رضي الله عنهم) يليانه ويفعلان فيه ما كان النبي (ﷺ) يفعله ، وهذا مما ينفي التهمة عن أبي بكر وعمر .

[لو كان إرثاً لما كان منحصراً بفاطمة ، بل هو إرث زوجاته أمهات المؤمنين أيضاً ، فالذي وقع لفاطمة من أمر الإرث المزعوم وقع مثله لعائشة وحفصة وسائر أمهات المؤمنين ، ووقع مثله لعمه العباس . . . ومع ذلك فان ريع فدك وخمس خيبر أبيح لآل البيت يأكلون منه حاجتهم ، كما كانت الحال في حياته (ﷺ) والباقي صرف حيث كان يصرف النبي (ﷺ) مازاد عن حاجته منه] .

(م) وأجمعوا على قتل عثمان !

(ت) إن الجمهور لم يأمروا بقتله ، ولا رضوه ، ولم يكن أكثر المسلمين بالمدينة ، بل كانوا بالأمصار ـ من بلد المغرب الى خراسان ـ ولم يدخل خيار المسلمين في ذلك ، وانما قتله طائفة من المفسدين في الأرض ، من أوباش القبائل ورؤوس الشر . وعن علي قال : اللهم العن قتلة عثمان في البر والبحر والسهل والجبل ، غاية ما يقال : انهم لم ينصروه ، وفتروا عن إعانته بما رأوه ، وما ظنوا أن الأمر يبلغ الى قتله .

ومن المعلوم أن المسلمين أجمعوا على بيعة عثمان ، وما أجمعوا على قتلة ، فهلا

كان الاجماع على بيعته حقاً لتيقن الاجماع عليها ؟ ؟ . . . إن عثمان من أعيان السابقين الأولين من المهاجرين ، من طبقة عليٍّ وطلحة والزبير ، وهو خليفة للمسلمين أجمعوا على بيعته ، بل لم يشهر في الأمة سيفاً ولا قتل على ولايته أحداً [ولما جاء البغاة المدينة للبغي عليه ، كانت جيوش عثمان ، ورجال الكفاح من الصحابة كلهم في ميادين القتال في الغرب والشرق الى أعمال آسيا التي يحكمها السوفييت الروسيون الآن [1]] .

(م) إن النبي (صلى الله عليه وسلم) لعن معاوية الطليق ابن الطليق ، وقال : إذا رأيتموه على منبري فاقتلوه .

(ت) هذا الحديث ليس في شيء من كتب الاسلام ، وهو عند الحفاظ كذب ، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات . [وقد رآه الحسين وغيره من الصحابة على المنبر النبوي ، وصلّوا كلهم وراءه ، لأنه كان إمامهم ، وخليفة رسول الله فيهم] . وأما قولك الطليق ابن الطليق ، فما هذا بصفة ذمٍّ ، فان الطلقاء غالبهم حَسُنَ إسلامهم ، كالحارث بن هشام ، وابن أخيه عكرمة ، وسهيل ابن عمرو ، وصفوان بن أمية ويزيد بن أبي سفيان ، وحكيم بن حزام وأمثالهم ، وكانوا من خيار المسلمين . ومعاوية ممن حسن إسلامه ، وولاه عمر بعد أخيه يزيد ، ولم يكن عمر والله ممن يحابي ، ولا تأخذه في الله لومة لائم .

ثم إن معاوية بقي على دمشق وغيرها عشرين سنة أميراً وعشرين سنة

---

(١) دخل الروس على أيدي الصحابة الكرام في دين الله أفواجاً . وقد لبى مجمعنا العلمي دعوة المجمع الموسكوي سنة ١٣٧٤ ﻫ = ١٩٥٤ م : واجتمعت أنا هناك باخواني المسلمين ، وصليت الجمعة في جوامع موسكو وطاشقند ، وزرنا قثم ابن العباس « رضي الله عنهما » في سمرقند وشاهدنا جامع « لينين كراد » الذي بنوه بعد الانقلاب الاخير في عاصمة الروس القديمة « ويأبى الله إلا أن يتم نوره » .

خليفة ؛ ورعيته يحبونه لاحسانه وحسن سياسته وتأليفه لقلوبهم .

(م) وقاتل علياً ، وعلي عندهم رابع الخلفاء ، إمام حق ، وكل مَن قاتل إمام حق ، فهو باغ ظالم .

(ت) قلنا نعم ، والباغي قد يكون متأولاً معتقداً أنه على حق ، وقد يكون بغيه مركباً من تأويل وشهوة وشبهة ، وهو الغالب ، وعلى كل تقدير فهذا لا يرد ، وإنا لا ننزه هذا الرجل ولا من هو أفضل منه عن الذنوب ، والحكاية مشهورة عن المسور بن مخرمة أنه خلا بمعاوية ، فطلب منه معاوية أن يخبره بما ينقمه عليه ، فذكر المسور أموراً ، فقال (أي معاوية) يا مسور ألك سيئات ؟ قال نعم . قال : أترجو أن يغفرها الله ؟ قال نعم ، قال : فما جعلك أرجى لرحمة الله مني ؟ وإني مع ذلك والله — ما خيّرت بين الله وبين سواه إلا اخترت الله على ما سواه ، ووالله لَما أليه من الجهاد ، وإقامة الحدود ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أفضل من عملك ، وأنا على دين يقبل الله من أهله الحسنات ، ويتجاوز لهم عن السيئات » .

ثم أهل السنة تقول : الامام الحق ليس معصوماً ، ولا يجب على الانسان أن يقاتل معه كل من خرج عن طاعته . ولا أن يطيعه الانسان فيما يعلم أنه معصية ، وأن يتركه أولى ، وعلى هذا ترك جماعة من الصحابة القتال مع علي لأهل الشام .

(م) إن معاوية قتل جمعاً كثيراً من خيار الصحابة .

(ت) الذين قُتلوا من الطائفتين ، قتل هؤلاء من هؤلاء ، وهؤلاء من هؤلاء . وأكثر الذين كانوا يختارون القتال من الطائفتين لم يكونوا يطيعون علياً ولا معاوية . وكان علي ومعاوية رضي الله عنهما أطلب لكف الدماء

من أكثر المقتتلين ، لكن غُلبا فيما وقع . والفتنة إذا ثارت عجز الحكماء عن اطفاء نارها .

(م) وتمادى بعضهم في التعصب حتى اعتقد إمامة يزيد ، مع ماصدر عنه من قتل الحسين ، وسبي نسائه في البلاد على الجمال بغير قتب ، وزين العابدين مغلول .

(ت) أما يزيد فلم يأمر بقتل الحسين ، باتفاق أهل النقل ، ولكن كتب الى ابن زياد أن يمنعه عن ولاية العراق ، ولما أراد الحسين (رضي الله عنه) أن يخرج الى أهل العراق – لما كاتبوه كتباً كثيرة – أشار عليه أفاضل أهل العلم والدين كابن عمر ، وابن عباس أن لا يخرج ، وغلب على ظنهم أنه يقتل ، حتى أن بعضهم قال : أستودعك الله من قتيل ، وقال بعضهم : لولا الشناعة لأمسكتك ، ومنعتك من الخروج . وهم بذلك قاصدون نصيحته ، طالبون لمصلحته ومصلحة المسلمين ، فتبين أن الأمر على ما قاله أولئك ، إذ لم يكن في الخروج مصلحة ، لا في دين ولا في دنيا ، بل تمكن أولئك الظلمة الطغاة من سبط رسول الله (ﷺ) حتى قتلوه مظلوماً شهيداً . (ثم) إن عنيت باعتقاد إمامة يزيد أنه كان ملك وقته ، وصاحب السيف كأمثاله من المروانية والعباسية ، فهذا أمر متيقن ، وحكم يزيد على حوزة الاسلام سوى مكة ، فانه غلب عليها ابن الزبير ، وامتنع عن بيعه يزيد ، ولم يدعُ الى نفسه حتى بلغه موت يزيد ، وهذا معنى كونه إماماً ، وخليفة وسلطانا ، وأما كونه بَرّاً أو فاجراً ، مطيعاً أو عاصياً ، فذاك أمر آخر ، فأهل السنة اذا اعتقدوا إمامة الواحد من هؤلاء : يزيد أو عبد الملك أو المنصور أو غيرهم ، كان بهذا الاعتبار وكذلك كونه عادلاً في جميع أموره مطيعاً في جميع أفعاله ليس هذا اعتقاد أحد من المسلمين ، وكذلك وجوب طاعته في كل ما يأمر به ، وان كان معصية لله ليس هو اعتقاد

أحد من المسلمين ، ولكن مذهب أهل السنة والجماعة أن هؤلاء يشاركون فيما يحتاج اليهم فيه من طاعة الله .

وكان قتل الحسين (عليه السلام) مما أوجب الفتن ، كما كان قتل عثمان (رضي الله عنه) مما أوجب الفتن ، وهذا كله مما يبين أن ما أمر به النبي (ﷺ) من الصبر على جور الأئمة وترك قتالهم والخروج عليهم هو أصلح الأمور للعباد في المعاش والمعاد ، وأن مَن خالف ذلك متعمداً أو مخطئاً لم يحصل بفعله صلاح بل فساد ؛ ولهذا أثنى النبي (ﷺ) على الحسن بقوله : (إن ابني هذا سيد ، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين) ولم يثن على أحد لا بقتال في فتنة ، ولا بخروج على أئمة ، ولا نزع يد من طاعة ، ولا بمفارقة الجماعة .

وقد ثبت في البخاري من حديث ابن عمر عن النبي (ﷺ) : « أول جيش يغزون القسطنطينية مغفور لهم » فأول من غزا القسطنطينية جيش بعثهم معاوية وعليهم ابنه يزيد ، وفيهم من سادات الصحابة أبو أيوب الأنصاري ، فحاصروها .

(م) وأما قوله (أي ابن المطهر) « السبي والحمل على جمال بلا أقتاب » .

(ت) (فالجواب) : ما استحلت أمة محمد (ﷺ) سبي هاشمية ، وانما قاتلوا الحسين خوفاً منه ، ومن أن يزيل عنهم الملك . فلما استشهد فرغ الأمر ، وبعث بآله الى المدينة ، ولا ريب أن قتل الحسين من أعظم الذنوب ، وفاعله والراضي به مستحق للعقاب . لكن ليس قتله بأعظم من قتل أبيه ، وقتل زوج أخته عمر ، وقتل زوج خالته عثمان .

(م) ومنها (أي من فضائل علي كرّم الله وجهه) ما رواه أحمد بن حنبل أن أنساً قال لسلمان : سَلِ النبي (ﷺ) مَن وصيّه ؟ فسأله ، فقال : «يا سلمان من كان وصيّ موسى» ؟ قال : يوشع ، قال : «فان وصيي ووارثي علي» .

(ت) هذا الحديث موضوع باتفاق أهل المعرفة بالحديث ، ليس هو في مسند الامام أحمد بن حنبل . وأحمد قد صنَّف كتاباً في فضائل الصحابة ، ذكر فيه فضل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وجماعة من الصحابة ، وذكر فيه ما روي في ذلك من صحيح وضعيف للتعريف بذلك .

[نقل المامقاني في كتابهم تنقيح المقال (٢ : ١٨٤) عن محمد بن عمر الكشي ـ رأس علمائهم في الجرح والتعديل ، وأول من فتح لهم باب التأليف فيه ـ ما نصه : « وذكر أهل العلم أن عبد الله بن سبأ كان يهودياً فأسلم ، ووالى علياً ؛ وكان يقول ـ وهو على يهوديته ـ في يوشع بن نون (وصي موسى) فقال في إسلامه في علي مثل ذلك » فهذا نص عنهم صريح صحيح بأن مخترع لقب (الوصي) لعلي هو عدو الله بن سبأ . ومادام خبر أنس عن سلمان مكذوباً من أساسة كما سترى ، فان الخبر اليقين هو الذي نقله المامقاني عن الكشي عن علمائهم أن صاحب الحق في هذا الاختراع هو ابن سبأ اليهودي .

وبذلك برأ الله نبيه من هذه التهمة كما برأ صاحبيه أنساً وسلمان ، بل برأ الله آخر رسالاته من أن توصم بهذا الاحتكار الذي تكون فيه الامة يتيمة مسلوبة التصرف ، تحت أوصياء من البشر ، آخرهم لم يلد ولم يولد ، وهي . . من بعدُ تائهة ضائعة راسفة في قيودها بين الأمم ، بينما رسالة الاسلام جاءت لتحرير الانسانية كلها ، وإطلاق العقول في الأخذ عن ينبوع هذه الهداية العظمى بالغة راشدة ليس عليها قيّم ولا وصي إلا هذا الشرع العالي القويم] .

(م) فان قيل (أي إن قال الشيعة) : فأنتم ـ في هذا المقام ـ تسبون الرا . . وتذمونهم وتذكرون عيوبهم .

(ت) قيل (أي يقول السنيون) : ذكرُ الأنواع المذمومة غيرُ ذكر الاشخاص المعنيَّة . . . وهم يستعينون بالكفار على المسلمين ، كما جرى لجنكز

خان ملك الترك الكفار ، فانهم أعانوه على المسلمين . وإما إعانتهم لهولاكو ابن ابنه لمَّا جاء الى خراسان والعراق والشام ، فهذا أظهر وأشهر من أن يخفى على أحد . . . . . ولم يُرَ في الاسلام ملحمة مثل ملحمة الترك الكفَّار المسمَّين بالتتر ، وقتلوا الهاشميين وسبوا نساءهم من العباسيين وغير العباسيين ، فهل يكون مواليا لآل الرسول (ﷺ) من يسلِّط الكفار على قتلهم وسبيهم وعلى سائر المسلمين ؟ ؟

[وصف مؤرخ الشيعة الميرزا محمد باقر الخونساري في ص ٥٧٨ من كتابه (روضات الجنات) الطبعة الثانية هذا الموقف المخزي ، فقال في ترجمة شيخهم النصير الطوسي ما نصه : « ومن جملة أمره المشهور المعروف المنقول حكاية استيزاره (أي النصير الطوسي) للسلطان المحتشم في محروسة ايران ، هولاكو خان ابن تولى خان ابن جنكز خان ، من عظماء سلاطين التاتارية ، وأتراك المغول ، ومجيئه في موكب السلطان المؤيد مع كمال الاستعداد الى دار السلام بغداد ، لارشاد العباد وإصلاح البلاد ، وقطع دابر سلسلة البغي والفساد ، وإخمـــاد نارة الجور والالباس ، بابادة دائرة ملك بني العباس ! ! وايقاع (القتل العام) من أتباع أولئك الطغام . إلى أن أسال من دمائهم الأقذار كأمثال الأنهار ، فانهار بها في ماء دجلة ، ومنها الى نار جهنم دار البوار ، ومحل الأشقياء الأشرار ! ! ! . . وهذا مصداق ما قرره شيخ الاسلام (ابن تيمية) منقولاً بحروفه من اعتراف الخونساري . الذي يعدّ (القتل العام) في المسلمين من أمانيِّهم ورغائبهم ، عاملهم الله بما يستحقون] .

(ت) وكان وزير الخليفة ببغداد الذي يقال له ابن العلقمي منهم (توفي سنة ٦٥٦) .

[ووثق به المعتصم آخر الخلفاء العباسيين ، فألقى اليه زمام أموره . ولما دخلت جيوش هولاكو الوثني بلاد إيران أرسل اليه ابن العلقمي يحرضه على قصد بغداد . . . فزحف هولاكو على بغداد في مائتي الف من التتار والكرج وسائر يأجوج ومأجوج ، ومثّل ابن العلقمي دوره في مخادعة الخليفة المستعصم ، وهوّن عليه الأمر ، فلما نزلت جيوش هولاكو في شرقي بغداد وغربيها ، استأذن ابن العلقمي خليفته بالخروج إليهم للتوسط في الصلح ، وبعد أن توثق الخبيث لنفسه وكاشف المغيرين بانحيازه اليهم وخيانته لدولته ، عاد فزعم للخليفة انّ هولاكو يرغب في تزويج ابنته بالأمير أبي بكر ابن الخليفة ! ! . . ودعا الخليفة وابنه وأعيان الدولة الى الخروج لزيارة هولاكو ، كما دعا العلماء والرؤساء ليحضروا عقد الزواج بزعمه ؛ فلما صاروا بمعسكر هولاكو أمر بضرب أعناقهم ، وبقيت الرعية بلا راع ؛ ثم دخلت يأجوج ومأجوج بغداد ، فوضعت السيوف في الرقاب ؛ واستمر القتل والسبي والنهب أربعين يوماً ، ويقال ان هولاكو أمر بعد ذلك باحصاء ضحايا الأمة الاسلامية هناك ، فزاد عدد مَن أحصوه من القتلى على ألف ألف ، وثمانمائة ألف ، والذي لم يحصوه أضعاف ذلك . وقد وصف تقي الدين ابن أبي اليُسر هذه المجزرة الهمجية بقصيدة منها :

يازائرين الى الزوراء لا تفدوا   فما بذاك الحمى والدار ديّار

أما عدوّ الله ابن العلقمي فخابت آماله كلها في إقامة الملك أو الامامة لهم ، واحتقره هولاكو ورجاله كما يحتقر كل خائن ، وصار فيهم كمملوك من المماليك ، حتى أثر عنه أنه كان ينشد : « وجرى القضاء بعكس ما أمّلته » ثم مات كمداً ، لا رحمه الله . وهذا البلاء الاعظم الذي وقع في دولة الاسلام وأمة المسلمين على يد كفار التتار الوثنيين ، هو الذي وصفه مؤرخ الشيعة الخونساري بلسان الشماتة والابتهاج ، معلناً أنه ومَن على شاكلته من طائفته منحازون الى

صفوف الكفار ، ومعادون لجماعة المسلمين . قرر ذلك شيخ الأسلام ابن تيمية رحمه الله]

(م) وقال عمر : كانت بيعة أبي بكر فلتة وقى الله شرها ، (فمن عاد الى مثلها فاقتلوه) .

(ت) قلنا : هذا القول الاخير افتراء ، وإنما قال : وليس فيكم من تقطع اليه الأعناق مثل أبي بكر . ومعناه أن بيعة الصديق بودر اليها من غير انتظار وتريث لكونه كان متعيناً .

(م) ولم يول النبي أبا بكر عملاً قط ؛ بل ولّى عليه عمرو بن العاص مرة ، وأسامة أخرى . ولما أنفذه بسورة براءة « ردّه بوحي من الله » .

(ت) قلنا من المعلوم قطعاً أن النبي (ﷺ) استعمل أبا بكر على الحج عام تسع ، فكان هذا من خصائصه ، من كما أن استخلافه على الصلاة من خصائصه ، وكان علي من رعيته في الحج المذكور ، فانه لحقه فقال (أي أبو بكر لعلي رضي الله عنه) : أمير أو مأمور ؟ قال علي : بل مأمور . وكان علي يصلي خلف أبي بكر مع سائر المسلمين في هذه الحجة ، بل خُصّ بتبليغ « سورة براءة » .

[لسببين : (أحدهما) أن في السورة فسخاً لعهود سابقة مع المشركين ، ومن عادة العرب أن يتولى إعلان ذلك الرجل المطاع في جماعته ، أو رجل من ذوي قرابته . (والسبب الثاني) أن في السورة ثناء من الله عز وجل على الصديق الأعظم رضوان الله عليه ، وهو قول الله جل جلاله : « إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين ، إذ هما في الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن ، إن الله معنا »[1] . فكان من مناقب الخليفة الاول

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ٤٠

لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلن هـــذا الثناء الالهي عليه أخوه علي بن أبي طالب رضوان الله عليهما] .

(م) وأهمل أبو بكر حدود الله ، فلم يقتص من خالد بن الوليد حيث قتل مالك بن نويرة ، وأشار عمر بقتله فلم يقبل .

(ت) إن كان ترك قتل قاتل المعصوم (أي معصوم الدم) مما ينكر على الأئمة كان هذا من أكبر حجج شيعة عثمان على عليّ ، فان عثمان خير من أمثال مالك بن نويرة ، وقد قتل مظلوما شهيداً ، وعلي لم يقتص من قتلته ، ولذا امتنع الشاميون من مبايعتـــه ، فان عذرتموه فاعذروا أبا بكر ، فانا نعذرهما . وكذلك إنكاركم على عثمان حيث لم يقتص من عبيد الله بن عمر بالهرمزان . ثم إن عمر أشار عليه باجتهاد منه .

(م) وخالف أمر النبي في توريث بنته ومنعها فدَك .

(ت) قلنا : جميع المسلمين مع أبي بكر فيما فعل ، (خلا الجهلة) وذلك لرواية جماعـــة من الصحابة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا نورث » (وقد تقدم ذلك) .

[روايات هذا الحديث وما دار حوله في ص ٤٨ — ٥١ من (العواصم من القواصم)] .

(م) وعن ابن عباس أن رسول الله (ﷺ) قال في مرضه : ائتوني بدواة وبيضاء ، لأكتب لكم كتاباً لا تضلون من بعدي . فقال عمر : إن الرجل ليهجر ، حسبنا كتاب الله ، فكثر اللغط ، فقال رسول الله (ﷺ) : اخرجوا عني ، لا ينبغي التنازع لديّ ، قال ابن عباس : إن الرزية كل الرزية ما حال بيننا وبين كتاب النبي (ﷺ) .

(ت) أما قصة الكتاب فقد جاء مبيَّناً في الصحيحين من حديث عائشة ، قالت : قال رسول الله (ﷺ) في مرضه : « ادعي لي أباك وأخاك حتى أكتب كتاباً ، فاني أخاف أن يتمنى متمن ويقول قائل : أنا أولى ، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر » ... والنبي(ﷺ) كان عزم على أن يكتب الكتاب الذي ذكره لعائشة ، فلما رأى أن الشك قد وقع ، علم أن الكتاب لا يرفع الشك فلم يبق فيه فائدة ، وعلم أن الله يجمعهم على ما أراد ، كما قال : « ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر » . ومن توهَّم أن هذا الكتاب كان بخلافة علي فهو ضالٌّ باتفاق عامة النـــاس من علماء السنة والشيعة ؛ أما أهل السنة فمتفقون على تفضيل أبي بكر وتقديمه ، وأما الشيعة القائلون بأن علياً كان هو المستحق للامامة فيقولون انه قد نص على إمامته قبل ذلك نصَّاً جلياً ظاهراً معروفاً ، وحينئذ فلم يكن يحتاج الى كتاب .

(م) فكان (أي عمر) يعطي أزواج النبي (ﷺ) من بيت المال أكثر مما ينبغي ، ويعطي عائشة وحفصة في السنة عشرة آلاف .

(ت) قلنا : كان مذهبه التفضيل في العطاء ، كما كان يعطي بني هاشم أكثر من غيرهم ، ويبدأ بهم ، ويقول : ليس أحد أحق بهذا المال من أحد ، وإنما هو الرجل وَغناؤه ، والرجل وبلاؤه ، والرجل وسابقته ، والرجل وحاجته ، وكان يعطي ابنه عبد الله أنقص مما يعطي أسامة بن زيد ، فوالله ما كان عمر يتهم في تفضيله لمحاباة ولا صداقة .

(م) وقال بالرأي والحدس والظن .

(ت) قلنا هذا لم يختصَّ به ، وقد كان علي من أقولهم بالرأي ، فمن ذلك سيرُه الى صفين ، فقال : لمْ يَعْهد إليَّ فيه نبي الله بشيء ولكنه رأي رأيته . وأما قتاله الخوارج فكان معه فيه حديث . وأما قتال الجمل وصفين فلم يرو أحد

منهم فيه نصاً إلا القاعدون فانهم رووا الأحاديث في ترك القتال في الفتنة [ومنهم سعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر ، ومحمد بن مسلمة ، وأبو موسى الأشعري ، وأسامة بن زيد وغيرهم] .

ومعلوم أن الرأي إن لم يكن مذموماً فلا لوم على من قال به ، وإن كان مذموماً فلا رأي أعظم ذماً من رأي أُريق به دم ألوف مؤلفة من المسلمين ، ولم يحصل بقتلهم مصلحة للمسلمين لا في دينهم ولا في دنياهم ، بل نقص الخير عما كان ، وزاد الشر على ما كان ، فاذا كان مثل هذا الرأي لا يعاب به فرأي عمر وغيره في مسائل الفرائض والطلاق أولى أن لا يعاب ، مع أن علياً شركهم في هذا الرأي ، وامتاز برأيه في الدماء ؛ وقد كان ابنه الحسن وأكثر السابقين الأولين لا يرون القتال مصلحة ، وكان هذا الرأي أصلح من رأي القتال بالدلائل الكثيرة . ومن المعلوم أن قول علي في الجدّ وغيره من المسائل كان بالرأي ، وقد قال : اجتمع رأيي ورأي عمر على المنع من بيع أمهات الأولاد .

(م) إن زعم أن الامام يكون منصوصاً عليه وهو معصوم .

(ت) فليس هو أعظم من الرسول ، ونوابه وعماله ليسوا معصومين ، ولا يمكن أن ينص الشارع على كل معينة ، ولا يمكن النبي ولا الامام أن يعلم الباطن في كل معينة . وأما علي رضي الله عنه فظهور الأمر في الجزئيات بخلاف ما ظنه كثير جداً ، فعلم أنه لا بد من الاجتهاد في الجزئيات من المعصومين وغير المعصومين . وفي الصحيح عن النبي (ﷺ) أنه قال : « إنكم تختصمون إليّ ، ولعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، وإنما أقضي بنحو مما أسمع ، فمن قضيتُ له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه ، فانما أقطع له قطعة من النار »

فحكمه في القضية المعينة إنما هو باجتهاده ، ولهذا نهى المحكوم له أن يأخذ ما حكم له به إذا كان الباطن بخلاف ما ظهر .

(م) وقولك: جمع (أي عمر) بين الفاضل والمفضول ، (أي في الشورى) .

(ت) فهذا عندك ، وأما عندهم فكانوا متقاربين ، ولهذا كانوا في الشورى مترددين ، فان قلت : علي هو الفاضل وعثمان المفضول ، قيل لك : فكيف أجمع المهاجرون والأنصار على تقديم مفضول ؟ وقال بعض العلماء : مَن قدَّم علياً على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار ، وفي الصحيحين عن ابن عمر ، قال : كنا نفاضل على عهد النبي (ﷺ) فنقول : أبو بكر ثم عمر ثم عثمان . وفي لفظ : ثم ندع أصحاب النبي(ﷺ) فلا نفاضل بينهم ، فهذا ينقل ما كان عليه الصحابة على عهد نبيهم ، وظهر أثر ذلك فانهم بايعوا عثمان من غير رغبة ولا رهبة واتفقوا عليها . . . فدلَّ على أنهم إنما قدموه باستحقاق. وهذا شيء إذا تدبره الخبير ازداد به بصيرة وعلماً .

(م) وأمَّا عثمان فانه ولىَّ مَن لا يصْلُح حتى ظهر من بعضهم الفسق والخيانة ، وقسم الولايات بين أقاربه ، وعوتب فلم يرجع .

[كلُّ ما عزاه أعداء الصحابة الى ذي النورين رضوان الله عليه ، أورده القاضي أبو بكر بن العربي وسماه (قواصم) وأجاب على كل قاصمة بعاصمة من الحق عن أصدق المصادر وأصحها بعد كتاب الله . ومن ذلك تألف كتاب : (العواصم من القواصم) الذي علقنا عليه بما لا يترك مقالاً لقائل . فارجع اليه لتطهر قلبك من الغل الذين آمنوا من تلاميذ محمد (ﷺ) ، وخاصة أحبابه ، فان أعداءهم شحنوا الكتب بالأكاذيب التي انتشرت ، وأفسدت قلوب بعض المسلمين على سلفهم الأول ، إلى أن أظهر الله الحق بكتاب العواصم من القواصم ، فانتفع به الكثيرون ولله الحمد والمنة] .

(تنبيه) ذكر ابن المطهر أمثلة على انحراف الخليفة عثمان ، فأجاب عنها ابن تيمية ، وصاحب التعليقات واحدة واحدة .

(م) وأبو بكر وعمر وعثمان ما كانوا معصومين اتفاقاً ، وعلي معصوم فيكون هو الامام .

(ت) الرسول هو المعصوم ، وطاعته هي الواجبة في كل وقت على الخلق ، وعلم الأمة بأوامره اتم من علم البعض بأوامر المنتظر . فهذا رسول الله (ﷺ) هو المعصوم ، وأوامره معلومة ، فاستغنت الأمة به وبأوامره وبعلمه عن كل أحد ، وأولو الأمر منفذون لدينه ليس إلّا . ومعلوم قطعـــاً أنه كان نوابه في اليمن وغيرها يتصرفون في الرعية باجتهادهم وليسوا بمعصومين ، ولم يتولّ على الأمة من ادُّعِيتْ له سوى علي ، وكان مِن نوّابه على رعيته بالبلاد النائية مَن لا يدري بمـا أمر ولا بما نهى ، بل كانوا يتصرفون بما لا يعرفه هو (أي باجتهادهم) .

ثم الامام الذي وصفته ، لا يوجد في زماننا ، مفقود غائب عندكم ، ومعدوم لا حقيقة له عند سواكم ، ومثله لا يحصل له شيء من مقاصد الامامة ، بل الامام الذي يقوم وفيه جهل وظلم (كما تدّعون) أنفع لمصالح الأمة ممن لا ينفعهم بوجه والامام يحتاج اليه للعلم ليبلغه ، وللعلم ليطاع في سلطانه .

[إن جميع الدلائل الشرعية والعقلية والتاريخية التي في أيدينا ـ عن آخر مَن يدّعون عصمته ـ تدلّ على أنه لم يخـلق ، ويوم وقعت وفاة أبيه وحُررت تركته ، لم تقل زوجة من أزواج المتوفىّ ولا أمة من إمائه إنّ له ولداً منها . وحجزت أزواجه وإماؤه فى منزل مدة العدّة على احتمال أن تكون حاملاً فتلد ، فمضت مدة العدة ولم يولد له أحد . والمنزل الذي يزعمون أن فيه سرداباً كان من يوم وفاة الحسن العسكري تحت تصرف أخيه جعفر ، وكان جعفر على يقين

بأنه ما كان ولم يكن لأخيه ولد ، وللعلويين نقابة ونقيب وسجل للمواليد ،وليس فيه أي ذكر لمولود ينسب الى الحسن العسكري] .

(م) والامام يجب أن يكون أفضل من رعيته ، وعلي فاضل أهل زمانه فهو الامام لقبح تقدم المفضول على الفاضل عقلاً ونقلاً .

(ت) قلنا لا نسلم أنه أفضل أهل زمانه ، فانه قال على منبر الكوفة : خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر . ثم كثير من العلماء لا يوجبون تولية الأفضل ، ومنهم من يقول بولاية المفضول إذا كان فيها مصلحة راجحة كما تقول الزيدية .

(م) قوله تعالى : « يا أيها الرسول بَلِّغ ما أنزل اليك من ربك »[1] اتفقوا على نزولها في عليّ ، روى أبو نُعيم باسناده الخ ومن تفسير الثعلبي الخ وقد روى هذا النقاش في تفسيره .

(ت) قولك اتفقوا على نزولها في علي ك ... بل ولا قاله عالم ، وفي كتاب أبي نعيم والثعلبي والنقاش من الكذب ما لا يُعتَمد ، والمرجع في النقل الى أمناء حديث رسول الله ، كما أن المرجع في النحو الى أربابه ، وفي القراءات الى حذاقها ، وفي اللغة الى أئمتها ، وفي الطب الى علمائه ، فلكل فنّ رجال ، وعلماء الحديث أجلّ وأعظم تحرياً للصدق من كل أحد ، علم ذلك من علمه ، فما اتفقوا على صحته فهو الحق ، وما أجمعوا على تزييفه وتوهينه فهو ساقط ، وما اختلفوا فيه نظر فيه ، بانصاف وعدل ، فهم العمدة كمالك وشعبة والأوزاعي والليث والسفيانين والحمّادَين وابن المبارك ويحيى القطان وعبد الرحمن بن مهدي ، ووكيع وابن علية ، والشافعي وعبد الرزاق والفريابي وأبي نعيم والقعنبي والحميدي

(١) سورة المائدة ، الآية : ٦٧

وأبي عبيد وابن المديني وأحمد واسحاق وابن معين وأبي بكر بن أبي شيبة والذهلي والبخاري وأبي زرعة وأبي حاتم وأبي داود ومسلم وموسى بن هارون وصالح جزرة والنسائي وابن خزيمة وأبي احمد بن عدي وابن حبان والدارقطني وأمثالهم من اهل العلم بالنقل والرجال والجرح والتعديل .

وقد صنف في معرفة الرجال كتب جمة : كالطبقات لابن سعد ، وتاريخي البخاري ، وكلام ابن معين من رواية أصحابه عنه ، وكلام أحمد من رواية أصحابه عنه ، وكتاب يحيى بن سعيد القطان ، وكتاب علي بن المديني ، وتاريخ يعقوب الفسوي ، وابن أبي خيثمة ، وابن أبي حاتم ، والعقيلي ، وابن عدي وابن حبان والدارقطني .

والمصنفات في الحديث على المسانيد : كمسند أحمد واسحق ، وأبي داود ، وابن أبي شيبة ، والعدني ،وابن منيع ،وأبي يعلى ، والبزار ،والطبراني وخلائق .

وعلى الابواب : كالموطأ ، وسنن سعيد بن منصور ، وصحيحي البخاري ومسلم ، والسنن الاربعة ، وما يطول الكتاب بتعداده .

ثم نقول : ما يرويه مثل النقاش والثعلبي وأبي نعيم ونحوهم : أتقبلونه مطلقاً لكم وعليكم ، أم تردونه مطلقاً ، أو تأخذون بما وافق أهواءكم وتردون ما خالف ؟ فان قبلوه مطلقاً ، ففي ذلك من فضائل الشيخين جملة من الصحيح والضعيف ، وإن ردوه مطلقاً بطل اعتماده بما ينقل عنهم ، وان قبلوا ما يوافق مذهبهم أمكن المخالف ردّ ما قبلوه والاحتجاج بما ردوه ، والناس قد كذبوا في المناقب والمثالب أكثر من كل شيء .

ثم هذا الحديث كذب باتفاق أهل الحديث ، ولهذا لم يُروَ في شيء من كتب الحديث المرجوع اليها ، وإنما يجوّز صدقه من يقول : إن النبي (ﷺ) كان على مذهب أحد الأربعة !!... أو أن قبر علي رضي الله عنه بباطن

النجف ، وأهل العلم يعلمون أنّ علياً ومعاوية وعمرو بن العاص دفن كل واحد منهم بقصر الامارة ، خوفاً عليه من نبش الخوارج .

[أما قصر الامارة في الكوفة الذي دفن فيه علي كرم الله وجهه ، فانه يقع قبلي الجامع ويطل على الرحبة . ويقول مؤرخ الشيعة لوط بن يحيى إنه دفن في إحدى زوايا الجامع على رحبة القصر ، بالقرب من أبواب كندة . وما زعمته الشيعة بعد ذلك من أن قبره في النجف ، فهو زعم متأخر دهراً طويلاً عن زمن علي وابنيه ، لأنه يرجع الى أواخر القرن الثالث ، وقصر الامارة في دمشق الذي يعلم أهل العلم أن معاوية دفن فيه هو (الخضراء) التي كانت تتصل بجدار القبلة من مسجد دمشق ، وتمتد شرقاً الى بركة جيرون ، وغرباً الى باب البريد ، وجنوباً الى قصر أسعد باشا العظم وما حوله] .

[وأما عمرو بن العاص فانه لما توفي في عيد الفطر من عام ٤٣ هـ صلى عليه ابنه عبد الله (رض) ولم أعثر عند كتابة هذا التعليق على نص لمن قالوا انه دفن في دار الامارة ؛ والمشهور أنه دفن في سفح جبل المقطم بقرب مدخل الشعب . وكان الصحابة يرون أن العظماء تخلدهم أعمالهم لا قبورهم . ولذلك لم يكونوا - كالفراعنة والجبارين - يبالون بأن تقام المباني والصروح على قبور العظماء منهم والفاتحين والصالحين] .

(م) روى الجمهور قوله عليه الصلاة والسلام : « إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا ، كتاب الله وعترتي ، ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض » . وقال : « أهل بيتي فيكم كسفينة نوح من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها غرق » . وسيد أهل بيته علي ، فيكون واجب الطاعة على الكل فيكون الامام .

(ت) قلنا : إنما لفظ الحديث في مسلم ، عن زيد بن أرقم قال : قام فينا

رسول الله (ﷺ) خطيباً بخم ، فقـــال :« إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا : كتاب الله » وأما قوله : « وعترتي » فهذا رواه الترمذي ، وتفرد به زيد بن الحسن الانماطي عن جعفر بن محمد عن أبيه ، عن جابر ، والانمـاطي قال فيه أبو حاتم منكر الحديث [ويعدّه الشيعة منهم ، وله ترجمة عند المامقاني (١ : ٤٦٢) . لكنه غير محمود عندهم ولا عندنا] . وأما حديث سفينـــة نوح فغير صحيح ، ولا هو في شيء من الكتب المعتمدة ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « لن يتفرقا » يدل على أن إجماع العترة حجة ، وهو قول طائفة من أصحابنا وذكر القاضي في المعتمد : والعترة هم بنو هاشم كلهم : ولد علي وولد العباس وولد الحارث ابن عبد المطلب . وسيد العترة هو رسول الله (ﷺ) وكان ابن عباس أفقه العترة ، وكان يخالف علياً في مسائل ، وعلي ما كان يوجب على أحد طاعته فيما يفتي به .

(الخاتمة) كل عاقل يعلم أن أهل الدين والجمهور ليس لهم غرض ـ والله ـ لا مع علي ولا مع غيره ، ولا غرضهم تكذيب نبيهم ، ولا رد ما أمر به ، ولو علموا أن الرسول نص لهم على عليّ لكانوا أسبق شيء الى أمره والى التصديق به ، غاية ما يقدّر أنه خفي عليهم هذا الحكم فكيف يكون مَن خفيَ عليه جزء من الدين مثل ... بل يكفي من وضع .. قول المصطفى (ﷺ) : « من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » ، نعم ، ومن كتم ما نص عليه الرسول مراغمة لله ورسوله فهو من أصحاب النار .

(م) المنهج الرابع في الأدلة الدالة على إمامته من أحواله ، فذكر أنه كان أزهد النـــاس وأعبدهم ، وأعلمهم وأشجعهم . وذكر أنواعاً من خوارق العادات له .

(ت) بل كان أزهدَ الناس بعد رسول الله (ﷺ) أبو بكر ، فانه كان له مال يتجر به ، فأنفقه كلـه في سبيل الله [أخرج أبو داود في الزهد بسند صحيح عن هشام بن عروة ؛ أخبرني أبي قال : أسلم أبو بكر وله أربعون ألف درهم ، قال عروة : وأخبرتني عائشة ، أنه مات وما ترك ديناراً ولا درهماً . ومن طريق أسامة بن زيد بن أسلم عن أبيه : كان أبو بكر معروفاً بالتجارة ، ولقد بعث النبي (ﷺ) وعنده أربعون ألفاً ، فكان يعتق منها ويعول المسلمين حتى قدم المدينة بخمسة آلاف ، وكان يفعل فيها كذلك] .

قال ابن زنجويه [هو حميد بن مخلد الثقة الثبت الحجـــة الحافظ . توفي سنة ٢٤٧] : كان علي فقيراً في أول الاسلام ، ثم استفاد الرباع والمزارع والنخيل ، واستشهد رضي الله عنه وعنده تسع عشرة سريّة وأربع نسوة . وقال شريك بن عاصم : لقد رأيتني على عهد رسول الله (ﷺ) أربط الحجر على بطني من شدّة الجوع ، وان صدقة مالي لتبلغ اليوم أربعين ألفا .

ثم قد كان لأبي بكر من الولد مثل عبد الرحمن ، ومن القرابة مثل طلحة أحد العشرة ، فما استعمل هذا ولا هذا في جهاته ، وهي مكة والمدينة واليمن وخيبر والبحرين وحضرموت وعمان والطائف واليمامة ، ثم جرى عمر على مجراه ، ولم يستعمل من بني عدي أحداً على سعة عمله ، وقد فتح الشام ومصر والعراق إلى خراسان ، إلّا النعمان بن عدي العدوي وحده ـ على ميسان ـ ثم أسرع عزله؛ فكان فيهم مثل سعيد بن زيد أحد العشرة ، وأبي جهم بن حذيفة وخارجة بن حذافة ومعمر بن عبد الله وولده عبد الله بن عمر . ثم كل منهما لم يستعمل ابنه من بعده على الأمة . . . وجدنا علياً استعمل أقاربه : ابن عبـــاس على البصرة ، وعبيد الله بن عباس على اليمن ، وقثماً ومعبداً ابني عباس على الحرمين، وابن أخته

جعدة بن هبيرة على خراسان ، وابن امرأته وأخا ولده محمد بن أبي بكر على مصر ، ورضي بيعة المسلمين لابنه بعده . ولسنا ننكر أهليته وزهده وعظمته ، ولا أهلية عبد الله بن عباس للخلافة ، ولكنا نقول : إنّ أبا بكر وعمر أتمّ زهداً وأعزف عن الدنيا من زاهد بفعل المباحات .

(م) وبالجملة ، زهدُه لم يلحقه أحدٌ فيه ولا سُبق اليه ، واذا كان كذلك كان هو الامام .

(ت) قلنا : كلا المقدمتين باطلة : لم يكن أزهد من أبي بكر (كما تقدم) ولا كلُّ مَن كان أزهد كان أحقّ بالامامه ، وقال علي : لا يبلغني أن أحداً فضّلني على أبي بكر وعمر إلا جلدته حدّ المفتري ، وقد رُوي عن عليّ من نحو ثمانين وجهاً أنه قال على منبره : خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر . وقال البخاري : حدثنا محمد بن كثير ، حدثنا سفيان ، حدثنا جامع بن شدّاد ، حدثنا منذر الثوري ، عن محمد بن الحنفية ، قال : قلت لأبي : يا أبة من خير الناس بعد رسول الله (ﷺ) ؟ قال : يا بنيّ أو ما تعرف ؟ فقلت : لا ، فقال : أبو بكر ، قلت : ثم من ؟ قال : ثم عمر .

ثم عقد ابن المطهر فصلاً في الكلام على إمامة أبي بكر ، واليك مثلاً منه وجوابه :

(م) قال : واحتجوا بالاجماع ، والجواب منعه ، فان جماعة من بني هاشم لم يوافقوا على ذلك ، وجماعة كسلمان وأبي ذر والمقداد وعمار وحذيفة وسعد بن عبادة وزيد بن أرقم وأسامة وخالد بن سعيد بن العاص . . . وبنو حنيفة كافة ولم يحملوا الزكاة اليه ، حتى سمّاهم أهلَ الردّة وقتلهم وسباهم ، فأنكر عليه عمر ، وردّ السبايا أيام خلافته .

(ت) أفسُمِعَ قطّ بمثل هذا ؟ : فقد عَلِمَ كلّ عالم كفر بني حنيفة أتباع مسيلمة وارتدادهم ، وهذا يعدّهم من أهل الاجماع ، وإنما قتلهم وسباهم لامتناعهم عن بيعته ، ولأنهم لم يحملوا الزكاة اليه !! فنعوذ بالله من البهتان :

إذا محاسني اللاتي أدلّ بهـــا كانت ذنوباً فقل لي كيف أعتذرُ

ومن أعظم مناقب الصديق قتل أولئك الأرجاس وسبيهم ، وماقاتلهم على منع زكاةٍ ، بل على إيمانهم بمسيلمة ، وكانوا نحو مائة الف . والحنفية سريّة عليّ - أم محمد بن الحنفية - من سبيهم .

[وتسرّي علي بها اعتراف منه بشرعية حكم أبي بكر وحروبه ونتائجها (انظر رسالة مؤتمر النجف ص ٣١)] .

فأما الذين قاتلهم على منـــع الزكاة فطوائف من العرب غير بني حنيفة استباحوا ترك الزكاة بالكلية فقاتلهم ... فأمر بني حنيفة قد خلص الى العذارى في الخدور ، وكتاب الردّة لسيف بن عمر مشهور ، والردّة للواقدي . ثم قولك إن عمر أنكر قتال أهل الردة وردّ عليهم من البهتان ، وإنما توقف مـــع الصديق في قتال مانعي الزكاة فناظره ، فرجع عمر الى قوله . وأما الذين سميتهم وأنهم تخلفوا عن بيعة الصديق ... ما تخلف إلا سعد بن عبادة ، ومبايعة هؤلاء لأبي بكر ثم عمر أشهر من أن تنكر .

والـكلام في إمامة الصديق إما أن يكون في وجودها ، وإما أن يكون في استحقاقه لها . (أما الأول) فهو معلوم بالتواتر واتفاق الناس بأنه تولى الأمر ، وقام مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفه في أمته ، وأقام الحدود ، واستوفى الحقوق ، وقاتل الكفار والمرتدين ، وولي الأعمال ، وقسم الأموال ، وفعل جميع ما يفعل الامام ؛ بل هو أول من باشر الامامة في الأمة .

وأما إن أريد بامامته كونه مستحقاً لذلك ، فهذا عليه أدلة كثيرة غير

الاجماع : فلا طريق يثبت بها كون علي مستحقاً للامامة إلا وتلك الطريق يثبت بها أن أبا بكر مستحق للامامة ، وأنه أحق بالامامة من علي وغيره . وحينئذ فالاجماع لا يحتاج اليـــه لا في الاولى ولا في الثانية ، وإن كان الاجماع حاصلا . . . . .

فمن تأمل وجد فضائل الصدّيق كثيرة ، وهي خصائص له ، مثل : « إن الله معنا »[1] وحديث المخالة، وحديث أنه أحبُّ الرجال الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وحديث الاتيان اليه بعده [أي حديث المرأة التي قال لها النبي صلى الله عليه وسلم : إن لم تجديني فأتي أبا بكر ، وهو في الصحيحين] . وحديث كتابة العهد له ، وحديث تخصيصه بالصديق ابتداء والصحبة ، وتركه له ، وهو قوله : « فهل أنتم تاركو لي صاحبي » وحديث رفعه عنه عقبة بن أبي مُعيط إذ وضع الرداء في عنقه ، وحديث استخلافه في الصلاة والحج ، وشأن ثباته بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وانقياد الامة له ، وحديث خصال الخير التي اتفقت له في يوم .

ثم له مناقب يشركه فيها عمر ، كحديث شهادته بالايمـــان له ولعمر ، وحـــديث علي يقول : كثيراً ما كنت أسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « خرجت أنا وأبو بكر وعمر » وحديث نزعه من القليب، وحديث : « إني أومن بهـــذا أنا وأبو بكر وعمر » ... وللصديق في الصحاح نحو عشرين حديثاً ، أكثرها خصائص ، فمناقبه جمة ، وفضائله عدة ، استوجب بها أن يكون خليل رسول الله صلى الله عليه وسلم دون الخلق لو كانت المخالة ممكنة . فلو كان مبغضاً له كما يقول .. لما حزن ، بل كان يظهر الفرح والسرور ، فأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله معهما ، وهذا إخبار بأن الله معهما بنصره وحفظه. ومعلوم

---

(١) سورة التوبة ، الآية: ٤٠

أن أضعف الناس عقلاً لايخفى عليه حال من يصحبه في مثل هذا السفر الذي قد عاداه فيه أولئك الملأ ، فكيف يصحب واحداً ممن يظهر له موالاته دون غيره ، وهو عدو له في الباطن . هذا لا يفعله إلا أغبى الناس وأجهلهم ، فقبح الله من جوّز هذا على أكمل الخلق عقلاً وعلما .

(م) وأما إنفاقه على الرسول فكذب ، لأنه لم يكن له مال .

(ت) من أعظم البلايا إنكار المتواتر المستفيض القطعي . فمن ذا الذي نقل من الثقات أو الضعفاء مازعمت . . أينكر جود حاتم وشجاعة علي وحلم معاوية وغنى أبي بكر وفضله ؟ بل هؤلاء لاذكر لهم في القرآن ، وأمّا هو ، ففيه نص صريح بفضله وغناه ، في الصحيحين أن مسطحاً كان أبو بكر ينفق عليه ، وكان أحد من تكلم في الإفك ، فحلف أبو بكر أن لاينفق عليه ، فأنزل الله قوله (ولا يأتلِ أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله ، وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم)(1)؟ فقال أبو بكر : بلى والله إني لأحبُ أن يغفر الله لي . فأعاد عليه النفقة . وقد اشترى بماله سبعة من المعذّبين في الله ، وقال ﷺ : « مانفعني مال مانفعني مال أبي بكر » . ولما هاجر استصحب ماتبقي من ماله ، قيل : كانت ستة آلاف ، وكان يتجر . وفي الصحيحين أن أبا بكر لما ابتُلي المسلمون بمكة ، خرج مهاجراً ، حتى اذا بلغ برك الغماد ، لقيَهُ ابن الدُغُنَّة سيد القارة ، وقال : مثلك يا أبابكر لايَخرُج ولا يُخرَج ، إنك تكسب المُعدَم ، وتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، وإني لك لجار ، ارجع ، واعبد ربك ببلدك ، فرجع به ابن الدغنَّة ، وطاف في قريش فأجاره ، فقالوا له . مُرْ أبا بكر

---

(1) سورة النور ، الآية : ٢٢

فليعبد ربَّه في داره ، ولا يؤذنا ولا يستعلن بعبادته ، فانا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا . . الحديث بطوله .

وقد قال النبي في مرضه ذلك على مافي الصحيحين عن عائشة أنه قال : « ادعي لي أباكِ وأخاكِ حتى أكتب لهم كتاباً ؛ فاني أخاف أن يتمنى متمنٍ ويقول قائل أنا أولى ، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر » .

فهذا من إخباره بالكوائن بعده ، ولهذا أعرض عن الكتابة لأبي بكر لمَّا علم أن الله يجمعهم عليه ، وأن المؤمنين يبايعونه ولا يختلفون عليه : لا في الأول ولا في الآخر عندما استخلف عليهم بعده خيرَهم . أماتنا الله وأياكم على حبّ الأربعة ، فان المرء مع مَن أحب .

آخره والله أعلم

هذه شذرات اخترناها ولخصناها من ذلك المجلد الضخم (المنتقى) بلا تعليق منا عليها ، وهي تنوّه بمزايا الخلفاء الثلاثة ومحاسنهم ، وتنفي النقائص التي ألحقت بهم ، وتطري ماللصحابة الكرام من فضل الصحبة ، ونشر الدعوة ، وإقامة الحجة ، وإثبات الأخوة الصادقة بين الأئمة أبي بكر وعمر وعلي ، وتفضيله لهما على نفسه ، وارسال ولديه الحسن والحسين الى عثمان شهيد الدار ؛ محافظة عليه ودفاعا عنه (رضوان الله عليهم) ونفيه الكفر والنفاق عن محاربيه ، كما تراه في نهج البلاغة وغيره .

وبعد هذا كله ، إن لم يعمل محبوه ومواله بنصحه وتذكيره ، يتبين أنهم لا يقيمون لرأيه وزناً ، ولا يرفعون به رأساً ، وانك لتجد في هذا (المنتقى) من (منهاج السنة النبوية) جواباً لكل سؤال ، وحلاً لكل إشكال ، وبياناً للحق في كل مايخوض به الخائضون ، مثل : الميراث من (فدك) التي جرى فيها الإمام

علي على خطة الخلفاء من قبل ، ومثل حكمه العادل في وقائع الجمل والنهروان وصفين ، ونفي سمة الكفر عنهم ، على خلاف حكم من ادعى التشيّع له في هذه الكتب المنشّرة التي تبدي وتعيد . وتطبع وتوزع وليس فيها من جديد .

ألا وان جواب إمام السنة ابن تيميـة الحراني الدمشقي ، لامـام الشيعة الامامية ابن المطهّر الحلي البغدادي هو كافٍ وافٍ بالموضوع . وإني أنصح لمن يقدر وقته حق قدره ، ويعرف قيمة عمره ، أن لا يضيعه بقراءة الكتب الطاعنة اللاعنة ، فهي ظالمة آثمة ، وما أثرناه عن « المنتقى » فهو الجواب الصحيح الذي نرجو أن تجتمع عليه كلمة الأمة إن شاء الله وبه المستعان .

~~~~~~~~~~~~~~~~~~
~~~~~~~~~~~~~~~~~~

حول طريقة النقد والاستعانة بغير الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

الى صاحبي السعادة المفضالين رئيس ومدير مجلة «مدينة العلم» المحترمين[1]

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد فقد تفضلتم باهدائي أجزاء من هذه المجلة ، فشكرت لكم تلطفكم بذلك . ولما لم يكن عندي من جديد أهديه أرسلت نسختين من تفسير سورة يوسف عليه السلام ومقدمته وخاتمته لي ، احداهما باسم رئيس التحرير ، والثانية باسم العلامة الكبير الخالصي وقد جمعنا بها مؤتمر بحمدون ، ولا أكتمكم أن هذا النوع من الكلام مع المخالفين لكم في المذاهب لا يؤدي إلا الى أسوأ النتائج والعواقب . وقد نقد علامة الشام القاسمي « النصائح الكافية لمن يتولى معاوية » وانتقد القاسمي العلامة الجليل آل كاشف الغطاء برسالة سماها « عين الميزان » فكانا في ردهما ، بل في نصحهما وتذكيرهما أسوة حسنة لكتّاب هذا العصر وأدبائه ، رحمهما الله تعالى وأحسن مآبهما ، وقد اقتدينا بهما في كتاب « نقد عين الميزان » وهما نعم القدوة .

كتبتم في (ج ٤ و ٥) على كتاب « أوائل المقالات » وشرح عقائد الصدوق ، أو تصحيح الاعتقاد » ـ تحت عنوان تقريظ المطبوعات ـ نحو صفحة ونصف الصفحة ، وكل ذلك ثناء واطراء ، ليس فيه أدنى تنبيه أو اعتراض وقد كتبتُ ـ في باب التعريف والنقد من مجلة المجمع العلمي بدمشق ـ أربع صفحات في وصفة ومشتملاته (ج ١ م ٢٩ ص ١٢٩ - ١٣٢)

---

(١) ارسلت هذا المقال لينشر في مجلة« مدينة العلم » العراقية فلم نقف عليه فيها ، فنشرناه في مجلة التمدن الاسلامي » الشامية ثم اثبتناه هنا . البيطار

وفي تقريظكم ما نصه (ص ٤٤٧) :

ومثل هذين الكتابين ، ينبغي لمن أراد أن يكتب عن الشيعة أو يتحدث عن مذهبهم ، أن يرجع اليها ويعتمد عليها ، ـ لا أن يأتي الى كتب المغرضين ، والكتب المدسوسة عن الشيعة فيأخذ بها وينتزع عنها البهت والتزوير فيرمي به هذه الطائفة المؤمنة » .

وقد عملنا بهذا قبل أن يصدر نصحكم بأشهر ، فنشرنا ما يأتي : وقد جاء في ص ١٠ (أي من كتاب أوائل المقالات) بعنوان « القول في محاربي أمير المؤمنين (ع) » ما نصه :

واتفقت الامامية والزيدية والخوارج ، على أن الناكثين والقاسطين من أهل البصرة والشام أجمعين ، كفار ضلال ملعونون بحربهم أمير المؤمنين (ع) وأنهم بذلك في النار مخلدون اه وهذا اتفاق على عكس الآية الكريمة « إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء »[1] .

قلت : رأيت في هذا الكتاب الذي دفعه المجمع العلمي الي" لأصفه في باب « التعريف والنقد » بعض ما يراه القارىء في غيره كالكافي والتهذيب والوافي وغيرها من كتب إخواننا الشيعة ، من لعن وتكفير وتخليد في النار ، لمن أورثوهم الأرض والديار ، ولم أر انتقاداً ولا اعتراضاً لأحـــد ممن تعاقبوا على تصحيحه أو تقريظه ، وهم من أشهر مجتهدي الشيعة في هذا العصر ، وعليه صورهم . ولا شك أن هذه الكتب تورث قراءها وغراً وحقداً ، وعداء وبغضاً ، وتنطق ألسنتهم بأفحش القول وأوحشه ، لرجال الصدر الاول للاسلام فمن دونهم ، وفي مقدمتهم الخلفاء الثلاثة وبعض أمهات المؤمنين ، ومن معهم من المهاجرين والانصار ممن رضي الله عنهم ورضوا عنه بنص القرآن ، إن هـــذه

---

(١) سورة النساء الآية : ١١٦

الكتب هي منبع الفتن ، فمنها يستقي كل طاعن ، وعنها يصدر كل لاعن ، وقد دللنا الآن على مكامن الداء ، ليعالجه دعاة الوحدة والوئام من المجتهدين الكرام ، ولقد انقضت عصور الأمويين والعباسيين ، وأصحاب الجمل والنهروان وصفين ، وحسابهم على رب العالمين :

على ربي حسابهم اليه   تناهى علم ذلك لا اليّهْ

وليس بضائري ما قد أتوه   إذا ما الله أصلح ما لديّهْ

كان حوار السلف مع الفرق الاسلامية التي ظهرت في عصورهم ، وشاعت مقالاتهم في الناس ، كالقدرية والخوارج والجبرية والجهمية والمرجئة والوعيدية وغيرهم . وقد انتشرت في زماننا شبه وشكوك في دين الحق لأقوام آخرين ، كدعاة التبشير والتنصير مع الدول التي تمدهم بالمال والرجال ، وقد باعوا أنفسهم وغيرهم للاستعمار ، و كدعاة الالحاد والفساد ، فأين دعاة الاسلام وحماته لدفع باطلهم و كبح جماحهم ، وإلى مثل هذا نوجه أنظار الأئمة المجتهدين ، والله هو الموفق والمعين .

جاء في تفسير (الامام الخالصي) بعنوان : رفع شبهة الاستعانة بغير الله ما نصه : « ومن الغريب ما ينسب إلى بعض السلفيين من إنكاره الاستعانة بغير الله ، وعدّها كفرا مع انهم يقرأون قوله تعالى في هذه السورة : « واستعينوا بالصبر والصلاة » [1] وفي سورة آل عمران : « يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة » [2] والجواب أن الصبر والصلاة من كسب الانسان وعمله ، وهما من خير الوسائل التي يلتمسها للوصول الى قصده ، ومثله التعاون بين الناس

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٤٥

(٢) سورة البقرة ، الآية : ١٥٣

في الأعمال التي لا يستطيع الفرد ان يستقلّ بها ، والتي هي داخلة في دائرة الأسباب والمسببات ، « وقل اعملوا »[1] « وتعاونوا على البر والتقوى »[2] وانما الكلام في الاستعانة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلاّ الله ، كانقاذ الغريق ، وشفاء المريض ، وردّ الغائب .

وقد طلعت علينا الصحف بحادث مؤسف أحزن القلوب ، وهو الذي وقع شمالي طهران ... (في ٢٢ آب ١٩٥٤) وأودى بحياة عدد كبير من الزوار الايرانيين اثناءَ زيارتهم لمقام الامام داود زاده في قرية فرخواد ، وذكر أحد الأفراد الذين شهدوا الحادث أن مجموع عدد زوار الضريح كان يقدر بثلاثة آلاف شخص عندما أخذهم الطوفان ، فأسرع منهم نحو الف شخص الى التلال المجاورة ، وبادر الباقون الى الضريح داعين الامام داود زاده ان ينقذهم من الفيضان ! ! هذا ما نشرته الصحف ، ويا حسرتاه على هؤلاء المساكين ، وعلى ما فرط واعظوهم في جنب الله ، وسيلقون ربهم على ما عملوا بهذه الضحايا . وقد قال تعالى عن أهل الشرك والافك : « فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين »[3] وقال عن فرعون (الذي ادعى الربوبية والألوهية) حين أدركه الغرق : « آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل »[4] . ولو كان الامام داود حياً لأسرع كغيره الى التلال المجاورة ، وإذاً لما غرق احد ممن يقتدي به ويهتدي بهديه ، ولو كان له قدرة بعد الموت ، لدفع الغرق عن نفسه او عن قبره ، فيا رباه اين ضلّت

---

(١) سورة التوبة ، الاية : ١٠٥

(٢) سورة المائدة ، الاية : ٢

(٣) سورة العنكبوت ، الاية : ٦٥

(٤) سورة يونس ، الاية : ٩٠

عقول هؤلاء واولئك حتى خالفوا سنة الله في النجاة من الفرق ؟ و « لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم » [1] ولا قوة إلا بالله .

وقد أنكر العلامة الخالصي على القائلين بجواز رؤية الله تعالى في الآخرة، مع أن الآية صريحة بالجواز بل بالوقوع « وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة » [2] وهو لم يوردها ، وانما أورد حديث الصحيحين : (إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر (والتتمة) : لا تضامون في رؤيته) بضم الميم، وبالتشديد وعدمه ، والمراد : رؤية ليس فيها ضيم ولا انضمام أي ازدحام كالقمر نراه جميعاً بدون أذى ، بخلاف الشمس مثلا ، فهو من تشبيه الرؤية برؤية نعرفها ونألفها، لا تشبيه الذي « ليس كمثله شيء » [3] بالقمر الذي هو من أصغر مخلوقات الله عز وجل ، وهل أحطنا علماً بما نراه من المخلوقات حتى نحيط بخالقنا علماً برؤيتنا له ؟

(السجود لآدم ، ورد شبهة متأخري السلفيين) تحت هذا العنوان قد ذكر العلامة الخالصي قصة السجود لآدم ، وقال : وإذا كان آدم قد سجدت له الملائكة بأمر الله ، فيجوز مثل ذلك وأعظم لمحمد ، وللأولياء من أمه محمد صلى الله عليه وسلم وللعلماء منهم ، ثم جعل من لم يسجد لهؤلاء الصلحاء عاصياً كمعصية ابليس الذي استحق اللعنة الى يوم الدين !

أجاز السجود لغير الله وأعظم ، وأي شيء أعظم من السجود ؟

أمر الله الملائكة بالسجود لآدم ، فهل نحن آدم ، أم هل نحن من الملائكة ؟

---

(١) سورة هود ، الاية : ٤٣

(٢) سورة القيامة ، الاية : ٢٢ ، ٢٣

(٣) سورة الشورى ، الاية : ١١

وأي مدخل للصلحاء في هذا ؟ آدم خلقه الله بيديه ، والملائكة من عالم الغيب ، ونحن أولاده متساوون في الخلق ، عدا عيسى (ع) فهو من دون والد ، ولم تؤمر الملائكة بالسجود له ولا لغيره من البشر ، ولم نؤمر نحن بالسجود إلا لله ، وقد عاش بأبي هو وأمي ﷺ بعد النبوة ثلاثة وعشرين عاماً ، فهل عُهد أن أحداً سجد له في هـذه المدة ، أو لأحد من آله أو صحبه ، واذا حيَّا الملائكة آدم بالسجود له مرة واحدة امتثالاً لأمر الله ، فأين أمره تعالى إيانا بأن نتخذ أمره لهم شريعة لنا ؟

أو ليست تحية الاسلام بالسلام على الأحياء ، وهم يردونها بأحسن منها أو بمثلها كما أمر الله ، وعلى الاموات وهي سلام دعاء لهم ،لا تحية يطالبون بردّها وقد كان رسول الله ﷺ يزور شهداء أُحُد وسكان البقيع فيقول : (السلام عليكم أهل لا إلـه إلا الله دار قوم مؤمنين) فلماذا نعدل عما ورد للأحيـــاء وللأموات ونأتي بتحية السجود لغير الله ، أو ليس الاسلام ديناً كاملاً مستقلاً « شرع لكم من الدين ماوصّى به نوحاً » (١) فهل أمر نوحٌ عليه السلام والنبيون من بعده أقوامهم أن يسجدوا لهم ، وماذا الذي دعا اليه وقاتل عليه رسول الله ﷺ والامام علي عليه السلام ؟

قال الاستاذ ـــ في رد شبهة متأخري السلفيين :

« وقولهم : تعظيم الأنبياء والأولياء ـــ بعد موتهم ـــ لا يجوز ، وعدّ ذلك شركاً ـــ اشتباه عظيم ، يرفعه القرآن الكريم ، لأن حرمة المؤمن بعد موته كحرمته في حياته ـــ كما ورد في الحديث الصحيح ، فمنعه تجاوز على السنة.

لا نبحث معه في الحديث وصحته وعدمه ، وكأي من حديث قرأته وما

---

(١) سورة الشورى ، الآية : ١٣

هو بحديث ولكن المعنى هنا صحيح ، وهل كان تعظيمنا لهم بالسجود فنفعل هذا بعد الوفاة أو ليس هديهم هو أولى بالاتباع ، وكيف يظن بمن يفرق بين الحياة والممات أنه غير معظم لهم ، ألم ينص القرآن العظيم في آيتين على حياة الشهداء ؟ فكيف جاز أن تقسم أموالهم ، وتيتم أطفالهم ، وتزوج زوجاتهم ، لو كانت حياتهم دنيوية ؟ وقد سمعت في مقام الحسين عليه السلام بمصر امرأة تقول : (يا سيدنا الحسين : حلفتك على ربك اني لا أتظلم ولا أتأذى ، ويا سيدنا الحسين أولادي دول) — وهم مرضى وفيهم رمد شديد ، وهذا أحد المطالب ، وهي احدى الطالبات ، وقد زرتم مصر وسمعتم ما يقال في المشهد ، فهل الحسين عليه السلام مدفون بمصر ؟

اختم هذه الكلمة في الفرق بين الحياتين الدنيوية والبرزخية ، والاستعانتين العادية وغير العادية :

« لو كانت الاستعانة بعد الموت ثابتة ثبوتها في الحياة لطلب من النبي بأبي هو وأمي (صلوات الله عليه وعلى آله) أن يقوم بالامامة في الصلاة ، والامارة في الغزو ، وارسال البعوث ، وعقد الألوية ، والشعائر في الحرب ، وإقامة الحدود ، وايصال الحقوق ، وقسم المواريث والغنائم ، والفيء والصدقات ، وافتاؤهم فيما ينوبهم من المسائل ، والحكم بينهم فيما يتنازعون فيه من القضايا كما كان ذلك في الدنيا ، والصحابة الكرام قد تناظروا بعد وفاة النبي عليه وآله الصلاة والسلام في أمر القرآن ، وفي المعارك الدامية كوقعة الجمل وصفين والنهروان ، وتناظر الشيخان في قتال مانعي الزكاة ، وفي ارسال جيش أسامة ، ولم يستفتوا النبي ﷺ ولم يستعينوا به في شيء منها ، وكل هذا معلوم من الدين والتاريخ بالضرورة ، ومن العقل والحس والوجدان بالبداهة .

أفلم يكن هؤلاء الآل والصحب معظمين وموقرين النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته ، كما كانوا معظمين له في حياته ؟ ، وهل مطالب الغلاة والجهـــال من الانبياء والصلحاء هي أهم من هذه المطالب وأعظم ؟.

اللهم أهدنا فيمن هديت ، وعافنـا فيمن عافيت ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

ماحق للحوار بين السنة والشيعة

وكتبت أيضاً جواباً للامام الخالصي في العراق ، وفيه ما يأتي :

. . . جمعتم بيننا بما تتفق عليه كلمة الأمة لو اكتفت بها ، ولم تزد عليها ، ولم تنقص منها ، وهي ما سرّكم من قولي : وأما حقائق الذات العلية والصفات فلا يعلمها إلا هو سبحانه ،وإثباتنا لها إثبات وجود لا إثبات كيفية ، وقلتم : هذا ما ذكرتموه وهو الحق ، وما أجمل قولكم : فكلّ لفظ أذن لنا سبحانه أن نطلقه عليه ، إنما يعبّر عن معنى فوق إدراكنا وعلمنا ، فاليد والفوق وكل شيء مما نُسب اليه تعالى : نؤمن به ، ونؤمن بأنه فوق فهمنا ، فاذا أولناه بما نفهم فقد أخطأنا الطريق ، وجاوزنا حدود كتاب ربنا » اه مختصرا .

اقول : هذا حقّ لا ريب فيه ، ولو وقف الناس عنده لما احتجنا الى الكلام ، ولكنّ المتكلمين إزاء هذا خمسة أقسام ، فقد انقسموا في نصوص الوحي ـ كما قال بعض الأئمة ـ الى أصحاب تأويل ، وأصحاب تخييل ، وأصحاب تمثيل ، وأصحاب تجهيل ، وأصحاب سواء السبيل.

والصنف الرابع أصحاب التجهيل هم الذين قالوا : نصوص الوحي ألفاظ لا تعقل معانيها ، ولا يُدرَى ما أراده الله ورسوله منها ، ونعلم انّ لها تأويلا لا يعلمه إلا الله ؛ فلو ورد علينا منها ما ورد ، لم نعتقد فيه تمثيلا ولا تشبيها ، ولم نعرف معناه ؛ وننكر على مَن تأوّله ، ونكل علمه الى الله تعالى ، ويقولون : الظاهر منها مراد ، والربّ منفرد بعلم تأويلها ، واضطرهم الى هذا، التخلص من

تأويلات المبطلين ، وتحريفات المطلــــين ، وسدّوا على أنفسهم الباب ، وقالوا : لا نرضى بالخطأ ولا وصول لنا الى الصواب ، فتركوا التدبّر المأمور به ، والتعقل لمعاني النصوص ، وأولئك جعلوها عرضة للتأويل والتحريف ، كما جعلها أصحاب التخييل أمثالاً لا حقيقة لها ، وقابلهم الصنف الثالث وهم صنف التشبيه والتمثيل ففهموا منها مثل ما للمخلوقين ، فظنوا أن لا حقيقة لها إلا ذلك ، وقالوا : محال أن يخاطبنا الله بما لا نعقله .

وهدى الله أصحاب سواء السبيل للطريقة المثلى ، فأثبتوا حقائق الأسماء والصفات ، ونفوا عنها مماثلة المخلوقات ، يثبتون له الأسماء الحسنى والصفات العليا بحقائقها ، ولا يكيفون شيئاً منها ، فان الله تعالى أثبتها لنفسه ، وإن كان لا سبيل بنا الى معرفة كنهها وكيفيتها اهـ ملخصًا .

وعلى كلٍّ فالصنفان الرابع والخامس يلتقيان في إثبات الأسماء والصفات ، ويكلان فهم حقائقها الى من أثبتها لنفسه ، بلا تأويل ، ولا تعطيل ولا تمثيل ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

كلمات ألحقناها بترجمة شيخ الاسلام ابن تيمية

مقدمته في أصول التفسير طبعت بدمشق سنة ١٣٥٥

رسالته هذه فيض من بحره ، قد أملاها من فؤاده كما قال ، وأودعها نفائس لألائه ودرّه ، فهي تريك صفحة ناصعة من دراسة سلفنا للقرآن وفهمه ، وتهديك لحلّ بعض مشكلات التفسير ومصطلحاته ، وتدلّك على اهدى المفسّرين وأفضل كتبهم ، وتحذّرك ممن انتحلوا لأنفسهم عقائد وأصولاً بنوا تفاسيرهم عليها ، وردّوا كلام الله ، وسنة رسول الله ﷺ إليها . وهذه الرسالة كلّها فوائد كسائر كتب شيخ الاسلام . ترى فيها – كغيرها من تآليفه – حرصه رحمه الله على ان يعيد للمسلمين عصورهم الذهبية ، ويرى بحق ان أحسن كتب التفسير ، أن يفسّر القرآن بالقرآن ، فما أجمل في مكان فانه قد فسّر في موضع آخر ، ثم بالسنة النبوية فانها شارحة للقرآن وموضحة له ، ثم بأقوال الصحابة ، فانهم ادرى بذلك لما شاهدوه من القرآن والأحوال التي اختصوا بها ، ونحن لو اهتدينا بهدي سلفنا الصالح ، وعُنينا بتطبيق ما ورد في هذه الرسالة من منهاجهم في دراسة القرآن وفهمه والعمل به ، لجدّدنا في عصرنا عهدهم ، وأعدنا لأمتنا مجدهم ، قال أبو عبد الرحمن السلمي : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلّموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً » .

فهذه الطريقة التي تعلّمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً هي الطريقة المثمرة ، التي تجدد لنا عهداً بدراسة سلفنا الذين استخلفهم الله تعالى في الارض ، ومكن لهم فيها ، وأورثهم علوم الأمم وحضارتهم ، فنوجه أنظار المعاهد الدينية ، والمدارس الاسلامية الى هذا المنهج القرآني السلفي الذي هو أصلح منهج للمسلمين وأهداه في هذا العصر ، بل في جميع العصور ، لأنه يطبع الدارسين بطابع اللغة والاسلام والفضيلة جميعا .



شذرات من كلام الإمام ابن القيّم

هذه شذرات من كتابي « مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطّلة » و « اجتماع الجيوش الاسلامية على المعطلة والجهمية » للامام ابن القيم ألحقناها بترجمة أستاذه شيخ الاسلام ابن تيمية، تأييداً لمذهب السلف في أمر المعتقد.

قال رحمه الله في كتابه : « مختصر الصواعق » :

ج ١ ص ٢٨٣ - كلُّ من أقر بوجود ربّ للعالم مدبّر له ، لزمه الاقرار بمباينته لخلقه وعلوه عليهم وكلُّ مَن أنكر مباينته وعلوه لزمه إنكاره وتعطيله .

ج ٢ ص ١٤٦ – الوجه السابع والثلاثون :

إن حقيقة هذا المجاز أنه ليس فوق السموات ربّ ، ولا على العرش إلا العدم المحض ، وليس هناك مَن ترفع اليه الايدي ، ويصعد اليه الكلم الطيب ، وتعرج الملائكة والروح اليه ، وينزل الوحي من عنده ، ويقف العباد بين يديه ، ولا عرج برسوله اليه حقيقة ، ولا رفع المسيح اليه حقيقة .

ج ٢ ص ٢٠٥ – الخامس : إن العهد والفِطَر والعقول والشرائع وجميع كتب الله المنزلة على خلاف ذلك ، وانه سبحانه فوق العالم بذاته ، فالخطاب بفوقيته ينصرف الى ما استقر في الفطر والعقول والكتب السماوية .

ص ٢٠٧ - وقد جاءت فوقية الرب مقرونة بـ « مِن » كقوله تعالى: « يخافون ربّهم من فوقهم »[1] فهذا صريح في فوقية الذات ، ولا يصح حمله على فوقية الرتبة لعدم استعمال اهل اللغة له .

---

(١) سورة النحل ، الآية : ٥٠

اقوال الائمة الأربعة وغيرهم في ذلك

ج ٢ ص ٢١٣ – وقال الشافعي : السّنة التي أنا عليها ورأيت أهل الحديث عليها ، مثل سفيان ومالك وغيرهما الاقرار بشهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله – إلى أن قال : وانّ الله فوق عرشه في سمائه ، يقرب من خلقه كيف شاء ، وينزل الى سماء الدنيا كيف شاء ، ذكره الحافظ عبد الغني في كتاب « اعتقاد الشافعي » وقال حنبل : قلت لأبي عبد الله : ما معنى قوله تعالى: « وهو معكم »[1] وقوله : « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم »[2] قال : علمه محيط بالكل ، وربنا على العرش بلا حدّ ولا صفة ، أراد أحمد بنفي الصفة نفي الكيفية والتشبيه ، وبنفي الحدّ نفي حدّ يدركه العباد ويحدّونه. وقال ابو مطيع الحكم بن عبد الله البلخي : سألت أبا حنيفة عمن يقول : لا اعرف ربي في السماء أم الأرض ! ! قال : قد كفر ، لأن الله تعالى يقول : « الرحمن على العرش استوى »[3] وعرشه فوق سبع سموات ، فقلت انه يقول : « على العرش استوى » ولكن لا يدري العرش في السماء أم في الأرض ، فقال إذا أنكر أنّه في السماء فقد كفر . وقال مالك : الله في السماء ، وعلمه في كل مكان ذكره الطلمنكي وابن عبد البر وعبد الله بن أحمد وغيرهم .

نفي الحكم عليه بما يمنع وجوده

ص ٢٦٣ – ونفي دخوله في العالم وخروجه عنه يقتضي امتناع وجوده ،

---

(١) سورة الحديد ، الآية : ٤

(٢) سورة المجادلة ، الآية : ٧

(٣) سورة طه ، الآية : ٥

وهو أنقص من مجاورته للعالم ، فان كان هذا نقصاً فالحكم عليه بما يمنع وجوده أدخل في النقص ، وان لم يكن ذلك النفي نقصا ولا مستلزما للنقص لم يكن في الاثبات نقص .

ج ٢ ص ٢٦٤ — الوجه الثاني : إن الله سبحانه قد بين في القرآن غاية البيان أنه فوق سمواته ، وأنه مستو على عرشه ، وانه بائن عن خلقه ، وانّ الملائكة تعرج اليه وتنزل من عنده ، وأنه رفع المسيح اليه ، وانه يصعد اليه الكلم الطيب ، الى سائر ما دلت عليه النصوص من مباينته لخلقه ، وعلوه على عرشه وهذه نصوص محكمة فيجب ردّ المتشابه اليها .

ج ٢ ص ٢٦٦ — فاذا قيل : الله مع خلقه بطريق العموم كان من لوازم ذلك علمه بهم ، وتدبيره لهم ، وقدرته عليهم ، واذا كان ذلك خاصًّا كقوله : « إنّ الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون »(١) كان من لوازم ذلك معيته لهم بالنصرة والتأييد والمعونة ، فمعية الله تعالى مع عبده نوعان : عامّة وخاصة ، وقد اشتمل القرآن على النوعين .

ج ٢ ص ٢٧٧ — لا يجوز التوجه الى الله تعالى إلا من جهة العلوّ ، وإن ذلك لا ينافي إحاطته بالعالم وكونه في قبضته .

وقال رحمه الله في كتابه : « اجتماع الجيوش الاسلامية على المعطلة والجهمية » في بيان أنّ الله تعالى مستو على عرشه ، بائن من خلقه ، قاهر فوق عباده ، وفي استبعاد الحلول والاتحاد ، وفي بطلان ان الله تبارك وتعالى بذاته في كلّ مكان مع العباد ، قال :

ص٨٦ : فان احتجوا بقوله تعالى « وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله »(٢)

---

(١) سورة النحل ، الآية : ١٢٨

(٢) سورة الزخرف ، الآية : ٨٤

وبقوله تعالى: « وهو الله في السموات وفي الأرض »[1] وبقوله تعالى: « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم، ولا خمسة إلا هو سادسهم»[2] وزعموا أنّ الله في كل مكان بنفسه وذاته تبارك وتعالى جَدّه، قيل: لا خلاف بيننا وبينكم وبين سائر الأمة أنه ليس في الأرض دون السماء بذاته، فوجب حمل هذه الآيات على المعنى الصحيح المجمع عليه، وذلك أنّه في السماء إله معبود من اهل السماء، وفي الأرض إله معبود من اهل الأرض، وكذا قال أهل العلم بالتفسير، وظاهر هذا التنزيل أنه على العرش.

وأما قوله في الآية الأخرى « وفي الأرض إله » فالاجماع والاتفاق قد بيَّن أن المراد أنه معبود من أهل الأرض فتدبّر هذا فانه قاطع.

ص ٨٧ قال: وأما احتجاجهم بقوله تعالى: « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم » فلا حجة لهم في ظاهر هذه الآية لأنّ علماء الصحابة والتابعين الذين حُمل عنهم التأويل في القرآن، قالوا في تأويل هذه الآية: هو على العرش وعلمه في كلّ مكان. وما خالفهم في ذلك أحد بقوله.

---

(١) سورة الانعام، الآية: ٣

(٢) سورة المجادلة، الآية: ٧

ملاحظة مهمة

كتب الينا من جُدّة الاستاذ الشيخ محمد نصيف الشهير ، يوجّه نظرنا الى ما نُشر في كتاب (فهرس الفهارس ج ١ ص ٢٠٦) من أن ابن تيمية قال عن القاضي عياض كلمة تحقير وتصغير له في كتابه «الاستغاثة» المطبوع ، مع أن الكلمة هي إيضاح وبيان ، نقلها الامام عن علماء هذا الشان ، وأثنى هو على القاضي وخصّه بمزيد الاحسان ، وها هي ذي : قال (في ص ٧) :

ومثل القاضي عياض بن موسى البستي مع علمه وفضله ودينه ، أنكر العلماء عليه كثيراً مما ذكره في شفائه من الأحاديث والتفاسير التي يعلمون أنها من الموضوعات والمناكير ، مع أنه قد أحسن فيه وأجاد ، بما فيه من تعريف حقوق المصطفى خير العباد ، وفيه من الأحاديث الصحيحة والحسان ، ما يفرح به كل من عنده إيمان ، اهـ

فهل لعالم مخلص منصف يتحرّى الحقّ أن يقول غير ما قاله شيخ الاسلام؟ وهو القائل في كتابه المطبوع مع «الاستغاثة» (استحباب زيارة خير البرية الزيارة الشرعية) (ص٧٥) ما نصّه : والله سبحانه خصّ رسوله بما خصه به تفضيلاً له وتكريماً لما يجب من حقه على كل مسلم في كلّ موضع ، فانّ الله أوجب الايمان به ومحبته وموالاته ونصره وطاعته واتباعه على كل أحد في كل مكان ، وأمر من الصلاة عليه والسلام عليه في كل مكان ، ومن سؤال الوسيلة له عند كل أذان ، ومن ذكر فضائله ومناقبه وما يعرف به قدر نعمة الله به على أهل الأرض اهـ هكذا وإلا فلا لا .

وكتب العلاّمة الجليل الشيخ محمد بن عبد العزيز آل مانع في قطر يقول:
الاستاذ أبو زهرة رمى شيخ الاسلام بالتجسيم ، وقال عنـــه انه كردي .
والصحيح أنه عربي نميري ، وذلك مذكور في مصوّرة شرح بديعة البيان لابن ناصر الدين وبخطه عند ترجمة جـــدّه في الصفحة (٤١٠) وعند ترجمته في الصفحة (٤٢٤) .

وأقول: أما مسألة الرمي بالتجسيم فقد أجبنا العلاّمة أبا زهرة عنها في طليعة هذا الكتاب، وأما كونه عربياً فلأنه منسوب الى قبيلة نمير العربية ، جاء في لسان العرب :ونمير أبو قبيلة من قيس، وهو نمير بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن ، ونمر ونمير قبيلتان ، والاضافة الى نمير نميري اهـ ج ٢٢ ص ٢٣٦ من طبعة بيروت .

حول مقال النصير الطوسي
والوزير ابن العلقمي والامام ابن تيمية

وقفت على ما كتبه زميلنا العلامة الشيخ سليمان ظاهر بعنوان : (نصير الدين الطوسي الحكيم الرياضي الفلكي) ومدار بحثه على أن النصير إمامي اثنا عشري ، لا نصيري ولا إسماعيلي ، كما يرى ابن تيمية في رسالته التي يرد بها على النصيرية .

ومن حجته في ذلك أنه ألف في أصول المذهب الامامي وفروعه ، وأنه مدفون بمشهد الامام الكاظم موسى بن جعفر الصادق ، (الذي تنكر إمامته الاسماعيلية الآغاخانية والبهرة ويرونها محصورة في إسماعيل أو ولده الحبيب .

وأجاب بأنه كان مكرها على صلته بهولاكو حفيد جنكيز التتري ، وصحبته له ، كما كان مكرها من زعيم الاسماعيلية ركن الدين على المقام معه في قلعته برتبة الوزير والمشير ، وكان له من هولاكو مثل هذه الرتبة .

قال الاستاذ (الظاهر) « أما ما كان للنصير من أثر مبرور ، وعمل مشكور ، في هذه الصحبة بانقاذ من أنقذه من سيف هذا الظالم من المسلمين على اختلاف مللهم فقد بلغ عشرات الألوف ، وما استبقى عليه من الثروة العلمية وكتبها المعرضة للحريق والغرق ، فقد بلغت مآت الألوف (قال :) وأما ما خدم به علم الافلاك

فحسبه ابتناؤه قبة ورصداً عظيما في مراغة ، وقد ولاّه هولاكو جمع الاوقاف في سائر بلاده » .

ونقل عن شمس الدين العرضي ان نصير الدين أخذ من هولاكو بسبب عمارة هذا الرصد ما لا يحصيه الا الله تعالى خارجا عن الجوامك (الرواتب) التي للحكماء والقومة .

ثم قال : فأنت ترى من هذا العرض القليل من مآثر النصير التي ما كان يتوقع تحقيق جزء منها لولا صحبته واستيزاره لهولاكو اللذان كانا للمسلمين رحمة لا نقمة ، وخيراً لا شراً .

ثم عجب لما ذهب اليه ابن تيمية من خلاف هذا ، فقال: « وإن من العجيب أن نرى الامام العلامة ابن تيمية وهو معاصره ، وممن لا يتعذر عليه تمحيص الحقائق، فلا يبخسه حقه . . .

فيقول فيه في رسالته الرد على النصيرية « ثم أن التتار ما دخلوا بلاد الاسلام ، وقتلوا خليفة بغداد وغيره من ملوك المسلمين إلا بمعاونتهم ومؤازرتهم، فان مرجع هؤلاء الذين كان وزيرهم وهو النصير الطوسي ، كان وزيراً لهم بالألموت وهو الذي أمر بقتل الخليفة » .

قال الزميل الكريم : ومن يقابل ما عزاه الامام ابن تيمية الى النصير . بما كتبه العلامة محمد بن شاكر بن احمد الكتبي المتوفي ٧٦٤ قبل وفاة النصير بثمان سنين بكتابه «فوات الوفيات» يجد أن الكتبي وقد تأخر عصره عن عصر ابن تيمية ستا وثلاثين سنة - كان ما كتبه وقد سكنت العاصفة ... هو المعقول وهو الأحق بالاتباع وببراءة النصير مما عزي اليه ، وهو ما لم يعرض له الكتبي بقليل أو كثير .

وأخيراً عزا الأستاذ سقوط الخلافة العباسية الى لهو الخليفــة المستعصم ولعبه ، وكلفه بسماع الاغاني وطربه ، ناقلا ذلك عن المؤرخ ابن الطِقْطِقى في كتابه : « الفخري في الآداب السلطانية » الى قوله : وكان أصحابه مستولــين عليه ، وكلهم جهّال من أراذل العوام ، إلا وزيره مؤيد الدين محمد بن العلقمي ، فانه كان من أعيان الناس ! وعقلاء الرجال ! ! وكان مكفوف اليد مردود القول ، يترقّب العزل والقبض صباح مساء » .

وختم الزميل الاستاذ مقاله بأن الحافز له الى هذا البحث هو عزو البحّاثه العزّاوي النصير الطوسي الى الفرقة الاسماعيلية قال : وكأنه تابع ابن تيمية في ذلك ، والنصير من أقطاب علماء الامامية كما أوضحناه (قال :) وللكاتب الشكر على تنبيهنا بمقاله الممتع على دفع تلك الشبهة ، ودحض ما حام حول النصير من التهم في سقوط الخلافة العباسية ، وهو منها بريء والحق أحق بالاتباع . اه

وهنا يجول في الخاطر أمور ، أرى لزاماً علي أن أوجه اليها نظر الاستاذ العزيز ، ولو بالكلم الوجيز فأقول :

(١) إنه سها بجعله وفاة ابن شاكر الكتبي قبل وفاة النصير الطوسي بثمان سنين ، لأن النصير توفي سنة ٦٧٢ هـ وصـاحب (الفوات) سنة ٧٦٤ هـ فيكون توفي بعده بـ (٩٢) عاما ، لا قبله بثمان سنين .

(٢) لما توفي النصير كان لابن تيمية أحد عشر عاما ، اذ ولادته كانت سنة ٦٦١ ، فهو لم يعاصره معاصرة صحبة ولا مكاتبة .

(٣) استطرد عند ذكر موسى الكاظم الى الاسماعيلية الآغاخانية والبهرة ومن الاسماعيلية من ليسوا باطنية ولا حلولية ، فما معنى التقييد (بالآغاخانية) وهم وزعيمهم مَن رأينا وعرفنا ؟ ومثلهم البهرة في الهند ؟

(٤) لم ينفرد الامام ابن تيمية بما ذكره من أمر النصير الطوسي ، بل كتب التاريخ قد صرحت بهذا ، وإني ابدأ منها بما صرح به ميرزا محمد باقر الموسوي المؤرخ الشيعي في تاريخه (روضات الجنات) عن النصير الطوسي في ترجمته له ، قال ما نصه :

« ومن جملة أمره المشهور ، والمعروف والمنقول حكاية استيزاره للسلطان المحتشم في محروسة إيران هولاكو خان بن تولى خان بن جنكيز خان من عظماء سلاطين التاتارية وأتراك المغول ، ومجيئه في موكب السلطان المؤيد مع كمال الاستعداد ، الى دار السلام بغداد ، لارشاد العباد ، وإصلاح البلاد ؛ وقطع دابر سلسلة البغي والفساد ، وإخماد نائرة الجور والالباس ، بابداد دائرة ملك بني العباس ، وإيقاع القتل العام ، من أتباع أولئك الطغام ، الى أن أسال من دمائهم الاقذار ، كأمثال الأنهار ، فانهار بها في ماء دجلة ، ومنها الى نار جهنم ، دار البوار ، ومحل الأشقياء الاشرار ، وقد كفينا مؤونة تفصيل هذه الواقعة المشتهرة ؛ بما رسمه أرباب التواريخ المعتبرة ، في أحوال السلاطين المغولية المستطرة . اه

هذا ما قاله هذا المؤرخ الشيعي ، والظاهر أن اصلاح الحال ، هو بالابادة والاستئصال ! ! وهذه شماتة ظاهرة في الدنيا والآخرة ، والى الله المصير .

وقال المؤرخ السبكي في الطبقات : « وأما الخليفة فقيل أنه (أي هولاكو) طلبه ليلا ، وسأله عن أشياء ، ثم أمر به ليقتل ، فقيل لهولاكو ان هذا ان أريق دمه تظلم الدنيا ، ويكون سبب خراب ديارك ، فانه ابن عم رسول الله ﷺ وخليفة الله في أرضه ، فقام الشيطان المبين نصير الدين الطوسي وقال : يقتل ولا يراق دمه ، وكان النصير من أشد الناس على المسلمين » .

وبعد أن قتلوا الخليفة والأمراء عن آخرهم ، « مـــدّوا الجسر وبذلوا السيف ببغداد ، واستمر القتل ببغداد بضعة وثلاثين يوما ، ولم ينـــج إلا من أختفي .. » ثم حفرت الدور وأخذت الدفائن والاموال التي لا تعد ولاتحصى.. « فألزم المسلمون بالفطر في رمضان وأكل الخنزير وشرب الخمر . . . » وأعطى دار الخليفة لشخص من النصارى ، وأريقت الخمور في المساجد والجوامع ، ومنع المسلمون من الاعلان بالأذان ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، هـــذه بغداد لم تكن دار كفر قط ، وجرى عليها هذا الذي لم يقع قط من منذ قامت الدنيا مثله » اهـ .

فأين من أنقذه النصير من سيف هذا الظالم بعد هـذا القتل العام الذي أجراه في دار السلام ، وهل ما أخذه من هولاكو من المال الذي لا يحصيه إلا الله تعالى ـ بسبب عمارة الرصد ـ خارجاً عن الجوامـــك (الرواتب) التي للحكماء والقومة ، ـ هل هو إلا من الأموال التي نهبها هولاكو (بعد التقتيل العام) وهي لا تعد ولا تحصى ؟ فأين عدل الفلاسفة وحكمتهم ؟ وأين نصحهم لهولاكو وتأثيره ؟ ؟ وهل الكتب التي استبقاها النصير ـــ وقد بلغت مآت الألوف ـــ إلا من المنهوبات أيضاً كالأموال ، ـ ولو نقل الاستاذ عن ابن شاكر في فواته ، كما نقل عنه الأستاذ الزركلي في أعلامه وسركيس في معجمه ، لظهر الحق للعيان ، وتبيَّنت الاساءة من الاحسان ، ففي (ج ٣ ص ٩٧٤) من الأعلام : « واتخذ خزانة عظيمة ملأها من الكتب التي نهبت من بغـــداد والشام والجزيرة ، اجتمع فيها نحو أربعمائة ألف مجلد » ومثلها في معجم سركيس (ص ١٢٥٠) وانظر (ص ١٤٩ ج ٢) فالأستاذ لم يصرح بأنها من المنهوبات ، أو بأنها أمانة بيد الطوسي ومن معه ، يجب ردّها الى أهلها .

وأين هذا مما نشرناه في مجلة المجمع العلمي تحت عنوان شجاعة الامام

(ابن تيمية) وغيرته على الدين والوطن وهو : « أراد ملك الكرج أن يفتك بسكان دمشق من المسلمين ، ويسبي ذراريهم ونساءهم ، فبـــذل للسلطان غازان — وهو أول من أسلم من ملوك المغول — أموالاً طائلة على أن يمكنه منهم ، فلما اتصل الخبر بالامام قام من فوره ، وانتدب رجالاً من الوجوه والكبراء وذوي الأحلام الرجيحة . . . . . بذل نفسه في طلب حقن دماء المسلمين فبلغه الله تعالى ما أراد ، وكان أيضاً سبباً لتخليص غالب أسارى المسلمين من أيديهم ، وردهم على أهليهم ، وحفظ حريمهم ، ولما حضروا مجلس غازان قدم لهم طعام فقال : كيف آكل من طعامك وكله مما نهبتم من أغنام الناس ، طبختموه بما قطعتم من أشجار الناس ؟؟ ومن مساعيه المشكورة في خدمة أبناء الملل السماوية ، سعيه في إطلاق أســرى المسلمين والمسيحيين واليهود على السواء ، وإصراره على ذلك ، ولم يرض باطلاق أسارى المسلمين فقط :

إذا اشتبكت دموع في خدود   تبين من بكى ممن تباكى !

(سقوط الخلافة العباسية على يد الوزير ابن العلقمي)

نقل الأستاذ الزميل قول من قال في وصف أصحاب الخليفة المستعصم : « وكلهم جهال من أراذل العوام (قال) إلا وزيره مؤيد الدين محمد بن العلقمي ، فانه كان من أعيان الناس ، وعقلاء الرجال !! وكان مكفوف اليد ، وأراني مضطراً أن أذكر ما أغفله الزميل من كتب التاريخ حفظاً للحقيقه أن تضيع قال الاسحاقي في تاريخه أخبار الأول (ص ١٠٨) : وكان سبب زوالها — أي الخلافة العباسية — استيلاء مماليكهم وأمرائهم عليهم ، وتفويض أمور المملكة اليهم ، وامتهانهم غاية الامتهـــان ، الى أن صاروا أسماء بلا مسميات ، وصوراً هيولى يتصرف فيها بالمحو والاثبات ، ومن أعظم أسباب زوالها أن مؤيد الدين

العلقمي كان وزير المستعصم ، وكان رافضياً مستولياً على المستعصم عدواً له ولأهل السنّة ، يداريهم في الظاهر وينافقهم في البـــاطن ، وكان يريد إزالة الخلافة من بني العباس وإعادتها الى العلويين . . . وصار يكاتب هولاكو ويطمعه في ملك بغداد ، ويطالعه بأخبارها ، ويعلمه كيفية أخذهـا ، ويخبره بضعف الخليفة وانحلال العسكر عنه ، وصار الوزير يُحَسِّن للمستعصم توفير الخزينة وعدم الصرف على العسكر ، فقطع أرزاقهم وشتت شملهم ، بحيث انه أذن مرة لعشرين ألف مقـاتل أن يذهبوا الى أين أرادوا ، ووفر علوفاتهم في الخزينة ، وأظهر للمستعصم أنه وفر من علوفات العسكر أموالاً عظيمة في بيت المال ، فأعجب المستعصم رأيه ، وكان يحب المال ويجمعه ، وما كان يعـلم أنه يجمعه لعدوّه :

يخبّركم أنـــه ناصـــح ... وفي نصحه ذَنَب العقرب !

الى أن قال (ص ١١٠) : ثم ان المستعصم ومن معـــه لم يزل في غفلته لاخفاء ابن العلقمي سائر الأخبار عنه الى أن وصل هولاكو الى بلاد العراق واستأصل من بها ، وتوجه الى بغداد ، فاستيقظ الخليفة من نوم الغرور ، وندم على فعلته حيث لا ينفعه الندم ، وجمع من قدر عليه وبرز الى قتـال هولاكو ، فوقع المصاف والتحم القتال ، ووقع الطراد والنزال ، واستمر من إقبال الفجر الى إدبار النهار » ، الى آخر ما قال .

وانقل هنا ما سجّله في كتابه الاسلام والحضارة العربية ، رئيس مجمعنا السابق الأستاذ كرد علي رحمه الله ، فكتابه جامع التواريخ وخلاصتها ، وقوله فصل في مثل هذه النوازل وأسبابها ، قال (ص ٣٠٢ ج ١) :

وبينا كانت في هذا الشرق القريب تتألف كتلة صغيرة تدفع الصليبيين عن

سرة بلاد الاسلام مصر والشام ، فتخرب مدن وحصون ، وتندك معالم وجوامع
كان جنكيز - يخرب في اواسط آسيا بلاد المسلمين ، ولم تكد تدفع الشام عنها
عادية الحروب الصليبية حتى جاء هولاكو بغداد - يخربها ، ويقتل الخليفة
المستعصم . ويقضي على جلة الفقهاء ورجال الدولة ، ويضع السيف في دار السلام[١]
أربعين يوماً ، ويستخرج الاموال والتحف بأنواع العذاب ، ويحرق معظم تلك
المدينة الساحرة ؛ وزادت عدة القتلى عن ثمانمائة الف ، عـــدا الاطفال ومن
هلكوا في السراديب والقنى والآبار ، وأحرق قبور الخلفاء ونبش عظامهم ،وبنى
بكتب العلماء اصطبلات الخيول وطوالات المعالف عوضاً عن اللبن . وقيل إنّ ماء
دجلة تغير لونـه لكثرة ما ألقى فيـه التتر من الكتب والاوراق ، وقيل أنه أقام
بكتب العلم ثلاثة جسور على دجلة .

هذا عدا مانهب من البلاد التي احتلها ؛ فملأ في مراغة خزانة عظيمة من
الاسفار ، نهبها من بغداد والشام والجزيرة ، حتى تجمع فيها زيادة على أربعمائـة
الف[٢] مجلد .

(قال) ومن أعظم البلاء في القضاء على الخلافة العباسية بدار السلام أن
الرافضة عاونوا[٣] هولاكو على المسلمين لما جاء خراسان والعراق والشام ،
كما كانوا عاونوا جـدّه جنكيز ، قال ابن تيميـــة : وكان العلقمي
وزير الخليفة منهم ، فلم يزل يمكر بالخليفة والمسلمين ، ويسعى في قطـــع أرزاق
عسكر المسلمين وضعفهم ، وينهى العامة عن قتالهم ، ويكيد أنواعاً من الكيد ،

---

(١) الحوادث الجامعه ، والتجارب النافعة ، في المائة السابعة لابن الفوطي .

(٢) فوات الوفيات للكتبي .

(٣) منهاج السنة لابن تيمية .

حتى دخلوا فقتلوا من المسلمين ما يقال انه بضعة عشر ألف ألف انسان[1] ، أو أكثر أو أقل ، ولم يرد في الاسلام ملحمة مثل ملحمة الترك الكفار المسمين بالتتر . اهـ

قلت : فأين كان النصير الطوسي ، وماذا عمل في هذه المذابح العامة ، وأين ما كان له (من أثر مبرور ، وعمل مشكور في هذه الصحبة بانقاذ من انقده من سيف هذا الظالم من المسلمين على اختلاف مللهم ، فقد بلغ عشرات الألوف) وما ندري من أين نفحه الزميل الكريم هذه المبرّة ، وهو وزير الكفرة الفجرة ونصيرهم على الاسلام وأهله ، وقد رأينا له مأثرة لم يذكرها الاستاذ لأنها مزرية بالحكماء ، وهي من ترجمته في فوات الوفيات ، وبجملها أن هولاكو غضب على علاء الدين الجويني صاحب الديوان فأمر بقتله ، فتوجه النصير وبيده عكاز وسبحة ثم اضطر لاب ، وخلفه من يحمل مبخرة وبخوراً وناراً ، فرآه خاصة هولاكو فأخبروه ، فأدخل عليه فأشار النصير عليه باطلاق من في الاعتقال والعفو عمن له جناية ، فأمر هولاكو بذلك خوفا على ملكه ، وانطلق صاحب الديوان في جملة الناس « ولم يذكره النصير الطوسي ، وهذا غاية في الدهاء ، بلغ به مقصده ودفع عن الناس أذاهم » قلت هذه مسألة شخصية لم يرد بها الوزير النصير غير علاء الدين ، وهو زميله ، ولو استطاع تخليصه وحده بأية وسيلة ، لما أجري هذه الحيلة ، ثم أليس في العفو عن أصحاب الجنايات مضيعة لحقوق المجني عليهم ؟

ونختم القول بكلمة كاشفة عن مرادا بن تيمية في وصفه للنصير — في

---

(١) اي مجموع ما قتله التتر .

ردّه على النصيرية — بما وصفه به ، نوردها بلسان تلميذه الامام ابن القيم ، قال في اغاثة اللهفان الكبرى[1] :

ولما انتهت النوبة الى . . . النصير الطوسي وزير هولاكو ، شفا نفسه من أتباع الرسول وأهل دينه ، فعرضهم على السيف ، حتى شفا إخوانه من الملاحدة ، واشتفى هو ، فقتل الخليفة[2] والقضاة والفقهاء والمحدثين ، واستبقى الفلاسفة والمنجمين والطبائعيين والسحرة ، ونقل أوقاف المدارس والمساجد والرُّبُط إليهم ، وجعلهم خاصته وأولياءه . (إلى أن قال) :

وصارع محمدُ الشهرستاني ابن سينا في كتاب سماه (المصارعة) أبطل فيه قوله بقِدَم العالم وإنكار المعاد ، ونفيَ علم الرب تعالى وقدرته وخلقه العالم ، فقام له نصير الالحاد وقعد ، ونقضه بكتاب سماه « مصارعة المصارعة » ووقفنا على الكتابين — نصر فيه (أي النصير) أن الله تعالى لم يخلق السموات والأرض في ستة أيام ، وأنه لا يعلم شيئاً ، وأنه لا يفعل شيئاً بقدرته واختياره ، ولا يبعث من في القبور » اهـ .

ومن أخف ما قيل في النصير ما جاء في مفتاح السعادة ، (ج ١ ص ٢٦١) : إلا أنه تجاوز الله عنه ، كان غالياً في التشيع ، كما يفصح عنه المقصد السادس في التجريد . وكان يُحكى عنه مع ذلك أمور لا تناسب رتبته في العلم حيث كان في معنى الوزير للكافر المسمّى بهولاكو ملك الترك الطغاة ، وهو الذي أغار على

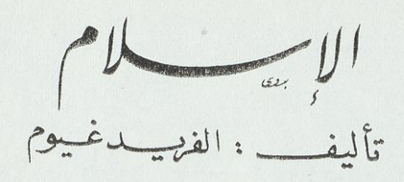
---

(١) ص ٢٦٧ ج ٢

(٢) علق الاستاذ المصحح على هذا بما محصله ان التتر الذين دخلوا بغداد هم الذين قتلوا الخليفة بممالأة ابن العلقمي وزير المستعصم ، وكان النصير الطوسي قاضي التتار ومشيرهم .

بلاد المسلمين وخربها وانقطعت بسببه سلسلة الخلافة العباسية في بغداد ، وجرى ما جرى مما اشتهر أمره ويطول شرحه » .

وجملة القول : إن اصرح ما قرأناه في ترجمة النصير وعقيدته هو كلام ميرزا محمد الباقر صاحب روضات الجنات المؤرخ الاصفهاني . فالله أعلم بحقيقة حاله ومآله .



تأليف : الفريد غيوم

ترجمة : محمد مصطفى هدّارة ، والدكتور شوقي اليماني السكري

الطبعة الاولى سنة ١٩٥٨ (القاهرة)

كتب هذا المستشرق كتابه (الاسلام) وضمنه مطاعن في الدين الخالص ، والقرآن الحكيم ، وعقيدة السلف الصالح ، وفي حكمة تعدد الزوجات والطلاق في الاسلام ، وغير هذا مما ستراه ، فرأينا إثبات هذا الردّ في هذه الترجمة ، بيانا للحقيقة التي كان الامام ابن تيمية يحرص عليها ، ويرد على المنحرفين عنها ، لاسيما الطاعنين فيها ظلماً وعدواناً ، ردّاً لا هوادة فيه ، وهذه الاجوبة على افتئات مؤلف كتاب (الاسلام) وتخرصاته ، تفيد المنصفين ، والدارسين في المدارس الاجنبية ، وغيرهم من طلاب الحقيقة ، واليك مانشرته في مجـلة المجمع العلمي (م ٣٥ ص ٦٨١) :

هذا الكتاب مؤلف من عشرة فصول ، أولها في عرب الجاهلية ، وثانيها في حياة رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام ، والثالث في القرآن ، والرابع في الامبراطورية الاسلامية ، والخامس في حديث الرسول ﷺ ، والسادس الى العاشر في الفرق الاسلامية ، والفلسفة ونشأة العقائد ، والتصوف ، والاسلام في العصر الحديث ، وختمها بصلة الاسلام بالمسيحية .

إن المترجمين الكريمين قد ملكا ناصية البيان العربي ، ولولا إشعارنا بأن الكتاب مترجم لظننا بأنه مؤلف بلغة الضاد ، من وضوح العبارة وسلاستها ، وقد قدما له مقدمة عرّفا فيها القارىء بالمؤلف ، وأنه رئيس قسم الشرقين الأدنى والاوسط بمدرسة اللغات الشرقية ، وأستاذ اللغة العربية بجامعة لندن ، وأنه خدم في فرنسا خلال الحرب العالميـــة الأولى ، ثم عمل بالمكتب العربي بالقاهرة .

ولا يخفى أن الاجنبي الذي لايؤمن بالقرآن ، ولا يدين بالاسلام ، ولا يتلقى العلم عن أهله ، يبقى علمه فيها ضعيفاً ، فكيف إذا بدا له أن يعترض على ما ورد في القرآن من حكم وقواعد عامة لنظم الحياة ؟ وهذا هو الذي لا حظه الأستاذان المترجمان ، فقد قالا في المقدمة : « وقد لاحظنا في هذا الكتاب خروج غيوم عن المنهج العلمي السليم في كثير من الاحيان ، لانه كان يثبت بعض الروايات المفردة الشاذة ، ويبني عليها أحكاماً ، ويرتب عليها نتائج ، فيقع بذلك في أغراض ظاهرة ، وهو من جهة أخرى لا يذكر المصدر الذي أخذ منه هـــذه الرواية أو تلك . وهذا ـــ الى جانب خروجه عن المنهج العلمي ـــ قد سبب لنا متاعب كثيرة في البحث عن هذه المصادر ، من أجل ذلك قام بالتعليق على الكتاب أحد المترجمين ، وهو الاستاذ محمد مصطفى هدّاره » .

ولعمري إنها مآخذ على المؤلف لا يستغني عنهـــا مستشرق تهمه معرفة الحقيقة ، والوقوف عندها ، وقد دفع إليّ المجمع العلمي هذا الكتاب ، فقرأته بدقة وإمعان ، فوجدت ما تركه الأستاذ المعلق من الأغلاط أكثر مما ذكره ، فلم يسعني إلا أن أوجه أنظار المؤلف والقراء الى تصويب الخطيئات التي لا يصح السكوت عنها .

وقـــد اقتديت بالاستاذ هدارة بالاستغناء بالكلم الوجيز عن التطويل ، وبالله التوفيق .

ص : ٦ كان أجداد الرسول وأسلافه من الوثنيين .

ج : إنهم لم يعرفوا بعبادة الاوثان ، بل كانوا سادة قريش ، وسدنة البيت الحرام ، وقد قال تعـالى خطاباً لنبيه « لتنـذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون » يس : ٦

ص : ٨ والصلة غير واضحة بين هذا الاسم « الله » وبين كلمة (إله) .

ج : إن لفظ « الله » هو علم على خالق الكون ومسخره لعباده ، قال تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ، وسخر الشمس والقمر ، ليقولن الله » العنكبوت : ٦١ ، وأما لفظ الإله فهم يطلقونه على ما يعبدون من دون الله ، كما قال : « ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله » يونس : ١٨

ص : ٢٢ و ٢٣ تعرض المؤلف لسورة الفيل في القرآن وقصته .

ج : وجه العبرة في القصة أن يؤخذ من استعز بالفيل ــ وهو أضخم حيوان من ذوات الأربع جسما ــ ويهلك بحيوان صغير لا يظهر للنظر ، حيث ساقه القدر ، فأوصل الى الجيش المعتدي مادة الجدري أو الحصبة فأهلكته .

ص : ٥٢ والنتيجة المؤسفة التي تخرج بها من هذه الآيات أنهـــا تجيز إطـلاق لفظ (مشرك) البغيض على اليهود والنصارى ، وكانت ــ حتى ذلك الوقت ــ تطلق على الكفار الذين يعبدون بنات الله ، ويشركون معـــه آلهة آخرين .

ج : لم يكن لفظ (المشرك) في القرآن عنواناً على أهل الكتاب ، وإنما

هو عنوان على الوثنيين ، وقد قال « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصائبين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ، إن الله يفصل بينهم يوم القيامة ، إن الله على كل شيء شهيد » الحج ١٧ ، وإنما وعظهم ونهاهم عن الشرك الذي طرأ عليهم بقوله : « يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ، ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وكلمته القاها الى مريم ، وروح منه ، فآمنوا بالله ورسله ، ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيراً لكم ، إنما الله إله واحد ، سبحانه أن يكون له ولد ، له ما في السموات وما في الأرض ، وكفى بالله وكيلا » النساء : ١٧١

ص : ٧٠ ومن الاعمال الهامة في الحج تقبيل الحجر الأسود الموضوع في جدار الكعبة .

ج : إن الطواف حول الكعبة من مناسك الحج ، والبدء من جانب الحجر الاسود ، ولكل شوط أدعية وأذكار ، فاذا أمكن الحاج أن يقبل الحجر أثناء مروره به أو يلمسه فحسن ، وإلا أشار اليه ، وهو من وضع أبي الانبياء وإمام الموحدين (إبراهيم عليه السلام) ، فتقبيله شوق اليه ، لا عبادة له ، إذ هو حجر لا يضر ولا ينفع .

ص : ١٠٠ في المملكة الوهابية (حيث يسود المذهب الوهابي) .

ج : ليس للوهابية ، ولا للامام محمد بن عبد الوهاب مذهب خاص ، ولكنه رحمه الله كان مجدداً لدعوة الاسلام ، ومتبعاً لمذهب الامام أحمد بن محمد ابن حنبل .

ص : ١٥١ وقد كان تأثير مدرسته (أي سيد أحمد خان) التي أنشأها عظيما جداً ، فمن ذلك أنها أجبرت المسلمين الجادين على النظر بعين الاعتبار الى

الأضرار الاجتماعية الناجمة عن تعدد الزوجات والطلاق والرق ... الخ

ج : لي ثلاث كلمات في هذه المسائل الثلاث تبين حكمة كل منها :

١ ــ إن تعدد الزوجات والطلاق لم يختص بهما الاسلام ، وإنما كانا شائعين عند اليونان والرومان والعرب وغيرهم قبل الاسلام ، وقد أباحت القوانين الاوربية والاميركية الطلاق وتعدد الزوجات على ألا يجمع بينهن ، وأصبح ذلك عندهم مألوفاً ، من بعد أن كان محرماً ، ولكن التعدد في عرفهم يقصد به التنقل في اللذائذ ، والتمتع بأنواع الحياة والشهوات ، فكان ذلك من أكبر الدواعي لتناقص النسل ، لا لازدياده ، والسآمة من الحياة الزوجية لا الرغبة فيها .

أما التعدد الصحيح فله ضرورات ، منها أن تكون الزوج عقيما لا تلد ، أو عندها مانع من مرض أو زهد في الرجال ، أو دخلت في سن اليأس ، وهذه أسباب شخصية ، وأما السبب الاجتماعي العام في جميع الشعوب والاقوام ، فهو زيادة النساء على الرجال ، لا سيما بعد الحروب العامة التي يهلك فيها الملايين من المحاربين ، ويبقى الملايين من النساء بلا رجال ، فتعدد الزوجات هنا ضرورة اجتماعية ، لتجديد النسل ، وتكثير الايدي العاملة ، وهو من مصالح النساء التي تبقى محرومة من نعمة الحياة الزوجية والأمومة .

٢ ــ الطلاق لا يكون إلا عن ضرورة وبصيرة ، وذلك بأن يكون الزوجان قانعين بأن لا سبيل لبقائهما على الحياة الزوجية لموانع جسمية أو نفسية ، خَلقية أو خُلُقية ، تجعل صفو العيش كدرا ، وتعرض النسل للمهانة والشقاء ، فالفراق في هذه الحال نعمة لا نقمة ، والزوجان سعيدان به لا شقيان « وإن يتفرقا يغن الله كلاً من سعته » .

٣ ــ أما رق الافراد فقد بطل ، وأما استرقاق الشعوب فهو هو باق عند بعض الدول ، وقد قال الشاعر :

قتل امرئ في غابةٍ   جريمـــة لا تغتفر !

وقتـل شعب آمنٍ   مسألة فيهـا نظر !!

ص : ١٧٦ الآية المشهورة : « اقتلوا المشركين حيث ثقفتموهم » قيـل انها نسخت ما لا يقل عن (١٢٤) آية تحث على التسامح والصبر .

ج : لا توجد آية بهذا اللفظ ، وإنمـــا الآية « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » التوبة : ٥ ، « واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ، والفتنة أشد من القتل » البقرة ١٩١

والمسلم لا يقاتل ابتداءً ولا اعتداءاً ، وهذه الآيات يفسرها قوله تعالى : « أذِن للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله » الحج ٤٠ ، فقد أذن الله تعالى لمن قوتلوا وظلموا وأخرجوا من ديارهم ، بأن يدافعوا عن أنفسهم وبلادهم ، أما آية : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبروهم ، وتقسطوا اليهم ، إن الله يحب المقسطين » أما هذه الآية وأمثالها من آيات المودة والعدل ، والتسامح والصبر ، فباقية على حكمها لم تنسخ ، فليطمئن المؤلف.

ص : ١٨٠ فيجب أن يحرر النساء من هذا الإسار الذي فرض عليهن حياة الجهل والخيبة ، وأن يؤذن لهن بالخروج الى العالم ، ليأخذن المكان اللائق بهن في المجتمع .

ج : المرأة إنسان كامل كالرجل ، لها من الحقوق مثل ما له ، وعليهـا من الواجبات مثل ما عليه ، قال تعالى : « ولهن مثـــل الذي عليهن بالمعروف . وللرجال عليهن درجة » البقرة ٢٢٨ ، وتلك الدرجة واضحة في قوله تعـالى : « الرجال قوّامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبمـــا أنفقوا من

أموالهم » النساء : ٣٢ ، وقد فضل بعضهم على بعض بما خصّ به الرجال من مزيد صبر وجلد ، وبما ينفقون من أموالهم على الأهل والولد .

ثم إن الفتيات في عصرنا يحملن الشهادات الابتدائية والثانوية والعالية في العلوم والحقوق والأدب والطب ، ويحملن (الدكتوراه) في فن التربية والفلسفة، وقد شاركن الرجال في أكثر الاعمال ، وأخذن المكان اللائق بهن في الأسرة والمجتمع ، فما يطلبه المؤلف لهن هو تحصيل حاصل .

ملاحظات

وردني منذ أيام كتاب من هذا المستشرق الكبير (لم يؤرخ) مكتوب باللغة الانكليزية — عدا كلمات بالعربية — وقد ترجمه لنا بعض الأفاضل ترجمة حرفية ؛ استهله الكاتب بقوله : زميلي العزيز ، (وهو عضو في مجمعنا العلمي) وقد ضمنه :

١ — أنه ألّف كتابه (الاسلام) باللغة الانكليزية للجمهور العادي الذي يجهل العربية .

٢ — وأن هنالك عدة أخطاء في الترجمة العربية .

٣ — وأن إجابتي الى بعض انتقاداتي ستقودنا الى (جدال أو مناقشة) .

٤ — وأنه لا يتداخل أبداً في الأمور الدينية .

٥ — وأنه ناقل عن مدرسة سيد أحمد خان توجيه النظر الى الاضرار الاجتماعية الناجمة عن تعدد الزوجات والطلاق والرق .

وجوابي :

١ — إن الصديق العزيز الأستاذ خليل بك مردم — رحمه الله — هو الذي عهد إلي بالكتابة عليه ، جرياً على عادة مجمعنا العلمي في تحويل الكتب الدينية إليّ .

٢ — كان من حق المؤلف أن يكتب الى الأستاذين المترجمين ملاحظاته ، وهما ينشرانها له باللغة العربية .

٣ و ٤ — إن ما كتبه حول القرآن الكريم هو الذي أجبنا عنه واقتصرنا عليه ، وإني أجبت عن المسائل الثلاث : تعدد الزوجات والطلاق والرق ، ولم أسندها الى المؤلف .

وأختم هذا البحث بل هذا الكتاب كله، ببيان الحكمة في تعدد أزواج الرسول ﷺ وبخلاصة ما يجب المرأة المسلمة وعليها، وأعدّ هذين المبحثين من تمام دفاع الامام ابن تيمية عن الاسلام؛ وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب :

أمهات المؤمنين التسع، والحكمة في تعددهن بعد الهجرة

العصر المسمى بعصر النور والحقيقة، يجب أن تظهر فيه الحقيقة للعيان، وأن يمحو نورها ظلمة الباطل والارتياب. وقد كثر التساؤل في هذا العصر عن نساء النبي (ﷺ) وما الحكمة في جمعه بين تسع نسوة، ولم يبح لأحدٍ من أمته مثل هذا العدد، ويصمه المشوّهون للحقيقة بأنه كان أنانياً أو شهوانياً [برأه الله مما قالوا] ولو رجعنا الى التاريخ الصحيح في أزواج النبي (ﷺ) أمهات المؤمنين، لعلمنا أن التعدّد أو الجمع بين التسع لم يكن إلا بعد هجرته الى المدينة، في السنوات العشر الأخيرة من عمره (ﷺ).

أما في مكة فقد عاش فيها قبل الهجرة ثلاثة وخمسين عاما، لم يجمع في أثنائها بين زوجتين قط. والسيدة خديجة التي كانت أولى أزواجه وأم أولاده ـ ماعدا ابراهيم فانه من مارية القبطيّة ـ قد تزوج بها (أي بخديجة) وهي في الأربعين من عمرها، وهو في الخامسة والعشرين من حياته الشريفة، في نضارة الصبا وريعان الفتوة، وجمال الطلعة، وكمال الرجولة؛ وعاشت معه خمسة وعشرين عاما، ثم توفيت وهي عجوز، في الخامسة والستين من عمرها.

قضى حياة الشباب، وسن الحاجة الى النساء مع خديجة المرأة الثيب التي تزيد عليه في السن خمسة عشر عاما، ولم يتزوج عليها، ولا أحب أحداً بعدها اكثر من حبه لها، وكان طول حياته يذكرها، ويكرم صديقاتها ومعارفها، ولما قالت له عائشة : هل كانت إلا عجوزاً أبدلك الله خيراً منها؟ ـ تعني نفسها ـ

وكانت تدل بحداثة سنها وجمالها ، وكونها بنت صديقه الأول ، وصديقه الأكبر، أبي بكر رضي الله عنه . قالت : فغضب وقال : لا والله ما أبدلني الله خيراً منها ، آمنت بي إذ كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني بمالها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء .

من هذا الشاهد نعلم أن عفته (ﷺ) لانظير لها . ولو شاء لتزوج بحسان الأبكار ، ولو شاء أيضاً لتزوج عليها كما كان يفعل غيره ، لاسيما أن تعدد النساء كان في الجاهلية شائعاً جداً ، وليس له حد معين ، ولكنه عف ضميره ، ولم يمد عينيه الى زهرة الحياة وزينتها .

أما باقي أزواجه (ﷺ) فخمس من قريش ، وهن عائشة بنت أبي بكر ، وحفصة بنت عمر ، وأم حبيبة بنت أبي سفيان ، وسودة بنت زمعة ، وأم سلمة بنت أمية ، وأما الأربع الباقيات ، فهن صفية بنت حيي الخيبرية ، وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت جحش الأسدية ، وجويرية بنت الحارث المصطلقية ، رضي الله عنهن ، وليس فيهن كلهن بكر إلا عائشة .

والحكمة في تزوجه (ﷺ) بعد هجرته الى المدينة ببضع نسوة في بضع سنين ، هو العناية بإصلاح البيوت ، وتهذيب النفوس ، ونشر الفضيلة ، وإبطال عادة التبني القبيحة ، وأن تكون أزواجه قدوة حسنة لجميع النساء ، في تلقي العلم والحكمة ، والبر والرحمة ، والتقوى والعبادة ، والتربية والتعليم ، واليكم البيان :

جعل الله تعالى من بيوت نساء النبي (ﷺ) مدارس داخلية ، يتعلمن فيها الدين : عقائده ، وعباداته ومعاملاته وأخلاقه ، لاسيما مايختص منه بالنساء ، فقال تعالى : « وقرن في بيوتكن ولاتبرجن تبرج الجاهلية الأولى ، وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله » الآية[1] . فالقرار في البيوت من أجل أن

(١) سورة الاحزاب، الاية : ٣٣

يتعلمن ما يحتجن اليه ، وما يعظن به النساء والرجال ، ولهذا قال : « واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة » . وآيات الله براهينه وكتابه ، والحكمة سنة نبيه (ﷺ) المبينة لما في كتاب الله ، وإنما نهى عن التبرج الجاهلي ، لأن المتبرجات المائلات ، الكاسيات العاريات ، المائلات المميلات ، لا يأتي منهن معلمات ولا مربيات ، ونساء النبي (صلوات الله عليه) إنما وجدن عند النبي لتربية الأمة وتعليمها ، وإرشادها وإسعادها .

لما طلبن منه التوسع في الطيبات ، وملابس الزينة ، والترف في المعيشة ، نزلت في حقهن آيتا التخيير ، وهما قوله تعالى : « يا أيها النبي قل لأزواجك ، إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها ، فتعالين امتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا ، وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً »(1) لما نزلت هاتان الآيتان بدأ (ﷺ) بعائشة ، وكانت أحبهن اليه ، كما كان أبوها أعز الرجال عليه ، فقال : يا عائشة ؛ إني أريد أن أعرض عليك أمراً أحب أن لا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك ، قالت : وما هو يا رسول الله ، فتلا عليها الآية ، قالت : أفيك يا رسول الله أستشير أبوي ؟ بلى أختار الله ورسوله والدار الآخرة ؛ ثم خيرهن كلهن ؛ فاخترن ما هو خير لهن ، اخترن الله ورسوله والدار الآخرة .

أراد نساء النبي (ﷺ) أن يقمن حيث أقامهن الله ورسوله صالحات قانتات ، مربيات ومعلمات ، مرشدات ومفتيات ، فاخترن الدار الآخرة ونعيمها الدائم ، ورضوان الله الأكبر ، على حظوظهن من هذه الحياة الدنيا ، وزينتها ، ومتعها ومفاتنها ، فأثابهن الله كرامة لهن ، وجزاءً على ما اخترن ورضين ، بأن قصر نبيه (ﷺ) عليهن ، دون أن يتزوج أو يطلق أو يستبدل بهن غيرهن ،

---

(1) سورة الاحزاب ، الاية : ٢٩ و ٣٠

فقال عزّ شأنه : « لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدّل بهن من أزواج »[1] الآية ، والحكمة في تحريم تطليقهن هو استدامة سماعهن ما يتلى في بيوت النبي (ﷺ) من آيات الله والحكمة ، وذكر ذلك ونشره بين الناس ، لا سيما نساء الصحابة رضي الله عنهم ، وأية فائدة ترجى لهن أو لغيرهن من طلاقهن ، وهن أمهات المؤمنين تعظيما وتحريماً على الرجال ، كالأمهات ، نساء كلهن ثيبات (عدا السيدة عائشة) ومنهن من لها أولاد ، تزوجهن في سن الكهولة أو الشيخوخة ، وحين الحاجة الى التبليغ والتعليم ، وكان التزوج بهن قبل نزول آية التحديد بأربع نسوة ، فهي قد نزلت في نحو السنة الثامنة من الهجرة ، وكان تزوجه بآخرهن - وهي ميمونة بنت الحارث الهلالية في أواخر سنة سبع منها ، وحرم عليه تطليقهن لأنهن قد اخترن ما عند الله على زهرة الحياة الدنيا وزينتها ؛ على أنهن قد صرن أمهات المؤمنين ، فما الفائدة من طلاقهن وهن حرام على الرجال ، أوليست الحكمة في بقائهن عند هذا الزوج الكريم متعلمات ومعلمات ، ومثلا عليا في البر والتقوى وسائر الاعمال الصالحات ، أليست الحكمة في ذلك بلى؟ ثم بلى ، والحمد لله رب العالمين .

---

(١) سورة النساء ، الآية : ٣٢

المرأة المسلمة ما يجب لها وعليها

لما كانت الأمة في فجر نهضتها ، وعنفوان حياتها تمنت المرأة أن تشاطر الرجال القتال ، فقد روى عن مجاهد أن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت يارسول الله يغزو الرجال ولا نغزو ! وانما لنا نصف الميراث ! فنزلت الآية ، « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض »(١) .

أراد الله تعالى أن يختص كل واحد من النوعين بما تقتضيه فطرته ، وتعين عليه بنيته ، فكان نصيب الرجل العمل الخارجي ، وكان نصيب المرأة العمل المنزلي ، فتوزيع الأعمال بين الزوجين مراعى فيه نظام الفطرة ، (أو قانون الطبيعة) والحقوق والواجبات متبادلة بينهما ، فما من عمل يعمله الرجل خارج المنزل ، إلا وللمرأة عمل يقابله في الداخل ، لكنه خص بالسعي والكسب والحماية ، وخصت بالحمل والولادة والحضانة ، فتشبه النساء بالرجال في الأعمال الكسبية ، كتشبه الرجال بالنساء في الزينة ، كلاهما مفسد لنظام الفطرة ، هادم لبناء الأسرة ، معطل لحياة الجنسين الداخليه والخارجية .

وقد وردت أحاديث في النهي عن تشبه النساء بالرجال ، والرجال بالنساء ، والوعيد الشديد على فعله .

---

(١) سورة النساء ، الاية : ٣٢

وقد قال النبي ﷺ في المترجلات « أخرجوهن من بيوتكن » وروى البيهقي أن أبا بكر أخرج مخنثاً ، وعمر أخرج واحداً .

والسبب في ذلك كله ظاهر ، وهو أن للمرأة أعمالاً منزلية خاصة بها ، شاغلة لها عن مشاركة الرجل في أعماله ، وهي الزوجية والأمومة والرضاع وحضانة الأطفال ، وتدبير المنزل ، ولها الرئاسة في جميع الاعمال الداخلية . وللرجل عمله الخارجي الشاق ؛ وهو الكسب والانفاق وحماية الديار ، وبذل النفس والمال في سبيل الله .

النساء ربات البيوت ، ومربيات الاطفال ، بل هن أميرات الداخل ، ومعاقل المنازل ، وما زلن أقرب الى الفطرة ، واعف من الرجل ، وأبعد عن كل مسكر وميسر ، وسائر أنواع المفاسد لمزايا من طريقة تربيتهن يحاول بعضهن نبذها ، وللمرأة الحق بأمر الرجل بالمعروف ونهيه عن المنكر ، وتطهير بيتها من جرائيم الفساد التي يحاول الرجل الأثيم أن يلقح بها عياله وأطفاله ، فتفتك بهم عاجلاً أو آجلاً كما فتكت به من قبل . فعلى النساء أن يحذرن كل الحذر ، وأن يعلمن حق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن يذكرن الآية الكريمة ، « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر »[1] فقد أعطت هذه الآية الكريمة الحق للرجال والنساء على السواء ، ويدخل في هذا انكارهن حتى على الخلفاء والملوك والأمراء والرؤساء والزعماء ، وقد كان النساء يعلمن هذا ويعملن به كالرجال .

كما فعلت تلك التي عارضت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) في أمر المهور ، وهو واقف يخطب على منبر الرسول ، فاعترف بخطائه ، ورجع الى قولها عن قوله .

---

(١) سورة التوبة ، الآية: ٧٢

ان أمر المرأة لعجيب ، في التاريخين القديم والحديث ، فمنهم من عبدها ، ومنهم من وأدها ، ولكن الاسلام هو الذي أنزلها المنزلة اللائقة بها ، فهو قد منحها حقوقها ، وعرفها واجباتها ، وآية « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة »[1] لا يوجد في الدنيا قانون أعدل ولا أجمع منها ، إذ قد ساوت بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات وخصت الرجل بدرجة الرئاسة الشورية (لا الاستبدادية) اذ لا بد لكل جماعة أو أسرة من نظام ، ولا بد لكل نظام من رئيس منفذ ، والرجل أولى بتطبيق النظام المنزلي وتنفيذه ، فالاسلام لم يستعبد المرأة كما فعلت الأمم السابقة ولم يقلب نظام الطبيعة ليجعل منها رجلاً ثانياً كما فعلت الأمم الحديثة المتمدنة ، فقد تخلى عنها الأب والأخ والزوج والابن ، ودفعوها جميعاً في تيار العمل واللهو خارج المنزل ، فاختل نظام البيوت ولا نزال نسمع الشكوى المرة في الاذاعات العامة المرة بعد المرة ، من تقوض دعائم الأسرة والوطن .

زعموا ان الاسلام قد هضمها حقها في الميراث ، أو لا يذكر هؤلاء أن مهرها وإرثها وكسبها لها ، وأنها تتصرف في أموالها كيف شاءت ، وهل تملك المرأة الحديثة من مال زوجها ، أو من مال نفسها من التصرف المطلق مثل ما تملكه المرأة المسلمة ؟ كلا إنها لا تملك حق التصرف في مالها نفسه بغير اذن زوجها .

وزعموا أن الاسلام جعلها بنصف عقل الرجل في كل شيء أو لا يعلمون أن أصل هذه المسألة هي آية المداينة ، في آخر سورة البقرة ، ومنها قوله تعالى : « واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء » وعلل ذلك سبحانه بقوله : « أن تضل إحداهما فتذكر احداهما الاخرى » أي اذا نسيت احداهما ذكرتها الثانية ، فاذا كان الرجل في

---

(٢) سورة البقرة ، الاية : ٢٢٨

مقام امرأتين فيما ليس من خصائصها ولا هو من وظائفها ، وهو ينسى عادة من مثلها ، أفلا تعد المرأة بمنزلة رجلين في شؤونها المنزلية ، وأمورها الداخلية ، وهل ينقص هذا من قدره شيئاً ياترى ؟ ألم يفرق الرسول عليه الصلاة والسلام بين عقبة بن الحارث — وزوجه أم يحيى بنت أبي اهاب لما شهدت أمة سوداء بأنها أرضعتها ، والحديث في الصحيح ، وهل جعلها الرسول صلوات الله عليه ناقصة العقل ضعيفة الذاكرة فيما هو من خصائصها ، أم قبل خبرها وحدها بعد نحو عشرين عاماً ؟

وأما كونها بنصف دين ، فالدين كالايمان يطلق على الصلاة ، وللمرأة عادتها الطبيعية في الحيض والنفاس، والشارع قد أسقط عنها الصلاة في تلك المدة طالت أو قصرت « ذلك تخفيف من ربكم ورحمة » بخلاف سائر أركان الاسلام كالزكاة والحج والصيام فهي مطالبة بادائها كاملة كالرجال .

اصلاح الأمة باصلاح الأسرة ..

البيوت مؤلفة من رجال ونساء وبنين وبنات ، والرجل هو المسؤول عن زوجه وولده وسائر من يتصل به ، وفي الحديث الصحيح « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » ، فيجب على الرجل أن يأخذ نفسه وولده بأدب الدين ، والدين هو جماع الفضائل والآداب ، فان كان الرجل جاهلاً أو ضعيفاً لا يستطيع أن يعلم بنفسه ، ولا أن يكون قدوة صالحة لغيره ، فعليه أن يستعين على ذلك بعلماء الأمة الابرار وهم العاملون الاطهار ، لا أن يركن الى التقاليد التي هي من أشد ما يفسد حياتنا الفردية والاجتماعية ، وعلى العلماء الذين هم ورثة الأنبياء أن يقوموا بواجب التهذيب والتعليم ، وان تقوم بذلك المدارس أيضاً ،

أما إذا كان الرجل فاسقاً وحاول أن يدخل الاثم في بيته ، ويلوث طهارته وطهارة زوجه وولده ، فما على المحصنات في البيوت والأولاد البررة إلا أن يأخذوا حذرهم ، ويتعاونوا جميعاً على نصحه ومنعه ، عملا بالآية الكريمة « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان »[1] ومتى صلحت الأفراد صلحت الجماعات ، ومتى صلحت الأسرة صلحت الأمة .

والحمد لله على التمام ، ونسأله سبحانه حسن الختام
وصلى الله على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه
الكرام ، ومن تبعهم بإحسان آمين

---

(١) سورة المائدة ، الاية : ٣

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة

رقم الصفحة	الموضوع
١٨٦ – ١٩٦	**حول مقـــال النصير الطوسي والوزير ابن العلقمي والامام ابن تيمية :** حجة الشيخ سليمان الظاهر في أن الطوسي إمامي اثنـــا عشري لا نصيري أو اسماعيلي : ١٨٦ تعـداد الشيخ سليمان الظاهر لمناقب الطوسي : ١٨٦ ــ تبيان ابن تيمية لدور الطوسي وصحبه في دخول التتر الى بغداد ومذابحهم فيها : ١٨٧ ــ ما كتبه الكتبي عن الطوسي : ١٨٧ ــ عزو الظاهر انهيار الخلافة العباسية إلى لهو المستعصم : ١٨٨ ــ وهم الظاهر في تاريخ وفاة الكتبي : ١٨٨ ــ ابن تيمية لم يصاحب الطوسي ولم يكاتبه : ١٨٨ ــ كتب التاريخ تؤيد ما ذهب اليه ابن تيمية في الطوسي: ١٨٩ ــ كلام ميرزا محمد باقر في ذلك : ١٨٩ ــ كلام السبكي في طبقاته : ١٨٩ ــ كلام الزركلي في الأعلام : ١٩٠ ــ كلام معجم سركيس : ١٩٠ - موقف الامام ابن تيمية الحازم في وجه الفاتحين : ١٩١ــ مكاتبة الوزير العلقمي لهولاكو : ١٩١ ــ كلام الاسحاقي في ذلك : ١٩١ ــ كلام محمد كرد علي في ذلك : ١٩٢ - مثال من دهـاء الطوسي في سبيل غاياته : ١٩٤ - كلام ابن القيم في النصير الطوسي : ١٩٥ ـ ما جاء عنه في « مفتاح السعادة »: ١٩٥
١٩٧ – ٢٠٤	**نقد بعض ما جاء في كتــاب « الاسلام » تأليف الفريد غيوم .**

تصويبات

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥	١٩	المخلوقات	الموجودات
١٢	١١	والنذر ، ليقربوهم	والنذر ، بل اتخذوا من دونه آلهة ليقربوهم .
١٤	٤	بحشرهم	« يحشرهم »
١٦	٥	بخمس	بخس
٤٣	٦	غددوا	غدروا
٥٤	١٤	وقال	وقال به
٨٣	٤	ومعناة	ومعناه
٨٥	٩	وملائكه	وملائكته
٨٦	١	الاسلام	السلام
٨٧	٤	فسر	فسَّر
٩٨	١٩	سريح	صريح
١٠٥	٥	ممكننا	ممكنا
١٠٩	٩	لغيرهم	لغيره
١١٠	٧	نفات	نفاة
١٤٨	١٠	من أساسة	من أساسه
١٥١	١١	من خصائصه من كما	من خصائصه كما
١٥٧	١٩	الفطان	القطّان
١٩٠	١١	ج ٣ ص ٩٩٤	ج ٣ ص ٢٥٧
١٩٣	١٠	يحممه	يجمعه
١٩٤	١١	اضطرلاب	أصطرلاب
١٩٥	١١	الكتا ين	الكتابين

آثار المؤلف

١ ــ نقد عين الميزان

٢ ــ الثقافتان الصفراء والبيضاء

٣ ــ تخريج أحاديث كتاب: «قواعد التحديث» للعلامة جمال الدين القاسمي

٤ ــ إكمال تفسير المرحوم محمد رشيد رضا لسورة يوسف

٥ ــ تحقيق « مسائل الامام أحمد » لتلميذه أبي داود ، والتعليق عليه

٦ ــ نظرة في: «النفحة الزكية»

٧ ــ تخريج أحاديث كتاب « البخلاء » للجاحظ

٨ ــ التعليق على « الموفي في النحو الكوفي » ، وتحقيقه

٩ ــ شرح « أسرار العربية » لأبي بركات الأنباري

١٠ــ حياة شيخ الاسلام ابن تيمية

تحت الطبع

خُلاصَةُ
فتاوى شيخ الاسْلام ابن تيميَّة

بقلم تلميذِه

العلاّمة محمد بن عبد الهادي المقدسي

و

المسَائِلُ
التي حلف عليها الإمام احمد بن حنبل

كلاهما

بتحقيق

محمّد زهير الشاويش

صاحب المكتب الاسلامي للطباعة والنشر

المكتب الإسلامي
للطباعة والنشر

دمشق - الحلبوني
صندوق البريد ٨٠٠ - برقيا . اسلامي
هاتف : ١١٦٣٧

الثمن ٣٥٠ ق.س